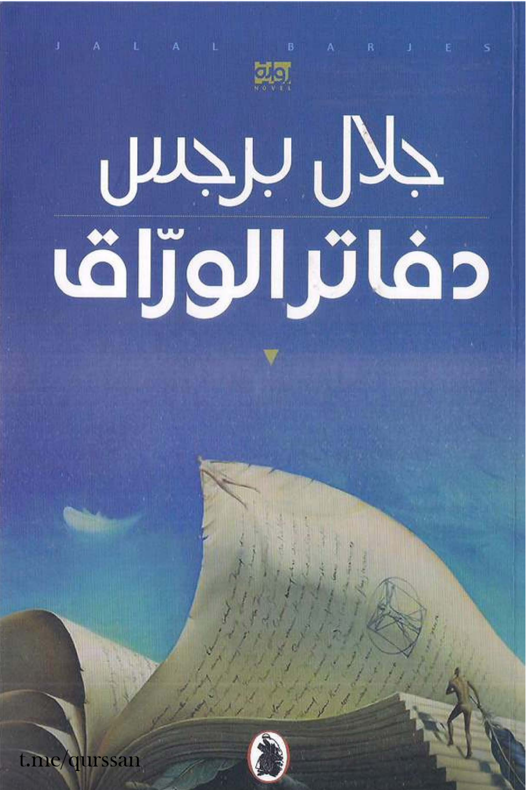

JALAL BARJES
رواية
NOVEL
جلال برجس
دفاتر الورّاق
t.me/qurssan



▼

جلال برجس

دفاتر الورّاق

▲



إلى قرائي الذين أفسحوا لكلمتي مكانًا في قلوبهم ؛
فربحتُ الخلود .

«حتى الحياة السعيدة لا يمكن أن تخلو من قدر من الظلام، وكلمة «سعيد» ستفقد معناها إذا لم تتوازن بالحزن»

كارل غوستاف يونغ

الفصل الأول

« ضميري يطاردني ، فهو الذي يتعقبني ، ويقبض علي ، ويحاكمني ، ومتى سقط الإنسان في قبضة ضميره فلا مفر له»

فيكتور هوجو

١
إبراهيم
(حمل شرير)

كنت مثقلاً بالحزن كقطعة إسفنج أُشبعت بالماء حينما نظر رجل في السبعين من عمره بوجهي وهو يدفع لي ثمن كتاب اشتراه ، ثم قال قبل أن يمضي متوكأ على عكازه واختفى في زحام وسط البلد : (كلما كثر صمتك كبر حزنك) .

بعد كل تلك السنين ها أنا أتذكر ما قاله ذلك الرجل وأكتب رغم قناعتي من أن الكتابة لن تجعلني أنجو مما وصلت إليه ، ولن تردم هوة معتمة تخلقت بي على نحو مبهم ، بل لأغطيها فأحظى بسكينة لو حدثت لي ستجعلني أبتسم بوجه أي وجع مهما بلغت درجاته . ليتكم تتخيلون حجم سعادتي بهذا الدفتر ذي الورق الأبيض الصافي ، وهذا العدد من الأقلام ، أثمن هدية في حياتي الغريبة قدمتها لي امرأة حينما رأيتها لأول مرة شعرت ببرق يهوي في سماء روحي ، أقسم إنني شعرت بهذا ، فعرفت أن للحب يدًا قادرة على انتشال غريق يلفظ نفسه الأخير في بحر هذه الحياة المالح . لكن هل عشت أم مت؟ سؤال ظل معلقًا منذ تلك السنة أمام عيني وأنا أرى كيف تركتِ الغرابةُ كل شيء في هذا العالم ، وأتت لتلتصق بي كذرات معدنية تتكوم على قطبي بمغناطيس .

أنا رجل وحيد لا طريق لي غير التي تأخذني من بيتي في (جبل

الجوفة) إلى وسط البلد ، حيث كشك الوراق الذي كنت أمتلكه . وحيد بشكل لا أدري إن استطعتم فهمه أم لا في مدينة عالية الضجيج . لم أهتم بأحد ، ولم يهتم بي أحد إلا امرأة تجاورني ولا أدري من أين أتت ، وما هي قصتها . لم أرها تخرج من بيتها الذي يقع في الطابق الثاني لبناية قديمة تواجه بيتي ، رأيتها مرات قليلة في الشرفة لا يظهر من وجهها سوى عينيْن من وراء النقاب وهي تنشر الغسيل . في إحدى تلك المرات ألقت لي بورقة وأشارت بيدها نحوها ، التقطتها وكانت فيها كلمات قليلة : (تعال عندي بعد منتصف الليل ، أريدك بأمر هام) . لكنني لم أذهب ، فلا فضول لدي لمعرفة ما تريده مني ، ولا رغبة جنسية رغم أني فكرت مثل غيري من الرجال باحتمال دعوتها لي إلى سريرها ، لا يعني هذا أني قديس لكني مكتفٍ بطريقة أعرف أنها سلبية ومنفرة ، فما إن يطلق جسدي نداءاته حتى أستلقي في سريري وأستحضر امرأة من روايات أغرمت بها ، مثل إزميرالدا الغجرية الفاتنة يوم رقصت في احتفال المهرجين في رواية أحدب نوتردام ، أراها تفتح باب الغرفة ورائحة عطرها النفاذ تسبقها ، فتفيق تلك النيران المتوارية بي ، تدور حول نفسها بفستانها الملون فأرى جسدها المصقول ومؤخرتها اللدنة . ترقص كأنها تروض نحلاً عند فم وردة في روحها ، ثم تتعرى وتستلقي بجانبي فنروح في لذة تضرم جسدينا إلى أن ننتفض كوعل تلقى رصاصة في الجبين فارتعش واستسلم للسكون والبياض .

تذكرت جارتي حينما كنت مستلقيًا في تلك العصاري ، أحدق بطبقة رقيقة من طلاء سقف الغرفة الرطب المتعفن فوق رأسي مباشرة وعلى وشك السقوط ، تتأرجح بفعل نسمة تشرين الثاني ، الشهر الذي

كان قد حلّ للتو . كنت أتخيل لحظة سقوطها وإلى أي شكل ستؤول ، وأتساءل عن كل ذلك المصير ، فالأشياء لا تسقط جزافًا ؛ فكرة بدلت مسار العالم حينما هوت التفاحة على رأس نيوتن . يوم قالوا لي إن أمي ماتت سمعت صوتًا همس بأذني : (لقد سقطت) . تلفتُ حولي فلم أجد إلا أبي يبكي بصمت . لقد كان الصوت ذاته الذي أخذ يهمس لي منذ أن رحلنا من بيتنا الأول قبل خمسة وثلاثين عامًا وتحديدًا عام ١٩٨٠ . كان يمكنني أن أخبر أي واحد من عائلتي بشأنه ، لكن من كان سيصدقني . يوم وفاة أمي حسبت أنها ماتت من دون مقدمات فلم أكن أدري أن السرطان كان ينهش جسدها . في السنوات الأخيرة من حياتها وحينما ساء حالنا جلست إلى بسطة خشبية تبيع حشائش لا يأكلها إلا فقراء هذه البلاد . لقد ضاق الحال وصار مزريًا شبيهًا بطرقات وشوارع وشكل بيوت جبل الجوفة . كانت تداري ألمًا في معدتها ، كلما استبد بها تشرب مغلي الميرمية وتوهمنا بأنه غادرها ، إلى أن أتت الجارات يحملنها مغشيًا عليها ، قالت إحداهن إنها استفرغت سائلاً ثقيلاً له لون القهوة ، وقال الطبيب في مستشفى البشير إنّ هذه إشارة على إصابتها بسرطان المعدة ، وماتت عند أول عميلة جراحية . أصابت أخي عاهد نوبة عصبية انقض إثرها على الأطباء ، وحطم كل شيء تقع عليه عيناه . أما أنا فكنت أقف بقرب والدي صامتًا بلا قدرة على أن أذرف دمعة واحدة ؛ حزن قاس يتقاطع به انشغالي بالصوت الذي همس بأذني قائلاً إنّها سقطت .

بعد سنين اختفى أخي عاهد إثر صراخه بوجه أبي : (لن أكون نسخة عنك) . في اليوم الأول اعتقد أبي أنه سيعود حين وجدنا هاتفه مغلقًا ، لكن مع مضي اليوم الثاني أخذ القلق يساورنا ، فلا أحد من

أصدقائه يعلم عنه شيئًا . في اليوم الثالث قدّم أبي بلاغًا حول اختفائه ، وبعد أيام تلقيت منه رسالة تفيد أنه ارتحل إلى تركيا وأنه سيمزق جواز سفره ويهاجر كلاجئ سوري . آخر رسالة وصلتني منه قبل أن تنقطع أخباره كانت مليئة بالقهر والوجع ، شرح فيها كيف كان شكل إحساسه بلا عمل في حي لا يلتفت إليه أحد ؛ حيّ دخن فيه الحشيش بمعية رفاق محبطين إلى أن فقد القدرة على الحلم . بقي والدي صامتًا حينما قرأ الرسالة ، أمضى نصف ساعات الليل يقاطع يديه على صدره إلى أن دخل غرفته ، فجاءني صوت بكائه مشبعًا بالوجع . بعد سنوات غادر والدي البيت ، وجدته قد ألقى بالعقاقير المضادة للاكتئاب في سلة المهملات ، وترك لي ورقة كتب فيها : (حصلت على عمل ، لي منه يوم إجازة واحد كل أسبوع سأمضيه معك) . أعدت مستغربًا قراءة ما كتبه لمرات ، وما وصلتُ إلى نتيجة تبرر غيابه المفاجىء . عاد بعد أسبوع وأخبرني أنه كان في الشمال حيث عُيِّنَ في مركز للدراسات الاستراتيجية ، وأنه لن يستطيع العودة إلى البيت إلا يومًا واحدًا . مضى شهر زارني فيه أربع مرات ، اختفى بعدها ، فأبلغت الشرطة باختفائه بعد أن بحثت عنه كثيرًا ، ثم استسلمت ، ربما فعلت ذلك انصياعًا لأمنية دفينة في أنْ يغيب عني رغم حبي الشديد له ، لقد لاح هذا الأمر لي في مناماتي ، فالأحلام انعكاس لما يكتنز في آبارنا السرية مما يجب على الآخرين عدم معرفته ، لكنه عاد بعد سبعة أشهر من الغياب . استقبلتني رائحته عند الباب وأنا أهمّ بالدخول ، ثم سمعت سعلته فأسرعت أبحث عنه ، كان شارد الذهن لا يتحرك منه سوى خيط دخان سيجارته ، في وجهه كثير من التعب ، وفي عينيه بعض الكلام . لم يقل شيئًا عندما عاتبته على

غيابه إلا عبارة قصيرة : (سنتحدث لاحقًا) . آويت إلى الفراش باكرًا أستجدي النوم كأنني أهرب من هاجس ما ، وحين غفوت أحسست بشعر لحيته على وجهي يقبلني فاستفقت . (لقد سمعتك تحلم) قال ذلك ثم غادر ، وعدت إلى نومي . سمعت في اللحظات التي كنت أتأرجح فيها بين النوم والصحو جلبة في المطبخ ، فنهضت وإذا بي أجده قد علّق حبلاً في سقف الغرفة ولفه حول عنقه ، ووقف على الكرسي . كانت من أقسى لحظات حياتي ؛ إذ رأيت أن المسافة القريبة بين باب المطبخ والكرسي تعادل مسافة عمري منذ الولادة إلى تلك اللحظة ، تجمدتْ كل الكلمات في حلقي ، واستحال كل شيء إلى عتمة مرعبة اكتملت بسقوطه وبمنظر جسده المعلق في الهواء . ومنذ ذلك اليوم يلفني صمت مثل هذا الذي يحيط بي الآن من كل الجهات . وحيد ، مثل قط أكتع لا ألوي على شيء في جبلٍ بيوتُهُ صغيرة ، شوارعه ضيقة ، خطّها مهندس ثمل ، أناسه متعبونَ ، مهمشون قبالة جبال باتت تصعد فيها أبراج تجارية ، وفلل ، ومولات ، وتضج سماؤها ليلاً بألعاب نارية تشير إلى بهجات لم نذقها . أرى العالم عبر نافذتين : الأولى وفرها لي العدد الكبير من كتب قرأتها في كشك الورّاق بعد أن صار ملكًا لي إثر موت والدي ، والثانية الإنترنت الذي مع مرور الأيام صرت خبيرًا به إلى درجة أن بإمكاني اختراق أي حساب إلكتروني . عالم مواز للعالم الذي نعيش فيه بل إنّه سيصبح ذات يوم عالمنا الوحيد ، والذي سنتحول فيه إلى كائنات رقمية توجهنا كما الأغنام في المرعى أيادٍ لا نعرف إلى مَنْ تعود .

عدّلتُ من وضع الوسادة أتهيأ للنوم وأنا ما أزال أحدق بالسقف . ثمة أصوات متداخلة تجيء من الخارج : صوت لامرأة تشتم ابنة لها لم

تعاونها في عمل البيت ، وتسب الانترنت الذي سرق الناس حتى من أنفسهم ، وصوت آخر لرجل يردد أغنية تحكي عن الشوق ، إلى جانب أصوات أخرى تأتيني من البيوت ترافقها رائحة ثوم مقلي ، ورائحة حاوية قمامة . أخذ النعاس يقصي الأصوات ، وشكل سقف الغرفة شيئًا فشيئًا إلى أن أغلقت جفنيَّ ، لحظة فيها من المتعة ما يمكن لواحد مثلي لم ينم منذ أيام أن يقدرها ، لكن سقوط طبقة الطلاء على وجهي بددها فجفلتُ ، وطارتْ رغبتي بالنوم . نهضت ومشيتُ نحو المطبخ مارًا بالصالة من بين كتب تكدست بها : منها ما هو في صناديق ورقية ، ومنها ما هو مربوط بخيوط مقوّاة ، وجزء منها متناثر هنا وهناك . فوضى من كتب (كشك الورّاق) الذي أقامه أبي على رصيف أول شارع (الملك حسين) عام ١٩٨١ ، ونقلتها إلى البيت قبل أسابيع بعد أن استلمت بلاغًا من أمانة العاصمة يشدد على ضرورة تركي للكشك ؛ حيث سيتم توسيع الأرصفة ، مع وعد بأن يتم تعويضي بمكان آخر ذات يوم ، فما عاد لي عمل أعتاش منه .

شربت كأس ماء وعدت إلى سريري بخطى متثاقلة ، واستلقيت فيه . على طاولة صغيرة بقربي رواية (الأبله) لديستويفسكي ، قرأت هذه الرواية لأكثر من مرة لكنني أعود لها مثلها مثل عدد من الروايات التي استوطنت شخصياتها ذاكرتي ، وبت أقلد أبطالها ، هواية لا أدري سببها وكيف صرت أتقنها على ذلك النحو الغريب . سألني ذات مرة أستاذ المدرسة بعد أن فعل ذلك مع معظم الطلبة : (ما هي هوايتك يا إبراهيم الساهي؟) كناية عن قلة كلامي وسهوي الكثير . صرخ أحد الطلبة بوتيرة صوتية متسرعة : (إنه بارع في التقليد) . كان الأستاذ له اسم والدي (جاد الله) لكن شتان ما بينهما ، الأستاذ (جاد الله) رجل

متجهم وإن ضحك فله ضحكة صفراء يتبعها غضب حاد ، منعني ذات مرة من الذهاب إلى الحمام والمغص يفتك ببطني ، فتغوطت على نفسي ، من ذلك اليوم وأنا أكن له كرهًا شديدًا . اقترب مني بعينيه الضيقتين وقال بصوت فيه شيء من البحة المزعجة : (هيا إذن قم بتقليدي) . لم أفعل لأنني لن أقوى على تقليد شخص لا أحبه ، فقمت بتقليد أستاذ اللغة العربية ، أغمضت عيني أتأمل صورته في مخيلتي ، وأرخي عضلات وجهي ، ثم حركتها إلى أن اتخذت الشكل ذاته الذي عليه وجه أستاذ اللغة العربية ، ورحت أتحدث بالنبرة ذاتها ، وأمشي بالإيقاع ذاته وهو يحكي بحب شديد عن المتنبي ، هواية لا أدري لها تفسيرًا ، وكيف يحدث هذا لي ، بحيث يصبح شكل وجهي ، وحركاتي مطابقة لمن أقلده ، حالة احتارت بها عائلتي ثم مع الأيام تقبلوها رغم غرابتها الشديدة .

تحركتُ ، فكسر صوت السرير حدة الصمت ورواية الأبله بين يدي ، قرأتُ منها صفحتين لكنني ما وجدت رغبة لأستمر ، أمسكت بهاتفي النقال الخالي إلا من قليل من الأرقام ، مثل رقم أخي عاهد الذي كلما استبد بي الحنين إليه أتصل به فيجيبني صوت أنثوي يفيد بأن الرقم مفصول ، ورقم مقهى كنت أيام عملي في كشك الوراق أتصل به وأطلب قهوة أو ساندويشة ، وأرقام غير محفوظة لزبائن الكشك . ضغطتُ أيقونة الفيس بوك فاقتادتني إلى شاشته الزرقاء وقد كنت من قبل سجلت فيه باسم ديوجين ، لا أنشر فيه إلا نادرًا بعض المقتطفات مما راقني من الكتب ، ولا أمضي فيه كثيرًا من الوقت ، فكرتُ بأن أكتب عما حدث للكشك وقد أزيل كما لو أنه كومة شوك في درب ضيقة ، لكني تراجعت كعادتي ، واكتفيت بقراءة بعض ما نشره

المستخدمون بجرأة بقدر ما أسعدتني جعلتني أيضًا أواجه الألم جراء خوفي من كتابة سطر واحد يشكو ما حدث . ألقيت الهاتف جانبًا ، واستلقيت في السرير أنظر إلى السقف أتأمل مكان طبقة الطلاء ، وأصوات جديدة تأتي من الخارج أعلاها صوت عبد الباسط عبد الصمد يقرأ سورة يوسف . فجأة دبّت حركة في بطني ورأيته ينتفخ شيئًا فشيئًا إلى أن صار كبطن امرأة في شهرها التاسع . نهضت مفزوعًا أدور حول نفسي في الغرفة ، ويداي تلامسانه ولا أفهم ما الذي يجري ، وكيف ينتفخ بطني؟ خلعت ملابسي وهرعت مرعوبًا نحو المرآة أتأكد هل ما أراه حلمًا أم واقعًا؟ كيف يحدث هذا؟ ما الذي يجري! فركت عيني أتأكد مما أنا فيه ، ثم ركضت نحو صنبور الماء ورشقت وجهي بحفنة منه أكثر من مرة ، لكن لا فائدة فقد كنت أمام حقيقة ماثلة في بطني ، ركضت مذعورًا نحو باب البيت ؛ فتعثرت بالكتب ، وسقطت ، ثم تعثرت مرة أخرى ، حبوت إلى أن أمسكت بمقبض الباب ، فسمعت الصوت الذي داهمني يوم ماتت أمي ، لكنه أتى هذه المرة قويًا وواضحًا :

– ماذا ستقول لهم إن خرجت يا إبراهيم؟ سأتلاشى بمجرد أن تتجاوز هذا الباب . قلت لك منذ زمن حينما لم أجدك تطيع ما أقول : لا بد لي أن أفعل ما لم تفعله أنت ، أيها الجبان .

لشدة الرعب خرجت ووقفت قبالة الباب لاهثًا وغير مدرك أنني عارٍ ، إلى أن انتبهتُ إلى جارتي في الشرفة ، فما إن رأتني حتى وضعت يدها على عينيها ، وعبرت مسرعة إلى الداخل وكتفاها تهتزان لفرط الضحك . عدت إلى المرآة أتفحص بطني مذهولاً وضحكات ساخرة تأتي منها ، قلتُ وبالكاد أقوى على التنفس وبصوت مرتعش رغم عدم قناعتي بما أفعل :

- من أنت؟

- أنا الذي سأخلصكم من أوجاعكم ، لا تستهن بي فإن هوت خطوتي على الأرض ستنهار أمامها بنايات ويتصاعد الغبار؟

- لم أفهم . من أنت؟

كررت سؤالي عدة مرات وبطريقة تشبه طريقة امرأة فوجئتْ بلص في أواخر الليل يباغتُ منزلها ، لكني لم أجد أي فائدة . ارتديت ملابسي على عجل وركضت نحو الباب ، عاد الصوت يثنيني عن الخروج مؤكدًا أن ما أفعله لن يفيد بشيء ، استجمعت ما تبقى من قواي ، وخرجت أركض في الشارع بخطوات مرتبكة ، واعترضت سيارة أجرة كادت أن تدهمني ثم ركبت فيها بسرعة ، ورغم صعوبة قدرتي على النطق طلبت من سائقها أن يوصلني إلى مستشفى البشير .

- هل أنت بخير؟

قال السائق متفاجئًا ، ثم أخفض من صوت مسجلة كانت تبث أغنية شعبية سريعة الإيقاع ، ثم حين لم يجدني أقول شيئًا أسرع ينبه عابري الشارع المختنق بعرضه الضئيل ، وبالسيارات التي أمامه مستخدمًا بوق سيارته عبر الزحام إلى أن وصلنا المستشفى . ما إن هبطت من السيارة حتى عاد بطني منتفخًا ، وعاد ذلك الصوت مهددًا وضاحكًا ، ثم اختفى بعد أن تجاوزت باب قسم الطوارئ ، وجلست على أحد الأسرة أنتظر دوري بين المئات من مراجعين نفد صبرهم لطول الانتظار ، كنت أرتعش بشدة ولا أكاد أقوى على ضبط حركة جسدي عندما توسلت طبيبًا مرّ بقربي بعد أن أنهى فحص مريض مستلق في سرير بجانبي .

- مم تشكو؟

قال بعجالة بعد أن وضع يده على جبيني . ثم كرر سؤاله عندما وجدني صامتًا :

- أخبرني ما الذي تشكو منه؟

استجمعت قواي لنطق ولو كلمة واحدة ، وقلت :

- بطني .

- تؤلمك؟

- لا .

استغرب الطبيب وتساءل عما بي ، ثم جلس بطرف السرير وحثني على الهدوء . أمسك بيدي المرتعشة ، فأخذت أقص عليه ما حدث . كان ينصت وعلى وجهه علامات استغراب تختلط بابتسامة تتراجع مرة وتظهر مرة أخرى . في ذلك اليوم أجروا لي اختبارًا يكشف إن كنت قد تعاطيت المخدرات ، ثم حين لم يجدوا شيئًا من ذلك القبيل قاموا بإجراء صورة تلفزيونية لبطني تفحصها الطبيب ، ثم حدق بي وفي وجهه أمارات غريبة ، فداهمني الخوف أكثر .

٢

ليلى

(العبور إلى ضفة مجهولة)

خطوة واحدة إلى الأمام ستجعل الملجأ يبتعد إلى الوراء ، وتقترب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئًا إلا ما كونته المخيلة من الأحاديث مع شقيقات وأشقاء عشت معهم ثمانية عشر عامًا . خطوة واحدة نحو عالم لا عائلة لي فيه ولا أقرباء . أعطوني مئتي دينار ، وبطاقة شخصية فيها اسم أب وأم مستعارين ، ودلوني على بيت تسكن فيه فتيات من النزيلات السابقات للملجأ ، ثم قالوا لي عليك أن تغادري الآن . هكذا وبكل بساطة!

لم ألتفت ورائي ؛ هروبًا من البكاء مجددًا ، إذ يعز عليَّ حتى مكان مثل ذاك شهدت فيه أيامًا موجعة ، ثمة يد خفية كانت تمسك بكتفي وتجرني إلى الملجأ . وقتها بكيتُ ؛ حزنًا على فراق من أحببتهم ، وغضبًا ممن آلموني ، وخوفًا مما أنا ذاهبة إليه . ما إن خرجت من الشارع الذي يقع فيه الملجأ حتى سمعت بوق سيارة أجرة ، لوحت لسائقها بيدي فتوقف وركبت ، أعطيته ورقة دوَّنوا لي فيها العنوان . كان السائق يدندن بكلمات أغنية تصدر من المسجلة ، ويدخن بشراهة ، وينظر إليَّ عبر مرآة السيارة .

- أنتِ من بنات الملجأ؟

قال متسائلاً وعيناه تبتسمان بخبث ، ثم حين لم يجد إجابة مال

بجسده إلى اليمين ولوى عنقه نحوي :

- سأوصلك أينما تريدين ثم أنتظرك ؛ لنخرج سويًا .

تساءلت بسري هل كُتب على جبيني عبارة تفيد بأنني لقيطة ، ولا عائلة لي؟ ضغط شيء على معدتي وبت على مقربة من أن أتقيأ ، فتذكرت ليلة أن تحرشت بي المشرفة : كنت قد خرجت من الحمام للتو أقف أمام المرآة أجفف شعري . رأيتها ورائي ، أنفاسها تتعالى وفي عينيها إشارات لاحظتها حين تتلصص علي في سرير النوم ، وفي التواليت ، وفي الحمام ، وفي أي مكان أوجد فيه . اقتربت مني أكثر والتصقت بي ، لم أنتبه إلى أنها كانت قد أغلقت باب الردهة الصغيرة الملحقة بالحمام وراءها ، كانت كلماتها أشبه بهمس غير مفهوم وهي تلامس جسدي وتخبرني برغباتها . خرجتْ نصف صرخة من فمي ، والنصف الآخر كتمتْهُ بيدها القوية . دفعتني نحو الحمام وقالت بلكنة قاطعة : (إن قاومت سأجعل سخط الدنيا ينزل على رأسك) . واغتصبتني . نعم اغتصبتني . ما أبشع أن يبقى الإحساس بالمهانة يطاردك متجاوزًا كل ما تبذله من جهود لتنسى .

استفقت على حركة السيارة وعلى صرير عجلاتها حينما كاد السائق أن يدهس أحد المارة ، قال لي إنّه فقد تركيزه وهو يفكر بي ، قالها وفي وجهه ملامح قذرة ، ومخيفة ، وموجعة ، لا أدري لماذا لم أطلب منه أن يتوقف وأستقل سيارة أخرى ، إذ حافظت على صمتي إلى أنْ مدّ يده ولامس فخذي . صرخت مرعوبة ، وتملكني الرعاش فزاد من سرعته وراح يشتم الدنيا والناس . توقف أمام بناية وأشار بيده إلى العنوان الذي طلبت الذهاب إليه ، ثم شتمني :

- تبيعين الشرف علي يا بنت الحرام؟

خرجتُ من السيارة من غير أن ألتفت إليه وكلماته تتردد في أذني ، بالكاد صعدت الدرج وقرعت الباب . كانت أنفاسي ضيقة ، وكل شيء بي يرتعش ، لم يجبني أحد ، فمكثت هناك إلى أن حل المساء ، وعيناي مصوبتان على باب الشقة كأني أنتظر أحدًا يفتح صدفة ، كان وقتًا طويلاً مليئًا بالخوف والحزن ، وإحساسًا يشبه الضياع .

سمعت خطوات قادمة من بهو الدَرَج ، كانت أسماء وقد صار وجهها متعبًا وقامتها هزيلة ، تفاجأتْ حينما وجدتني أضع رأسي على ركبتيَّ وأنظر إليها بعينين ذابلتين ، استقبلتني ببكاء شديد ، بعد مُضِيِّ عامين على مغادرتها الملجأ . عبرنا إلى الداخل ، شقة صغيرة خالية من الأثاث إلا من فرشات إسفنجية ، وبضعة أغطية ، وأواني مطبخ قليلة . أخبرتني أنها تعمل في مطعم من الصباح حتى المساء مقابل مئتي دينار في الشهر ، كانت محبطة ومتعبة وفاقدة لأي ذرة أمل ، قالت لي إنها لو بقيت في البيت لقتلت نفسها ، سألتها عن ماجدة فأخبرتني أنها ستأتي بعد قليل ، ثم أشارت بيدها إلى غرفة مغلق بابها : (إنها هناك) . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بدقائق عندما خرجت ماجدة من الغرفة فصُدِمْتُ بما رأيتُ .

٣

إبراهيم
(جريمة مباحة)

تردد ما قاله الطبيب في مسمعيّ وأنا أعود مشيًا من المستشفى إلى جبل الجوفة بلا توقف، رغم التعب الذي كان يحتلني منذ أيام: (عليك أن تراجع طبيبًا نفسيًا). لم تكن بطني منتفخة ولم يعاودني ذلك الصوت، لكن القلق كان يجيء حادًا كنصل لا يقف في طريقه شيء. يومها احتجت أبي أكثر من أي وقت مضى، كنت خائفًا وبي رغبة بأن ألوذ بحضنه وأبكي على غير عادة كل ذلك العمر الذي مضى ولم أفعلها ولو مرة واحدة، لم يحدث أن ضمني، أو حتى لامس رأسي كما يفعل الآباء، رغم أن فيه الكثير من طيبة أراها عن بعد كمن يجلس في زاوية معتمة ويراقب شخصًا ما، لم تكن قسوة، بل كانت وما زالت أمرًا غامضًا بالنسبة لي ازداد بعد رحيلنا إلى عَمّان حين خرجتُ مرغمًا من القرية. ما زلت أتذكر ليلة عودته؛ كان الوقت ليلاً حينما حدثت جلبة في بيتنا في ذلك الصيف من عام ١٩٨٠، ليلة لا يُرى فيها من قريتي إلا إنارات فوانيسها الباهتة، ولا أصوات تتخلل سكونها إلا نباح كلاب مذعورة. كنت في فراش النوم أنا وأخي عاهد تسرد علينا أمي للمرة الألف حكاية (الغولة) و(نص نصيص). سمعنا طرقًا على الباب وأحدهم يصرخ: (لقد عاد جاد الله). قفزت أمي مسرعة فأطل وجه أبي وقد أطلق لحيته، وغادرته الابتسامة، وانطفأ الضوء الذي اعتدنا رؤياه

على جبينه . وقفت أنا وعاهد ننظر إلى أبي وأمي تحتضنه غارقة بالبكاء . لا أنسى ملامح أبي الحزينة ينظر إلينا من أعلى كتفها بعينين مرتخيتين . كان وجهه متعبًا حينما عانقنا وفيه شيء جديد ، شيء يشبه شرخًا في مرآة ، يعاند البكاء كأنه لا يريد أن يكشف ما حل به من ضعف . ما إنْ غادر من عرفوا بأمر عودته حتى راح يتأكد من أن الأبواب والنوافذ مغلقة ، وأن ما من أحد يمكن أن يسمعه . تصرف على نحو غريب حذر . جلس قريبًا منا ، تلفت حوله وقال بصوت خفيض :

- من الآن فصاعدًا عليكم ألاّ تثقوا بأي شخص .

لم نكن نفهم ما يقوله ، وما يحذر منه ؛ كل ما سمعناه أنه سجن لأمر سياسي . حذرنا من كل الناس ، وحضّنا على ألاّ نتحدث في أي شأن أمام أي أحد منهم . كان خائفًا وفاقدًا للثقة حتى إنه كلما غفا يصحو مفزوعًا ويتلفت حوله ثم يعود للنوم ، بينما أمي مستيقظة تتأمل وجه رجل لا يشبه وجه زوجها الذي غاب عنها ثلاث سنوات . في الصباح لم أره في فراشه ، وقفتُ عند الباب فوجدته جالسًا تحت أشجار السرو المتشابكة أمام البيت ، ينظر في الفراغ ساهمًا بلا أي حركة ، حزينًا أكثر مما يمكن لإنسان أن يحتمل . أعدت أمي طعام الإفطار فجلسنا نأكل بصمت ونسرق نظرات خاطفة إليه وهو يمضغ اللقمة شارد الذهن ، وعيناه ذابلتان تشبهان عينيْ طفل على أهبة البكاء . أكل قليلاً وأشعل سيجارة بيدين مرتعشتين ، ثم رسم خطًا مستقيمًا على التراب قاطعه بخط آخر ، وقال بصوت حزين :

- سنرحل إلى عمّان ، في الزحام تخف حدة الخوف .

قالت أمي محتجة :

- كيف نترك القرية؟ أنت سجنت وانتهى الأمر .

- لا عودة عما قررته ، ولا مجال لأخيركم بين البقاء هنا أو مرافقتي . كلنا سنترك هذه القرية .

وجب علي لحظتها أن أقول لا ، لكنني لم أستطع . أشفقت عليه ورأيت أن أمرًا كبيرًا حدث له غير السجن الذي لم أكن أفهم ماذا يمكن أن يفعل بالإنسان ، كان أبي مثل ذلك الإبريق الزجاجي الذي ورثته أمي عن جدتي وقد وجدته ذات مرة مشروخًا ولا تعرف من تسبب بذلك ؛ لهذا كل ما فعلتُه أنني استسلمت للبكاء ، والشاحنة تبتعد وأنا وعاهد نمسك بحواف صندوقها جالسين على أثاث بيتنا ، والقرية تعدو إلى الخلف شيئًا فشيئًا إلى أن ما عادت تُرى ؛ فغمرتُ رأسي بصدر عاهد وبكيت .

***

كانت جارتي تنظر إليَّ باستغراب حين هممت بدخول البيت ، وكأنها تتساءل عما جعلني أخرج عاريًا في ذلك اليوم ، وعن الشيء الذي بدل رجلاً مثلي هادئ الطباع يعيش وحيدًا ، ولا أحد يراه في الحي إلا بعض من يخرجون في الصباح الباكر وقليل ممن يعودون في المساء . هجم الليل متدفقًا عبر شوارع عمان وصاعدًا جبالها ، وخبا إيقاع النهار ، فجاء إيقاع آخر حزين وممل وموجع . جلستُ على صوفة في الصالة بعد أن أفرغت لي حيزًا فيها من الكتب المكدسة هناك . كانت بطني بشكلها الطبيعي ولا صوت يأتي منها . من الخارج تناهى لمسعيَّ صوت أم كلثوم تغني (الليل علينا طال) ، إلى جانب مواء قطة صغيرة بدا لي قريبًا ، صوتان لم يبددا صمت البيت الثقيل الذي تزيده وحشة دقات عقارب ساعة الحائط . بيت ما تبقى فيه من العائلة سواي وسوى صورة معلقة على الجدار تضم أبي وأمي وأنا وعاهد في

أحد أيام الربيع في القرية نبتسم لعدسة كاميرا فورية (بولورايد) أتى بها قريب لنا كان يعمل في السعودية . تفحصت سقف الغرفة ، لا طبقة طلاء يمكن أن تسقط مجددًا رغم ما فيه من عفن ورطوبة كثيرين .

- العفن صراخ الجدران واستغاثاتها فاحموا البيت لئلا تقع الكارثة .

أجفلني الصوت فوقفت ، لكنه اختفى . تجولتُ في البيت مرعوبًا وحين هدأت عدت إلى مكاني أتساءل : (كيف تركني أبي على هذا النحو؟) . قلتُ كأنني أحدّث أحدًا في السقف وقد خلته سيهبط عليّ؟ كيف ذهب إلى مصير أفضى بي إلى هذا التيه القاسي ، وما الذي سمعني أردده أثناء نومي قبل مغادرته البيت؟ كان جالسًا في الصالة في بقعة شمس مارس وقد تخللتْ زجاج النافذة ، وأمامه إبريق قهوة كلما انتهى من فنجان يسكب منه آخر ، بينما دخان سيجارته يصعد مستقيمًا ثم يتبدد عند كل سعلة منه ، يقرأ بتركيز عال عن (حي بن يقظان) ، ونظارته على مقدمة أنفه كنافذتين تطلان على حدث غامض . كنت أنظر إليه وأنا أعد طعام الغداء في يوم الجمعة ، وروائح المأكولات تفوح من بيوت جبل الجوفة . ترك الكتاب من يده وأرخى بدنه على الكرسي وأسند رقبته على يديه المتشابكتين ، ثم نظر إلى شهادة الفلسفة المعلقة على الجدار ، وبدا شارد الذهن كأن الشهادة نافذة خرجت منها يد وسحبته إلى الماضي ، في ذلك اليوم لم يتناول العقاقير المضادة للاكتئاب ، غفا على الصوفة بعد أن تناولنا الغداء ، فألقيت عليه بطانية ، واستلقيت في سريري وغفوت . حينما صحوت قبيل الغروب كان قد غادر تاركًا نظارته على الكتاب .

***

استفقت عند السادسة صباحًا، الوقت الذي اعتدت الخروج فيه منذ ثلاثين عامًا من جبل الجوفة إلى وسط البلد، منبه بيولوجي لم أستطع تهشيمه لأنام مطولاً ككل العاطلين عن العمل، وعن الحياة مثلي. البارحة رأيتني في المنام في حقل بامية من حقول القرية قبل أن يبتلعها وحش الإسمنت، كنت مصلوبًا على خشبة من خشب الفزاعات التي اعتاد المزارعون أن ينصبوها في الحقول لتطرد الطيور، لكنها حطت على رأسي، طيور سوداء ليست غربانًا، إنما غريبة، بمناقير معقوفة، وعيون ضاحكة بشماتة تنقر أنفي وعيني من دون أي ألم.

اقتحمتني جلبة الصباح بعد أن شغلت التلفاز ودلفت إلى الحمام، فاغتسلت بعجالة، وارتديت ملابسي، لكنني حين رأيت الكتب المكدسة في صالة الجلوس تذكرت أن ما من عمل أذهب إليه، كيف تخدعني الذاكرة بهذا الشكل الفاضح وقد أمضيت دقائق أذكر نفسي قبيل النوم بأنني بتّ أسيرَ هذه الجدران. تهاويت على الصوفة مثل جهاز كهربائي نفدت طاقته، كبرت بطني من جديد، فعاد ذلك الصوت لكنه هذه المرة جاء متحشرجًا كأنه هو الآخر نام متعبًا مثلي:

- نسيتَ أن أسابيع مضت عليك بلا عمل، كان يجب أن تَتَمَتْرَسَ في الكشك لئلا يزيلوه، وتقول لهم لا، لو كنت مكانك لما تجرؤوا على الاقتراب مني؛ إذ إنهم لن يصمدوا أمام هالتي الحارقة.

هربت منه وضحكاته تلحق بي كدبور يطارد أحدًا ليلسعه، لكن كيف لك أن تهرب من شيء تحمله في دواخلك. توقفت أدور حول نفسي أسمعه يقهقه تارة، ويهمس لي مهدئًا تارة أخرى ثم عدت أجري كالممسوس، ما تبقى مكان في البيت إلا وتداريت فيه إلى أن عجزت، فقرفصت في زاوية غرفة نوم أبي ورحت أنصتُ له:

- كان عليك أن تقتل مَنْ تسبب بالذي أنت فيه الآن ، ابتداء من زمن القرية وانتهاء بزمن المدينة ، الذين آذوك كثر ، وأصواتهم ما تزال عالقة حتى في شعر أذنيك ، لكنك أجبن من أن تفعلها ؛ لهذا سأقتلهم بطريقة وحشية . أنت لا تعرف معنى لهذه المفردة ، ولا تعرف أنك يمكن أن تصير وحشًا ، الوحشية نقيض الحب ، واليد المحبة التي تمنح لمسة دافئة يمكن أن تستحيل إلى يد تجز رأسًا ، الصعوبة دومًا في بداية ما نفعل فقط .

داهمتني أصوات عدة : صوت أبي يأمرنا بالرحيل إلى عمان ، ثم يفرض علينا حذره ، صوت الكشك يتهاوى ، صوت عقارب ساعة الحائط تؤكد عزلتي ، صوت الأستاذ (جاد الله) يرفض ذهابي إلى الحمام ، وصوت أنيني خجلاً وأنا على مقربة من أن أتغوط في ملابسي ، صوت نساء ينحن حول جثة مسجاة ، صوت أمي تبيع الحشائش في الحي ، صوت مسؤول يطل من شاشة التلفاز يطلب من الناس أن يشدوا الأحزمة على البطون . صارت المسافة أقرب بيني وبين ذلك الصوت الغريب ، تأملتُ ما قاله للحظة ، ثم نفضتُ رأسي كأني أقلع عن فكرة غير صائبة . خبأت رأسي بين ركبتي ، إلى أن تلاشى الصوت تاركًا لي ضجيجًا في أذني ، ودوارًا في رأسي . تفقدت هاتفي ، ثمة رسالة من رقم ليس في قائمتي : (رأيتُ ما حدث في المطبخ) . دخلت المطبخ وتأملت نافذته فوجدتها تواجه نافذة جارتي ، وأدركت أن من غير الممكن رؤية المطبخ إلا عبر نافذتها ، فالسور عالٍ ونوافذ باقي البنايات لا تتوازى مع بيتنا . إذن هذا رقم هاتف جارتي ويبدو أنها رأت لحظات انتحار والدي ، لكن ما الذي تريده من هذه الرسالة؟

بدا لي هواء البيت يغادر مخلفًا شعورًا بالاختناق ، رأيت المذيعة مبتسمة وأنا أمر بالصالة تنقل على شاشة التلفاز نشرة أخبار لا شيء فيها يسر . يمّمْتُ شطر النافذة ، وشهقت مرات ، وزفرت كأني كنت مربوطًا إلى وتد في قاع البحر وأفلت صدفة . كانت عمان والشمس للتو تعلن نهارًا جديدًا ، ترتّب شؤون من خرجوا إلى أعمالهم عبر زحام يجيء منه زعيق أبواق السيارات وصرير عجلات بعضها . في الأفق أسراب حمام تحلق بمتعة كأنها لن تعود إلى أقنانها . عند حاوية القمامة رأيت جارتي أنيسة ، امرأة في أواخر الستينات من عمرها ، تلتقط أرغفة من الخبز تضعها في كيس وتتلفت حولها ، أسدلت الستارة وأبقيت على فتحة صغيرة أراقبها عبرها ، مزقت كيس قمامة وانتقت منه حبات طماطم ، ثم فتحت كيسًا آخرَ واستصلحت منه بعض الطعام . نظرت حولها ووجهها يمتلىء بالحزن وقد أجهشت بالبكاء ، فمسحت عينيها بكُمّ ثوبها . خرجتُ وأمام عيني تلوح صورة أمي بحزنها الذي لا يفارقني ، وعند زاوية سور البيت التقيتُ أنيسة تمشي ببطء موجوعة لما في مفاصلها من آلام . كانت في عينيها نظرات انكسار عندما وجدتني أنظر إلى ما في يديها :

- ما تبقى لي إلا هذا الحل يا ولدي .

قالت ذلك وجلست على طوبة قرب السور :

- رفض مدير التنمية الاجتماعية طلبي راتبًا شهريًا متذرعًا بعمل ابني في أمانة عمان . قلت له : إنّ قروضًا كثيرة تراكمت عليه ولا يتبقى له من راتبه سوى دنانير قليلة لا تعيلني أنا وأباه العاجز .

أطرقت رأسها تنظر إلى نمل يمشي نحو حفرة ليودع فيها بعض ما حمله من طعام ، تبتسم كأنها طفلة ترى شيئًا غريبًا عليها ، ثم

أجهشت بالبكاء مهزومة وموجوعة ومليئة بالحيرة ، جففت دموعها بيد ، وبالأخرى ضغطت على ركبتها :

- في ذلك اليوم وافق الموظف على منح أحدهم راتبًا رغم أنه ليس بحاجته .

نظرت إلي بعينين محمرتين :

- ظالمة هذه الدنيا يا ولدي ، لم نكن نتوقع ونحن صغارًا أنها هكذا ، أستغفر الله العظيم .

جففت خديها ونهضت موجوعة . نظرت إلي ، وأشارت بيدها إلى الجهة الشرقية :

- اسمه عماد الأحمر . سمعت أن له قريبًا في هذا الحي ، فذهبت إليه أطلب وساطته لكن بلا فائدة ، الشكوى لله .

كأن الصوت دفعني بيديه بعد أن غادرت أنيسة فجلست في مكانها ؛ إذ اقترب من وجهي غاضبًا :

- ما الذي يمكنك قوله الآن؟ عد بذاكرتك أيها الوراق إلى عدالة أرسطو التي رأى أنها علاقة الأفراد بالمؤسسات ، وإلى فضيلته التي رآها علاقة الأفراد ببعضهم ستكتشف أن لا عدالة ولا فضيلة في ما حدث لهذه السيدة .

- لكن هذا سلوك فردي .

- الفرد جزء من الكل .

تخيلته يضع يديه عليَّ :

- يمكن لحبة طماطم واحدة أن تفسد صندوقًا بأكمله يا إبراهيم .

أحسست بالهواء ينسحب من رئتي ، وقفت أنوي العودة إلى البيت ، فجاءني صوته يعترض طريقي :

- ما عدت أدفعك لأي موقف ؛ لأني اتخذت موقفي .

- ماذا تريدني أن أفعل أيها الشرير؟

قال قبل أن يختفي :

- أيها الطيّب إنْ خَلَتِ العدالة والفضيلة من فرد فلا مناص من اجتثاثه من جذوره ؛ لتحمي ما تبقى من حبات الطماطم .

لم أعد إلى البيت بل غادرت مستقلاً (السرفيس) نحو وسط البلد ، تلتصق بي امرأة بدينة لها صدر كبير ، وعينان واسعتان مكحلتان ، يفوح منها عطر نفاذ إلى جانب رائحة لبان يصدر أصواتًا وهي تمضغه باستمرارية غريبة . حاولت أن أترك مسافة بين جسدي وجسدها لكنني لم أستطع ، كان جسدها ساخنًا طريًا ، وجسدي بارد لا لحم فيه إلا ما يغطي العظام . سمعت همسًا في أذني ، لم أتوقع أن يباغتني الصوت والسيارة تكابد الزحام نحو وسط البلد :

- لم تستفزك امرأة في حياتك ، حتى من تتفجر شبقًا بجانبك الآن ، كأنك تعيش في كوكب خُصي رجاله ، لكن لا بأس سيتبدل كل شيء ، أعدك .

لفظتني السيارة ، وإذا بي أقف على الرصيف كنقطة في بحر زحام وسط البلد ، سيل من البشر يتدفق بغزارة ، سيارات فارهة تمر بين الحين والآخر لا يرى بعض راكبيها في المكان غير فسحة لرؤية شيء شعبي جديد عليهم يكسر حدة الروتين . مرّ بقربي بائع الصحف الذي ما توقف عن المناداة بالعناوين منذ أتى إلى هذه المدينة وأخذ ينادي : (اقرأ تفاصيل عملية الفساد الكبيرة) . اشتريت الجريدة ووضعتها تحت إبطي فانبثق الصوت :

- لن تجد الحقيقة في الصحف ، الحقيقة في الشارع الذي أمضيت فيه عمرًا ولم تعرفه جيدًا .

ذاب صوت بائع الصحف بين الأصوات المتداخلة ببعضها ، وأنا أقف كعامود كهرباء في منتصف الرصيف والأجساد ترتطم بي ، مرة أهتز يميناً ، وأخرى شمالاً ، ومن داخلي يجيء صوت ذلك الشيء المجهول يتلبسه غضب كبير :

- يبدو أنك تستمتع بلعب دور الضحية .

لاح لي المتجر الذي احتل مكان كشك الوراق ، وطفقت بحلقي غصة كبيرة . تخيلت كل شيء كما هو : الكتب المتراصة فوق بعضها في الداخل ، والمعروض منها في الخارج كأنها عجائز بصارات يروين ما سيحدث . كتب عتيقة بورق أصفر خفيف . كتب جديدة لورقها رائحة الأشياء البكر ، الشيء الوحيد الذي أيقنت أن شغفي به يتجدد مع كل صباح حيث كنت أشرع باب الكشك ، أتصل بالمقهى وأطلب فنجان قهوة ، أضع الصحف في مكانها ، وأخرج بالكتب وأرصها على الحواف الخارجية للكشك ، ألامس الكثير من الكتب كأني أتأمل ما قرأت فيها ، تأتي القهوة فأجلس لأشربها وأقرأ الجريدة ، أفتح هاتفي وأتصفح فيس بوك وبعض المواقع ، ثم أختار كتابًا وأعبر بابها ؛ رحلةً لا يوقفني من المضي فيها إلا الزبائن الذين يقتصر حديثي معهم على سعر الكتاب وأحيانًا موجز خاطف عنه ؛ إذ تعلمت عبر كل تلك السنين كيف يمكنني اختصار كتاب في سطرين ، اختصار يشجع الزبائن عادة على شراء الكتب . كان الكشك يوفر لي مبلغًا متواضعًا أعتاش منه ، لكن الأمر تغير ، كل شيء تغير ، البلاد ، العباد حتى الهواء تغير ، فالعالم على مقربة من أن يُرقمن حتى الإنسان ليضمن عددا ممن لا نراهم أن يسير الجميع في طريق واحدة اختطوها لنا . ما عاد يأتي إلى الكشك إلا عدد من الكتاب ، والباحثين ، وقراء ما يزالون

يرون في الكتاب بابًا يطل على الحقيقة . عندما أزالوه قرأت أن بعض رواد وسائل التواصل الاجتماعي قد احتجوا على إزالته ، لكن بعد مضي أسبوع ما عاد أحد يتحدث بما جرى ، إنها ذاكرة السمكة .

مشيتُ ساعات في وسط البلد ، أستطلع الوجوه كأنني أبحث عن وجه يقدم لي تفسيرًا عما جرى معي منذ وعيت ورحت أطرح على نفسي أسئلة عن الله ، والكواكب البعيدة ، والأشجار ، وعن الموت . سألت أمي مرة وأنا أنظر إلى شجرة رمان يبست فجأة :

-لماذا ما عاد هناك ثمر على هذه الشجرة؟

- لقد ماتت .

- هل سيدفنونها مثل تلك المرأة؟

قلت ذلك وتذكرت أول مرة أشاهد فيها شخصًا ميتًا في القرية . كنت ألعب في حوش الدار وفجأة هرعت أمي مسرعة إلى بيت ليس ببعيد عن بيتنا فلحقت بها . رأيت نساء متشحات بالسواد يصرخن وينثرن التراب على رؤوسهن ، ورأيت امرأة شقت ثوبها فبان نهداها . دخلت أمي إلى غرفة في ذلك البيت وأنا أتبعها ، فرأيت نساء يقفن حول طاولة تستلقي عليها امرأة عارية يدلقن عليها الماء ، تنبّهتْ امرأة لوجودي فاقتادتني من يدي إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب ، ولم أجد أمي ، تهت منها في العدد الكبير للنساء اللواتي كن ينحن وهن يرددن كلمات لم أفهمها . دخل رجال ملثمون وحملوا شيئًا ملفوفًا بقماش أبيض ، لم أكن أدري أن فيه المرأة إلا حينما تبعتهم ورأيت أحدهم يكشف عن وجهها ويريحها على جنبها الأيمن ، يومها عدت إلى البيت وجلست في زاوية الغرفة المعتمة أبكي من غير أن أعرف السبب .

جلستُ في الساحة الهاشمية على مقعد أنظر إلى المارة : سياح ،

جنسيات عربية ، أشخاص يسرعون الخطى ، أشخاص متمهلون ، وجوه صامتة ، وأخرى لا شيء فيها . ثمة امرأة أربعينية نحيلة القامة يلوح التعب في وجهها رغم ما وضعته من مساحيق ، مشت نحوي وتفحصتني بعينين تتقمصان ابتسامة جاذبة ، جلست بقربي وخلعت حذاءها ثم راحت تضغط على إصبع قدمها اليمنى وتتألم بغنج مفتعل : (آي) ، ثم قالت تستدرجني :

- هل تريد أن تستمتع؟

لم أكن لحظتها أدري أنها كانت تحدثني حينما ضغطت بكوعها على بطني :

- أنت . ألا تسمعني؟

- هل تتحدثين إليّ؟

بانت أسنانها الصفراء ، وأضراسها المهشم بعضها ، والمخلوع البعض الآخر منها :

- نعم أحدثك . هل تريد أن تستمتع مقابل عشرة دنانير؟

- لم أفهم؟

ارتدت حذاءها على عجل ثم نهضت ومضت بسرعة تكيل لي الشتائم . فتحت الجريدة وقلّبت صفحاتها ، قرأت إعلانًا يشير إلى عيادة للطب النفسي في الشميساني ، طويت الجريدة أفكر بداخلي (الشميساني؟ لي عمر في هذه المدينة وما زلت غريبًا عنها) .

***

أعطيت السائق الجريدة وأشرت إلى العنوان الذي أريد الذهاب إليه ، رجل شارف عمره على السبعين ، يضع سيجارة بين شفتيه ودخانها يتصاعد مارًا بين شعر شاربه الأبيض فكساه الاصفرار ، حدّق

عبر زجاج نظارته السميك بالعنوان ثم تأملني كأنه يبحث عن آثار مرض نفسي في ملامحي ، انطلق وهو ينصت إلى محطة إذاعية تنقل عناوين سريعة للأخبار : (قتلى بين صفوف المتظاهرين في بيروت ، عدد من القتلى في بغداد إثر مواجهة بين قوات الأمن والمتظاهرين ، الكيان الصهيوني يبني عددًا من المستوطنات ، الحكومة تقرر رفع سعر الوقود) .

أشعل السائق سيجارة ثانية وتمتم بصوت خشن وانحنى نحو المقود ينظر إلى الأمام بتركيز زائد :

- يبدو أن مستشفيات المجانين لن تتسع لنا إذا استمر الحال هكذا .

بقيت السيارة تكابد الزحام إلى أن غادرتْ وسط البلد ، حيث الانتقال المفاجئ من عالم إلى آخر ، وحيث كل شيء مختلف كأنهما مكانين ألصقا عنوة ببعضهما ؛ فالشوارع نظيفة ، والبنايات فخمة شيد كثير منها من الحجر ، ووجوه المارة هادئة ، والسيارات فارهة ، والمطاعم فخمة ذات واجهات زجاجية أنيقة . كل شيء لا يشبه الشق الآخر من عمان حتى الأشجار خضراء وليست كالحة .

هبطتُ من السيارة ، وتفحصت الجريدة أتأكد من رقم العمارة التي تقع فيها عيادة الطبيب النفسي ، في الطابق السابع وجدتني في عيادة أول ما فاجأني منها هو صوت آلة فلوت انطلق من مسجلة غير مرئية ، ثمة فتاة تجلس خلف (كاونتر) تناثر شعرها على كتفيها ، وانطلقت من وجهها ابتسامة لطيفة زاد في جمالها فمُها الذي جملته حمرة روج خفيفة ، رحبت بي ودونت معلوماتي الشخصية ، ثم ابتسمت :

- هكذا صار لك ملف أستاذ إبراهيم ، تفضل اجلس في صالة

الانتظار إلى حين أن يأتي دوري لمقابلة الطبيب .

قالت ذلك وأشارت إلى عدد من المقاعد ، جلس في إحداها رجل يراقب السقف ويبتسم ، وقربه امرأة تمسك بيده ، اخترت مقعدًا قبالة الرجل وصوت آلة الفلوت يلفني بشيء من هدوء بدده صوت ذلك الشيء . كانت ضحكته الفظة تأتي من داخلي كأنها شوك يمشي عبر أوردتي :

- أرأيت كيف كنت كالأبله وأنت تطأ جزءاً من هذه المدينة للمرة الأولى؟ تقنع نفسك جراء الوهم الذي حشرته الكتب في رأسك بأن ما تحس به ليسَ حقدًا طبقيًا ، كتب علمتك كيف تبقى فقيرًا ومنعزلاً بينما الحياة تجري بشكل آخر خارجَ كشكك القذر وبيتك الآيل للسقوط .

تشاغلت عنه بمراقبة صور ولوحات عُلقت على الجدران لكنه استمر في حديثه المستفز :

- لقد أتيتَ هنا ليريحك الطبيب مني ، لكن عقاقيره لن تفيدك بشيء ؛ لأنك لا يمكن أن تعيد الرصاصة إلى مستقرها حينما تخرج من فوهة البندقية .

تجاهلته بأن فتحت الفيس بوك في هاتفي النقال أبحث عن عماد الأحمر ، وضعت الهاتف جانبًا أتساءل : (ما شأنك بهذا الرجل؟) . لكني عدت مدفوعًا برغبة مبهمة إلى صفحته فوجدته يضع صورة له يبدو فيها إنسانًا متعجرفًا ، يجلس إلى طاولة مكتبه في مديرية التنمية الاجتماعية ، له ابتسامة أولئك الذين يشيرون دومًا إلى أن وصولهم إلى الكرسي لم يأت سهلاً ، شعره مصفف بعناية فائقة ، في معصمه ساعة بماركة عالمية ، وفي إصبعه خاتم ذهبي ، يرتدي بذلة بأناقة تشابه

أناقة الوزراء ، وراء ملامحه تتخفى شخصية أخرى . حينما تأملت قائمة أصدقائه ، وعددًا من التعليقات على ما كتب بدا لي رجلاً صاحب علاقات نسائية كثيرة . ثمة تعليقات تشي برسائل خفية ، ورموز ووجوه وتلميحات تدل على ولع ذلك الرجل بالنساء ونهمه المطّرد . هناك الكثير من الأسماء الوهمية للنساء ، ولديه أكثر من صداقة افتراضية مع عدد من المسؤولين .

عاد الصوت من جديد وعادت حركته ، فأنصتُ أكثر لصوت الفلوت محاولاً أن يتسلل إلى روحي ، وهواء المكيف البارد يلفحني كنسمة الغروب التي تركتها هناك في قريتي . انقطع الصوت برهة ثم صرخ بي :

- لستُ ضعيفًا مثلك ، عليك أن تعي ذلك .

جاء صوت الفتاة ناعمًا تخبرني بدوري ، قرعتُ الباب ودخلت . كنت أتوقع أني أراجع طبيبًا كبيرًا في السن ، لكني وجدته أربعينيًا ، نهض وحيّاني عن بعد وأشار إلى مقعد وطلب مني الجلوس ، ثم عقد يديه على صدره وقال بصوت هادئ :

-أخبرني أستاذ إبراهيم م تشكو؟

أطلقت تنهيدة عميقة ، ونظرت إلى نافذة تطل على الفراغ . قلت بعد ترددي ومحاولتي أن أطرد ضحكة ذلك الصوت من ذاكرتي :

-أريدك أن تعينني على أن أرتكب جريمة قتل .

بدت على وجه الطبيب علامات الاستغراب ؛ إذ تساءل وشيء من التوتر يعتريه :

- عفوًا؟

-نعم أريدك أن تعينني على ذلك .

مشى نحو طاولة مكتبه ، ثم التفت نحوي غاضبًا :

- ملامحك لم ترحني منذ البداية .

نظرتُ إلى قطعة خشبية حفر عليها اسمه (الدكتور يوسف السماك) ، ثم لاحظت ارتعاشة يديه يعيد ترتيب بعض الأشياء المتناثرة على طاولته باهتمام مفرط ، حالة تعكس فوضى داخلية يعاني منها . قلت بصوت هادئ :

- كان يجب أن تأخذ طلبي على محمل الجد لو تأملت إما رأي فرويد باللاوعي الشخصي وإما رأي يونغ باللاوعي الجمعي . كلاهما يمكن أن يقوداك للتفكر بما قلت .

بدا الطبيب غاضبًا فنهض وراح يتردد ما بين الطاولة والباب للحظات ، ثم مشى نحوي وجلس وأنفاسه مضطربة :

- هل تستعرض أمامي معلومة قرأتها في صحيفة أو سمعتها من شخص؟

- هذا التساؤل تحديدًا هو ما قوض علاقة عظيمة مثل علاقة فرويد بيونغ ، أنا لا أستعرض أنا أضيء أمامك الدرب لتعرفني ، ألم يرَ يونغ أن النفس مؤلفة من عدة مكونات منفصلة لكنها متآلفة في الآن نفسه؟

قال الطبيب والغضب ما يزال باديًا في وجهه :

- لست من المؤمنين بيونغ ، أنا فرويدي .

- حتى فرويد لن ينكر شرعية ما أتى بي إليك .

لا أدري ما الذي جرني لأحاديث مثل تلك ، استغربت نفسي حينما رحت أطيل الحوار :

- لسنا بلادًا ساحلية لأخمن إلى أي مدينة تعود عائلة السماك .

قال بعد أن ضغط على أسنانه واحمرت عيناه غضبًا :

- هل أتيت يا عزيزي لتصادقني أم لأعالجك؟ ثم هل ترى أني لست من هذه البلاد؟

- لم أقصد ذلك ، أنا واحد لايؤمن لا بالأصول ولا بالجذور ، لكن لفتني الاسم لا أكثر .

تمثل الطبيب هدوءاً مصطنعًا ثم وجَّه لي نظرة فيها ابتسامة باهتة :

- حسنًا اشرح لي بالتفصيل ما الذي تريده؟

- في داخلي شخص مجرم أريد أن أقتله ، وليس هناك من هو أكثر قدرة من الطبيب النفسي على أن يضع المخطط لهكذا جريمة مباحة .

أخذ الطبيب ينصت بجدية لما أقول ، فأكملت حديثي :

- عليك أن تصدقني أن هذا الجرم حقيقة وليس أمرًا أتوهمه . أتذكر متى بدأ يتشكل بي ، لقد حدث ذلك ليلة أن رحلنا من القرية ووجدنا أنفسنا ما بعد منتصف الليل في مدينة لا نفهم منها شيئًا ، وصلنا البيت الذي استأجره والدي وحضرت أمي لنا فراش النوم بعجالة ونام الجميع إلا أنا وأبي ، كنت أنظر إليه من ثقب في غطاء النوم يجلس مرخيًا ظهره على الجدار ويدخن سيجارة تلو الأخرى إلى أن وجدته للمرة الأولى يبكي بصمت ، في تلك الليلة تفاجأت بشيء ينبض في بطني تبعه همس خفيض غير مفهوم ، ومع الأيام أخذ هذا النبض يزداد ، لم أجد شرحًا منطقيًا يمكن أن أن يعينني لو شكوت حينها لأحد ؛ لهذا رحت أدرب نفسي على تجاهله . كبر ذلك الهمس والنبض معي ، كنت أحس به يزداد وأنا أقرأ الجريدة ، وأنظر في وجوه الناس ، وحينما أتابع نشرة الأخبار على شاشة التلفاز ، إلى أن سمعت

صوته للمرة الأولى ، حصل ذلك في يوم أُصِبْتُ فيه بالبرد ، فأغلقت الكشك ورجعت إلى البيت . لحظة وصولي الحيّ رأيت أمي تجلس عند بسطة وتبيع الحشائش ، وجهها متعب ، ومالت بُنْيتُها إلى النحول ، كانت تضغط على معدتها بيدها عندما تفاجأت بي أقف قبالتها ، فتصنعت ابتسامة وراءها الكثير من الألم ، طلبتُ منها أن تعود إلى البيت فرفضتْ .

استلقيت في فراشي مصابًا بمغص شديد ، سمعت معه صوتًا يشبه أنين طفل رافقته حركة في بطني ، نهضت من السرير مفزوعًا لكن ما هي إلا دقائق حتى تلاشى الصوت ، وهدأت الحركة ، فاعتقدت أنني أتوهم رغم ما تبعه من همس في السنوات الماضية ، والبارحة انتفخت بطني ، وسمعت صوته واضحًا ومرعبًا يلمّح لجرائم يمكن أن تحدث ، ويلومني على ضعفي .

وجّه لي الطبيب عددًا من الأسئلة حول طفولتي ، وشبابي ، والمرحلة العمرية التي أنا فيها ، سألني كيف أمضي وقتي ، وعن عاداتي وسلوكي ، وجه لي أسئلة كثيرة وقلت إجابات كثيرة . نهض من مكانه يتمشى ثم عاد وجلس إلى طاولته وكتب في ورقة أمامه ، ثم نظر إلي :

- اعتقدت في البداية أنك تعاني انفصامًا في الشخصية ، ومن ثم رأيت ملامح لوسواس قهري ، لكن اتضح لي خلاف ذلك ، حالتك ليست بالمستعصية يبدو أنك تعاني اكتئابًا ، كلّ ما عليك هو أن تغير من روتينك ، في هذه الورقة كتبت لك عددًا من الأدوية ، وعليك أن تراجعني بعد شهر من هذا التاريخ ، ليرافق هذا العلاج علاجٌ سلوكيٌّ .

- هل هذا كل ما أعاني منه؟

أخذ الطبيب يعبث بقلم بين يديه ، وراحت عيناه تستطلعان الغرفة بحركات لا إرادية :

- نعم هذا كل ما في الأمر ، لو قال لك رجل إنه حامل هل تصدقه؟

- قبل ما جرى معي سأسخر منه ، لكنني سأصدقه بعد ما شهدته ، لقد رأيت بطني تكبر أيها الطبيب ، رأيت ذلك بأم عيني ، ولا تقل لي دعني أراها ؛ لأن ذلك يحدث فقط في خلوتي .

ضحك الطبيب وربت على كتفي والهدوء يجتاح وجهه :

- بالتأكيد لن أطلب منك ذلك .

قال قبل أن أصل الباب ؛ لأغادر :

- هل حقًا أنك لا تؤمن بالأصول والجذور؟

- نعم لا أؤمن بهما .

- إذن كيف -بما أنك تؤمن بيونغ- يتشكل اللاوعي الجمعي؟

- هل يتشكل اللاوعي الجمعي من انضوائنا تحت لواء تجمع اجتماعي مترابط فقط؟

- بالطبع لا .

قال الطبيب ذلك ثم طلب مني رقم هاتفي .

في المصعد الذي شيدت جدرانه من المرايا رأيت وجهي بملامح بلاهة غريبة ، ظلت عالقة ببالي وأنا ألقي في حاوية للقمامة قرب بوابة العمارة بوصفة الطبيب ، وقفت على رصيف شارع الثقافة أتأمل مَقاهيَ لاح لي خلال زجاجها رجال ونساء يشربون القهوة ويدخنون ، بينما حركة شفاههم تشير إلى أحاديث قصيرة .

لم أدخل مقهى من قبل ، كان والدي يرى أنها بيئات لرصد

الأحاديث ، وأن ثمة أشخاصًا يدونون كل ما يقال ، ويسجلون حتى حركات وتأملات شخص جالس وحده . مات والدي وما زلت أحس به يتلبسني كجنيٍّ من أولئك الذين طالما تمنيت أن يخرجوا لي من العتمة في طريق عودتي من الكشك ؛ لأطلب منهم أن يسحبوني إلى عالمهم الساحر . عبرت الشارع ، ودفعت بباب أحد المقاهي ودخلت ، تهادت إلى مسمعيٌ وأنا أقف بالباب لا أدري ماذا أفعل أغنيةٌ غربيةٌ هادئةٌ ، جاءني صوت أنثوي ناعم يرحب بي ، وحينما التفت وجدته لنادلة ارتدت تنورة سوداء قصيرة ، وقميصًا أبيض لشدة ضيقه لم يجد الزر فيه سبيلاً إلى عروته ، دلتني إلى طاولة وقدمتْ لي كتيبًا يحتوي على ما في المقهى من وجبات خفيفة ومشروبات كان بودي أن أجرب واحدًا منها وقد وجدتها بأسماء غريبة عني ، لكني اكتفيت بفنجان قهوة . نظرت حولي بخجل مستتر أستكشف المقهى : رجل يقرأ في كتاب ويحتسي من كوب أمامه ، فتاتان تتبادلان الضحك وتراقبان شيئًا في شاشة حاسوب صغير ، ثمة شاب وفتاة يتبادلان الهمس والوشوشات ، راقبتهما كطفل جائع يراقب طعامًا عبر زجاج المطعم ، ثم أشحت بوجهي حينما تقاطعت عيناي بعيني الفتاة . كان للقهوة بعد أن وضعتها النادلة على الطاولة ، مزودة بقطعة شيكولاتة ، مذاقٌ غير الذي اعتدته فيما مضى . كيف أمنت بخوف أبي من كلّ شيء بحيث صرت نسخة عنه ، نسخة خائفة مهزوزة ترى كل ما حولها على نحو مريب ، فخسرت نفسي .

عدتُ إلى فيس بوك أقلب صفحة عماد الأحمر ، ما كتبه في صفحته مقتبسات من صفحات أخرى ، وتعليقات أصدقائه فيها كثير من التبجيل الذي يرضي غروره ، تشير صوره إلى شخصية تسعى إلى

شيء ما ، رأيت تسجيلاً مصورًا لشخص في حفل زواج يحييه عبر الميكروفون : (تحية لعماد بيك) ، ثم انتقلت الكاميرا ؛ لتبرز وجهه الذي بدا مسرورًا بما قيل . يظهر عماد الأحمر في عدد من صفحات بعض الشخصيات المهمة ، يبجلهم بتعليقات ذات صيغة ضعيفة ومكشوفة ، يبدو أنه نوع من الفاسدين من الدرجة العاشرة ، ثمة منشور لدعوة على العشاء في بيته تضمن موقعه . ضغطتُ على الرابط . إذن أنت تسكن في ضاحية الرشيد يا عماد . تصفحتُ معظم صوره ، إحداهن أشارت إلى أنه كان يسكن جبل الجوفة . إذن انتقلت إلى بيت جديد! كيف يحدث هذا لموظف لن يتجاوز راتبه الشهري خمسمائة دينار؟ في غضون سنوات تغيرت كل أحواله : ملابس أنيقة ، وسيارة جديدة ، وبيت جديد يعيش فيه وحده ؛ إذ إنّ خانة معلوماته أظهرت أنه مطلق . وضعتُ الهاتف جانبًا وعدت أتلفت حولي ، فجاء الصوت كحركة مفاجئة لجنين في شهره التاسع :

– عماد الأحمر أبشع مما تتخيل أيها المسكين ، محاولاتك في فهم ما حولك متواضعة أمام ما ألمّ به عن كل شي .

قال ذلك وراح يتحدث كثيرًا وبوتيرة متسارعة ومزعجة كأنه يريد أن يحاصرني ، تخدرتْ أطرافي وبدأتُ أتعرق ويجف ريقي ، أمسكت بكأس الماء لأشرب فسقطت من يدي وتطايرت شظاياها ، انتبه رواد المقهى للجلبة فغادرتُ ، ولا أدري أني سأفعل الجنون بعينه في ذلك اليوم .

٤
إبراهيم
(المكتب رقم ٤)

كانت جدران السلم الرطب الذي يصعد إلى الطابق الثاني نحو المخفر رمادية ، تقشر طلاؤها ، وهجمت عليّ منها رائحة غريبة وأنا بالكاد أخطو إلى الأمام متردداً أفكر بالعودة . قبيل البوابة المعدنية المطلية باللون الأسود توقفتُ أضع يدي على رأس معدتي أقاسي غثياناً مفاجئًا ، واحتمالاً بالتقيؤ ، لكن كل ذلك تراجع حينما أمعنتُ التفكير بما أنا قادم لأجله ، وباحتمالات الخلاص . تجاوزتُ البوابة فوجدتني في صالة فيها عدد من الناس : منهم من يقتاده شرطي ، ومنهم من يحمل أوراقاً ، وأخرون جالسون وعلى وجوه بعضهم علامات الانتظار ، وعلامات لم أفهمها على وجوه أخرى . ثمة مَروحَة سقف كبيرة كانت تدور بتكاسل ، وذباب نافق يلتصق على بدنها . تقدمتُ بخطوات نحو شرطي يجلس إلى طاولة أعدت للاستقبال ، وقلت له بصوت متحشرج ومرتبك إنّ لدي شكوى أريد التقدم بها .

قال وعيناه تتفحصان وجهي :

- ما نوع الشكوى؟

ثم حين لم يجدني أقول شيئًا كرر تساؤله :

- يا عزيزي ، هل ستشكو على أحد بسبب مشاجرة مثلاً؟

- مخطط إرهابي .

نهض الشرطي فجأة ، وحدق بي وعيناه تدوران في محجريهما ، بينما لساني يحاول ترطيب شفتيّ الناشفتين بلا جدوى ، سمعته يردد الكلمة ذاتها :

-مخطط إرهابي؟

طلب بطاقتي الشخصية ، ودوّنَ معلوماتي بعجالة ، وأجرى مكالمة هاتفية قصيرة ، ثم أشار بيده إلى مكتب يحمل بابه الرقم ٤ :

- اذهب بسرعة إلى هناك .

تمنيتُ لو أنه أمرني بالمغادرة لأي سبب يراه ، لكن ذلك لم يحدث ، إذ تسارعت خطواتي نحو باب المكتب وقد كان مشرعًا ، فرأيت فيه طاولتين مزودتين بحواسيب : واحدة جلس خلفها ضابط على كتفيه نجمتان ينظر في شاشة الحاسوب ، وطاولة أخرى جلس وراءها شرطي يعكف على الكتابة في ورقة أمامه . قرعتُ الباب بيد مترددة ، ولم يرد عليّ أحد ، كررت تنبيهي لهم مرة أخرى فنظر إليَّ الضابط بعد أن أزاح عينيه عن شاشة الحاسوب ، وصوب إلي نظرة متفحصة ، ثم قال بصوت جادّ :

- تفضل ، بماذا يمكنني أن أخدمك؟

قلت وأنا أحاول ضبط ارتعاشة اعترت صوتي :

- لدي شكوى .

عاد الضابط إلى مراقبة شاشة الحاسوب ، وراح يكلمني متسائلاً :

- مشاجرة؟

- لا يا سيدي .

نظر بوجهي بعد أن خلع نظارته الطبية ، والتقط سيجارة وأشعلها فنهض منها خيط دخان متماوج :

- ماذا إذن؟

- أريد أن أبلّغ عن مجرم خطير ربما يضر بالبلاد .

نهض الضابط فجأة وكأن نارًا اشتعلت تحته ، ومشى نحو الباب وأغلقه بهدوء مفتعل ، بينما رفع الشرطي عينيه عن الورقة ونظر نحوي متفاجئًا ، فأمرني الضابط بالجلوس ، وجلس قبالتي ، ثم قال هامسًا باهتمام مَنْ يستدرج طفلاً للبوح بمعلومة عن أحد ما :

- ها ، أخبرني .

تحريت جملة مناسبة أبتدئ بها :

- سأقول ، لكنني أتمنى أن تنصت لي مهما طال حديثي .

عضّ الضابط على شفته ، ثم قال متجاوزًا عدم صبره :

- حسناً .

حاولت مرة أخرى أن أمهد لما سأقول ، ويداي تحومان في الهواء كمن يصف شيئًا :

- يا حضرة الضابط من الطبيعي أنك ستستغرب ما سأقوله ، ولا ألومك إن ضحكت بسبب ما ستسمعه مني ، لكنها الحقيقة ؛ الحقيقة بعينها يا سيدي . اسمي إبراهيم جاد الله ، الملقب بإبراهيم الورّاق ، أتيت لأخبركم أنني منزعج جدًا من تصرفات مجهول لا أرتاح له ، ربما يفعل ما يضر البلاد والعباد بنواياه السيئة . هذا الذي جئت هنا بسببه ، لديه نزعة أرعبتني في أكثر من موقف . قال الضابط وعلى وجهه تلوح علامات نفاد صبره :

- وأين هذا المجهول؟

قلتُ بعد لحظة صمت تخللها صوت المراجعين من صالة الاستقبال ، وأوامر شرطي بدا لي أنه يحثّ مقبوضًا عليه للمشي :

- في داخلي .

مطّ الضابط شفتيه مستغربًا ، فذكرته بطلبي ؛ إذ سمح لي مغلوبًا على أمره بأن أكمل حديثي :

- أنا إنسان بسيط ، كان عملي في كشك كتب بسيط يقع على رصيف أول شارع الملك حسين ، أرى كل يوم الكثير ممن يقفون قبالة ما أعرضه من كتب ومجلات ، والقليل من المشترين ، لا أتحدث لأحد إلا بكلمات قليلة ، ما أجنيه من عملي بالكاد يكفي لأجرة البيت والطعام ، ليس لي في هذه الحياة من متعة سوى القراءة ، فلا عائلة لي ولا أقارب ولا أصدقاء في هذه المدينة ، لكن هذه المتعة انتهت حينما أُبلغت بأن علي أن أخلي المكان ؛ لأنّ تعديلاً على الشارع سيحدث على حد قولهم ، راجعتهم لأكثر من مرة محاولاً أن أحافظ على الكشك لكنني فشلت ، ما إنْ أخليت المكان حتى وجدت متجرًا أكبر مساحة وبني بطراز حديث قد نصب في المكان ذاته ، لكنه ليس لبيع الكتب إنما لبيع الهواتف النقالة ، وقيل لي إنّه يعود لأحد المتنفذين الذي اعتدت رؤية صورته في الصحف ، في ذلك اليوم جُنّ هذا المجرم ، كأني يا سيدي الضابط حامل مثل أي امرأة يتحرك جنينها في بطنها ، حامل بكائن خطير يتحرك في لحظات يغضب بها .

قاطعني الضابط ضاحكًا :

- وماذا يقول لك هذا الجنين؟

- يا سيدي إنه أكبر من جنين ، إنه بحجم الوحش ، وبطباعه ذاتها .

قال الضابط بنبرة غاضبة؟

- ماذا يقول لك؟

- إنه يحثني على قتل شخصيات ما ، وحتى إنه يطلب مني أن أمثّل بالجثث .

- كالمتنفذ طبعًا!

- نعم يا سيدي كالمتنفذ . لكنه وأمام رفضي لما يقول بات يهددني بأنه ذات يوم سيفعل ما لم أفعله .

توقفتُ قليلاً من الوقت عن الكلام والضابط والشرطي يحدقان بي :

- صدقني يا سيدي ما أقوله لكم ليس وهمًا ، أنا فعلاً أحس بحركته في لحظات معينة ، عند بوابة المخفر قال لي لن يصدقوك ، ليتني التقطت صورة لبطني حتى لا أبدو كاذبًا في أعينكم ، إنه مجرم خطير يمتلك براعة هائلة في رسم الخطط لما يضمره من جرائم ، حتى إنني لا أعرف طعمًا للنوم إلا عند نومه في أوقات ليست منتظمة ، أنقذوني من هذا المجرم .

غرق الضابط والشرطي في ضحك صامت لا يتخلله سوى كركرات تفلت بين الحين والآخر . رفعت عيني ونظرت نحوهما ، وإذا بالضابط يهز ساقًا وضعها على ساقه الأخرى متوترًا ، وينظر بوجهي متفرسًا :

- أنفقت كل هذا الوقت وأنت تسرد لي حكاياتك معتقدين أن بلاغًا مهمًا سوف تدلي به ، انهض وغادر ولا تعد إلى هذا المكان مرة ثانية ، لو أن كل شخص أنصت لما يفكر فيه مثلك لامتلأت المخافر بالمشتكين .

كدت أعود أثناء هبوطي درج المخفر عندما رأيت شكل بطني يتغير وبت أسمع الصوت ذاته :

- ألم أقل لك إنهم لن يصدقوك؟ حتى لو عدت سأتخفى وربما هذه المرة يعتقلونك .

أخذت خطواتي تتعثر فتوقفت لئلا أسقط :

- حتى لو لم يصدقني أحد لن أستسلم لك .

- أنت تؤمن بي لكن خوفك يدفعك للقفز عن الحقيقة ، بعض الناس يمتدحون تحليقهم ؛ لأنهم لم يستطيعوا الوقوف بوجه ما يحدث حولهم .

بقي صوته يطاردني إلى أن ذبت في الزحام وكلماته تتردد في مسمعيْ :

- ستأتي اللحظة التي تنصاع لي فيها وتلقي بكل دفاعاتك الرديئة .

٥

إبراهيم
(محاولة أخيرة)

عند رأس الشارع الذي يؤدي إلى بيتي هبطت من الحافلة ، كان إمام المسجد حينما مررت بقربه يتفقد صنابير الماء ، ويغلق الأبواب ، ألقيتُ عليه التحية ثم مضيتُ في طريقي ، لكنني عدت وإذا به ما يزال هناك ، ابتسم بوجهي ببشاشة اعتاد عليها أهل الحي ، ثم صافحني وجلس على حافة سور هابط عند بوابة المسجد ، تفرس بوجهي بعينيه الواسعين :

- أراك لست على ما يرام يا بني .

جلست بقربه وكفاي تحتضنان رأسي ، وأخبرته بكل شيء ، استغرب الشيخ مما قلته ، لكنه استفاض في ابتسامته البشوشة :

- وماذا ينوي هذا القابع في داخلك أن يفعل؟

- أشياء كثيرة . همس لي بأنْ أجد طريقة ما لأرتدي حزامًا ناسفًا وأفجر نفسي في مكان من تلك التي لا تأبه بالفقراء .

قال الشيخ وقد حل مكان ابتسامته أسى عميقٌ :

- لا دين يا ولدي يبيح لك ما تفكر به .

- بل إنه هو الذي يفكر ، ولستُ أنا .

قرأ الشيخ في ذلك اليوم علي عددًا من آيات القرآن ، ثم هبط الشارع أتبعه وهو يتوكأ على عصاه ويتمتم إلى أن وصلت بيتي . ألقيت

بجسدي على الصوفة وصوت عقارب الساعة المعلقة في الجدار قرب صورة العائلة يتناهى إلى مسمعيّ . حينما استقررْنا في هذا البيت تفاجأت بوالدي يملي علينا شروط حياتنا الجديدة : لا علاقات بالجيران ، لا أحاديث في المدرسة تدل أحدًا على شخصيته وطريقة تفكيره ، حتى صوت التلفاز يجب أن يكون منخفضًا خاصة في وقت بث نشرة الأخبار . لم يُلْقِ عاهد بالاً لما يقول ، وحتى أمي أنصتت له مجاملة ، بل إنّها أقامت علاقات مع الجارات كأنها لم تسمع منه شيئًا ، كان يعرف مدى قناعتي بما يقول ، لا أدري هل كانت قناعة أم طاعة فرضتها محبتي له؟ قبل اعتقاله كان يُسمّى في القرية الخطيب جاد الله ؛ لأنه كان المعلم الأول فيها ، يدير مدرسة مكونة من غرفتين يؤمها عشرة من الطلبة وخمس من الطالبات ، يلجأ الناس إليه في نزاعاتهم ، ويستشيرونه في أي أمر يستعصي عليهم فهمه وتدبر شؤونه . لا يترك بيتًا إلا ويزوره ، حتى إنهم أحيانًا يعودون إليه بأمور الداء والدواء ، لكن بعد اعتقاله تبدّل كل شيء .

***

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة منتصف الليل عندما صحوت من نومي أتصبب عرقًا ، ويستبد بي اللهاث جراء كابوس مرعب ، إنه واحد من كوابيس أخذت تطاردني منذ أن اكتملت عزلتي بموت أبي ، استحالت نقرات عقارب ساعة الحائط إلى مطارق تضرب رأسي ، وصار صوت قطرات ماء الصنبور كأصوات انفجارات متتالية ، وتحول الصمت إلى دوي قنابل . فتحت الباب ووقفت خارج البيت ، نَفَسي ضيّقٌ ، إذْ بقيتُ أشهق الهواء إلى أن تراجع جزء كبير من ذلك الرعب ، كانت نافذة جارتي مضاءة وثمة من يراقبني من وراء

ستارتها . ما الذي تريده هذه المرأة مني ، وما الذي تسعى إليه من مراقبتها ومن رسائلها الغريبة . تجاهلت الأمر وعدت إلى الداخل ، وأثر الكابوس ما يزال بي كَشَوْكٍ عَلِقَ بملابس شخص أخطأ طريقه فمر من حقلٍ عشبُهُ يابسٌ ، أيّ طريق كان علي أن أسلكها لأنجو من كل هذا السواد الذي يحيط بي؟ حملتُ دفترًا اعتدت أن أدون فيه الكوابيس وشرعت أكتب ما رأيت ، كنت أعلم أني أفعل ما يقوم به طبيب يُخرج رصاصة من جسد شخص ميت ، أوهم نفسي بالنسيان رغم يقيني من أن بعض ما جرى لنا يصير كبذار لنباتات ضارة ، كل ما يحدث في لحظة التجاوز أننا نمنع الماء عنها ، لكن ما الذي يمكن فعله لواحد مثلي شتاءاته الداخلية كثيرة ولا تنتظر الفصول . تلاشى ضجيج الحي شيئًا فشيئًا ، وما عاد يأتيني من الخارج سوى أصوات أبواق العربات القادم من وسط البلد ، أتتني رسالة جديدة من الرقم المجهول نفسه : (نعم ، رأيت ما حدث في المطبخ) ، في لغة الرسالة تأكيد وتنبؤ بتساؤلاتي الداخلية ، نهضتُ مسرعًا ، ونظرتُ من نافذة المطبخ نحو نافذة جارتي التي كانت مضاءة وخلف ستارتها طيف لشخص ما ينظر نحوي . ما الذي تريده؟ سؤال زاد من شعوري بالإعياء فمشيت نحو الحمام وأرخيت جسدي تحت صنبور الماء الساخن ، لعلي أحظى بشيء من الاسترخاء يساعدني على النوم ، في مرآة الحمام راقبت جسدي كأنني أراه للمرة الأولى ، جسد مشدود ، لا كرش مترهل فيه ، ولا خلل في تناسق طوله مع عرضه ، بشرة صافية لم يخالطها أثر لجرح ، أو علامات لكدمة قديمة ، لامستُه ابتداء من شعر رأسي وانتهاء بأخمص قدمي ، كأنني مراهق يتعرف للتو على تضاريسه البدنية ، اقتربت أكثر من المرآة أحدق بملامحي ، ثمة خطوط بيضاء ألجزها الشيب لاحت في سواد

شعري ، وثمة تجاعيد طفقت بأسفل عيني ، تحسستها هي الأخرى كأني أصحو للتو من عمر لا طائل منه ، عمر بدا لي كابوسًا عشته كحقيقة ثابتة . أعددت كوبًا من الحليب ويممت شطر السرير ، من الوحدة تخرج المواجع كأنها خيوط دخان تتصاعد في صباح سماء صيفية ، وتطل من قماقمها الكائنات النائمة في دواخلنا ، مثل صوت ذلك المجهول الذي بدد حاجتي للنوم ، وذكرني بأسباب كثيرة تقف خلف حقده ، استشاط صوته بي ففررْتُ من السرير ، إلى المطبخ وإلى الحمام ، أصمُّ أذني لكن لا مناص من صوته وقد تجاوز صوتي . قلت كمن يستسلم لجلاده :

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- سؤالك هذا خطوة صحيحة نحو بداية الطريق .

سمعت أنفاسه تتعالى فرِحًا ومُثارًا :

- لا يمكن لشريكيْن أن ينجحا بما يريدانه من غير الثقة .

- لن أفعل ذلك ، أنت لك طريق وأنا لي أخرى .

- لا تنس أن الطريقيْن تسعيان إلى المكان ذاته .

مشيت بتوتر نحو المرآة ورحت أنظر فيها :

- قلت لك لن أفعل .

- غبي ، لا ترى إلا ما تريد أن تراه . هل تعتقد أن العالم يسير وفق ما رأيته على أرض الواقع ، وعلى شاشة التلفاز ، وفي كتبك اللعينة؟ الحياة أعقد مما تتخيل ، هناك دماء تسفك ، واحتيالات كثيرة تحدث ، وتصفيات بأشكال عديدة لا يعلم عنها إلا عدد قليل ، أنت ومن هم على شاكلتك ترون الساسة يبتسمون وراء المكيروفونات يتشدقون بأكبر كذبة عن الوطن والأمن الاجتماعي ، وتصدقونهم .

نهضت ومشيت في الغرفة بينما صوته يتعالى ويثير صخبًا مقرفًا :

- أريد أن أعلق الجرس من خلالك ، إن فعلنا هذا ستبدأ الأجراس تتزايد إلى أن تملأ الفضاء .

أخذت يداي تضربان الهواء غضبًا :

- أي أجراس أيها اللعين تتحدث عنها .

بدا لي في أقصى درجات غضبه وصوته يتحشرج مرة ويصفو مرة أخرى :

- يقع العالم الآن في حيرة كبرى ، فالذين نادوا سابقًا بالعدالة فشلوا ؛ لأنهم كانوا آباء أكثر من اللازم ، والذين جعلوا العالم على نحو حر صنعوا أباطرة جداً أشعلوا الحروب ، واحتكروا كل شيء ، والناس يموتون بين شقي رحى كونية .

خلته قد غادر حينما صمت ، لكنه عاد يتحدث بهدوء محمَّل بكثير من الغضب :

- أنت واحد ممن تطحنهم الرحى ، رحى منمقة ، بلون جذاب ، لكنها مرعبة في قسوتها .

انتقل من بطني واستقر في رأسي فصار صوته أكثر وضوحًا :

- عليك أن تعترف أنك كرهت أباك رغم حبك الشديد له ، كرهت أُبُوَّتَهُ ، وكرهت أولئك الذين في الخفاء يحركون الناس بخيوط ويتبجحون بكثير من الشعارات عن الحرية والفرص الموعودة . سنعلق الجرس بين الاثنين ، إنه جرس القسوة المضادة .

أخذ يملي علي مخططاته ، وكدت أنصاع له فهربت منه إلى كل الأماكن في البيت ، لكنه كان كحشرة قراد تعلق بجسدي فأشعل بي

نارًا ، وزرع سكاكين تقض مضجعي ، فما وجدت حلاً إلا أن أغرس في بطني سكينًا لأرتاح منه .

- لن ينفعك السكين بشيء .

ركضت نحو المطبخ وفتشت بارتباك عن السكين ، سمعته يهددني بأنه سينتقل إلى رأسي ، فاستشاط بي الغضب ، فكرتُ بوسيلة لأهشم رأسي ؛ لهذا صعدت الدرج لاهثًا ومحاولاً أن لا أنصت له ، لكن صوته كان أعلى من تجاهلي وقد جاء بهدوء مستفز :

- إن فعلتها سأنتقل إلى المكان من جسمك والذي لن يرتطم مباشرة بالأرض .

- سأنتحر غرقًا .

هبطت الدرج ولم أسمع له صوتًا ، ثم جلست في الصوفة أحاول أن أهدئ من غضبي :

- سيكون موتًا جميلاً خاصة إن نفذته في البحر الذي أمضيت عمرك ترى صوره على صفحات الجرائد ولم تخرج من عزلتك ولو مرة واحدة وتذهب إليه ، سيكون انتحارًا سهلاً أيها الجبان ، خاصة أنك لا تجيد السباحة .

صمت لبرهة ثم أطلق ضحكة ساخرة :

-لكن تذكر أن البحر الميت لا يغرق فيه إلا من لا يعرف سرَّ الماء .

كابوس

مستلق في فراشي ، أتصنع النوم ، أراه بنصف عين يمشي بكسل إلى المطبخ ، يزداد عدد ضربات قلبي ، وينتشر الإدرينالين بجسدي بضراوة ، يباغتني شعور خليط من اللذة والغضب ، وتطوف بي صرخات وحشية ، تمر ملايين الصور سريعًا في مخيلتي ، أسمع أول صرخاتي حين ولدت واضحةً ، وموجعة ، أتسلل من الفراش وعروق يدي نافرة تقبض على السكين . ثمة نداءات ، واستغاثات ، وكلمات غاضبة ، وبكاء ، وضحك ، وصراخ ، تتبعني . أقف بباب المطبخ ، أراه يقف على الكرسي وطرف الحبل مربوط بالسقف ، ويلتف طرفه الآخر حول رقبته ، يتنفس بهدوء ، ثم يلقي نظرة متأملة نحو الفراغ ، يتهيأ ليلقي ببدنه من على الكرسي ، تسقط السكين من يدي ، أتقدم نحوه ، يحس بي ، فيفكر بالتراجع . أقاسي تشوشًا في الرؤية ، وخليط أصوات ، أعود خطوة إلى الخلف ، أتقدم خطوة إلى الأمام ، يستبد بي البكاء ، أبكي بوحشية ، أركل الكرسي بقدمي ، يسقط أبي ، أسقطُ مغمًى علي .

الفصل الثاني

«السكين الحادة جدًا تجرح غمدها»
مثل إفريقي

١
ليلى
(هروب)

لم يتغير الحال ، كنت أعتقد أنه سيكون أفضل بعد أول خطوة لي خارج الملجأ ، لكني وجدت نفسي سجينة مع فتاتين محبطتين : أسماء التي تنهكها ساعات العمل الطويلة ، وترهقها مقاومتها لرب عمل يرى أن عليها فتح رجليها أمام أول نظرة شهوانية منه ، بما أنها قادمة من الملجأ ولا عائلة لها . وماجدة وقد استسلمت سريعًا وتحولت إلى عاهرة تمضي ليلها في النوادي الليلية . لم يتغير الحال فليس لي إلا الوقوف إلى النافذة أنظر إلى الشارع بخوف ، تمامًا مثلما كنت أفعل في الملجأ الذي ما تزال ذكرياته الموجعة تطاردني حتى في نومي . تخرج أسماء صباحًا إلى عملها ، بينما في الوقت الذي أصحو فيه تكون ماجدة قد نامت ثملة تفوح منها رائحة عرفت في ما بعد أنها رائحة الخمر ، تتهاوى متعبة أكثر مما يمكن لفتاة عشرينية بعمرها أن تحتمل ، تعبٌ يجعلها تهذي أثناء نومها ، تكز على أسنانها ويصدر منها بين الحين والآخر أنين طالما دفعني إلى أن أدخل غرفتها وأوقظها من نومها ، فتنظر إلي بعيني مَنْ لا يفهم شيئًا ثم تنام . يا الله كم كانت مسكينة تلك الفتاة! وكم كانت معذبة! حينما تصحو تتصرف بتلك اللامبالاة المتصنعة كأن شيئًا لا يعنيها ، تسهو للحظة وقد تغيرت ملامح وجهها فيستحيل إلى وجه حزين لفتاة لم تصمد طويلاً أمام عالم لم نكن ندري أنه على هذه الشاكلة .

بعد أسبوعين من مجيئي إلى ذلك البيت هُزمت أسماء أمام التحرش المستمر لصاحب المطعم بها ، حينما رفضته استكثر عليها ذلك كونها مجهولة النسب ، قال لها : (كان عليك أن تكافئيني لأني قَبِلت أن تعملي لدي) شتمها كثيرًا ثم طردها من العمل . في ذلك اليوم عادت باكرًا ، كنت أنظف البيت ؛ لأستعد لتحضير الغداء مشاركة مني مقابل عيشي المجاني مع فتاتين بالكاد تتدبران أجرة البيت وتكاليف الطعام . كان وجهها يميل إلى السواد وفمها ناشف حينما دخلت وجلست صامتة ، لا تجيب عن أسئلتي ، عن سبب ما هي فيه ، أدركتُ أن شيئًا حدث لها فتركتها تهدأ ، إذ تشاغلت عنها ، فجاءني صوتها من الداخل وقد انفجرت بالبكاء ، هرعت إليها واحتضنتها وبكاؤها لا ينقطع إلى أنْ احمرت عيناها وخارت قواها ، تملكها الحزن إلى درجة خلتها فيها ستلقي بنفسها من الشرفة ، وقد رأيتها أكثر من مرة تلتفت نحوها . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر بقليل عندما استلقت في فرشتها ونامت واستفاقت عند التاسعة مساء ، بقيت ساهمة ثم دخلت لتستحم فسمعتها تغني ، لقد كان غناء بنبرة البكاء . في ذلك الوقت هيأت ماجدة نفسها للخروج ، وجلست تدخن وتنظر إلى التلفاز . خرجت أسماء من الحمام ودخلت غرفة ماجدة وأغلقت على نفسها دقائق ، ثم عادت ترتدي فستانًا لماجدة يكشف نصف نهديها ومعظم فخذيها ، مشت نحونا تنقر بالحذاء ذي الكعب العالي ، وفي فمها لبان تمضغه بافتعال ، التقطت سيجارة من علبة ماجدة وأشعلتها ، ثم نفخت هواءها بدلال مصطنع :

- ابتداء من هذه الليلة سأرافقك يا ماجدة .

منذ ذلك اليوم عملت أسماء في الدعارة ، تعود قبيل الفجر بقليل

وتنام حتى الغروب ، بعد مضي يومين قالت لي : (سأمنحك أجرة مقابل تنظيف البيت ، وشراء ما نحتاجه ، ومن ثم إعداد الطعام) ، لم يكن أمامي شيء أفعله سوى أن أتقبل ما أصبحت عليه فتاتان كانتا تتوقان لمغادرة الملجأ ؛ لذا بت خادمة أخرج مرتين في الأسبوع إلى السوق وأعود بسرعة ، أمضي معظم وقتي في مشاهدة التلفاز ، وبي شيء من الاطمئنان ، لكن الأمر تغير ؛ فما عادت أسماء وماجدة تذهبان ليلاً إلى النادي الليلي بل أصبحتا يستقبلان رجالاً يدخل من يأتي منهم إلى الغرفة ويمضي نصف ساعة ثم يغادر . في البدء لم أسأل عمّا يجري ، ربما هي محاولة مني للحفاظ على مكان يؤويني . ذات يوم أتت أسماء وجلست بقربي ثم ألقت برأسها في حضني وبكت بمرارة ، ظلت على تلك الحال لدقائق ثم صمتت ، قلت لها :

- ماذا يفعل هؤلاء الرجال الذين يذهبون إلى الداخل؟

رفعت رأسها ونظرت إلي بغضب :

- هل أنت غبية؟ هذا البيت تحول إلى دار دعارة .

قالت ذلك ثم غرقت بالبكاء من جديد .

أعلم أن فتاتين بريئتين قد صارتا عاهرتين ، فقد كنت أسمع خوار الرجال من الداخل حينما ينتشون ، فيعاودني الشعور بالألم في معدتي ، والإحساس بالحاجة للتقيؤ ، وازدياد الكره الشديد لجسدي . ذات يوم أتى ثلاثة رجال : واحد اصطحب أسماء إلى الداخل ، وآخر اصطحب ماجدة إلى غرفة المطبخ ، نظر الثالث نحوي ، ثم مشى إلي وتعرى من ملابسه ، كانت له عينا وحش ، ومشي كائن غريب من أولئك الذين رأيتهم في الأفلام الخيالية ، ضاقت كل احتمالات النجاة في تلك اللحظات القاسية وأنا أسمع تأوهات مصطنعة لأسماء

وماجدة ، وكلمات قذرة يطلقها أولئك الرجال الشبقون . صرخت والمسافة بيني وبينه قصيرة مستغيثة بأسماء ، لكن لم يجبني أحد ، لا أدري لحظتها كيف قفزت وفتحت الباب وهربت أحس بيديه تكاد تلامسان ظهري ، ثم حين التفت لم أجد أحدًا ورائي وأنا أركض مرعوبة في الشارع .

كنت خائفة من كل رجل ينظر إلي ومشيتي مرتبكة كما لو أنني مخمورة ، ثمة شعور بأن أحدهم سيعتدي علي لا يفارقني حتى أثناء نومي في بيت ماجدة وأسماء اللتين لم تصمدا طويلاً فكلنا ضحايا الرغبة . مشيت لا أدري إلى أين ، كان المهم عندي أن أنجو ، لكن خوفًا جديدًا أخذ يجتاح قلبي ؛ فجسدي علامة يمكن أن تدل الكثير ممن هم على شاكلة ذلك الرجل . توقفت أمام إحدى صالونات الحلاقة النسائية أنظر إلى هيأتي في زجاجه ، تفقدت جيوبي ، لم يتبق من المبلغ المالي الذي منحوه لي سوى خمسين دينارًا ، لم يكن أمامي سوى أن أخفي ملامح الأنثى بي ، فدخلت وطلبت قصة شعر رجالية ، ثم خرجت واشتريت ملابس رجال ارتديتها ومضيت في الشوارع ؛ وجب علي أن أتخفى قبالة كل ذلك الخوف الذي يسكنني . من أصعب الأشياء أن تتقمص أنثى دور رجل في مشيته وحركاته وحتى نظرته إلى ما حوله ، تفعل ذلك لتنجو بأنوثتها من الهلاك ، كنت أمشي على الرصيف وما إن أرى رجلاً قادمًا نحوي حتى أميل مبتعدة عن دربه ، رأيت أناسًا ينظرون إلي فقلت في نفسي : (يبدو أنني لم أتقن الدور كما ينبغي) ، توقفت قليلاً عن المشي ورحت أنظر إلى مشية الرجال وسلوكهم ، ثم مضيت أردد بإلحاح : (أنت رجل ، أنت رجل ، أنت رجل) . وجب علي فعل ذلك ؛ لئلا أصاب بالوجع الذي داهمني يوم

اعتصبتني المشرفة ، ويوم تحرّش بي سائق السيارة ، وحين حاول أن يقض علي ذلك الرجل في بيت أسماء وماجدة .

لم أفكر يومها إلى أين سأذهب ، قلت في نفسي سأبقى أمشي فحسب ، لكنني أصبت بالرعب بعد أن رأيت الشمس تغيب وراء البنايات وتهيء المدينة لليل لا أعرف ماذا يخبىء لي ، كيف ستمضي فتاة صغيرة وجميلة مثلي يملأ الخوف قلبها من الرجال ، ومن هذا العالم في أول ليلة خارج جدران تداريها؟

كنت أنظر إلى نوافذ البيوت أصنع مثلما اعتدت حلم يقظة أرى فيه أمي تلوّح لي ، وأنظر بحذر في وجوه بعض الرجال لعل أحدهم يدله قلبه علي ، فيحتضنني ويطرد عني كل ذلك الخوف ، تذكرت عبارة لشاعر قرأتها في مجلة : (ما أصعب أن يكون الواحد منا كغصن مبتور من شجرة! ما أصعب عيش تلك الأغصان حينما تُعزل عن أمهاتها عنوة ، فيموت بعضها ، وبعضها يصير أشجارًا قوية تداري في داخلها يتمها ، وتبكي بحجة الفائض في اللحاء!) .

كنت تائهة وعلى مشارف أن أعود إلى الملجأ ، لكن كيف لي ذلك وما عدت تلك الطفلة التي يمكن أن يؤوها . تذكرت أن أسماء أخبرتني عن بيت مهجور يحتمي به عدد ممن كانوا نزلاء في الملجأ ، يقع قرب شارع يهبط من الدوار الثالث نحو وسط البلد : منهم من يمكث بلا عمل ، ومنهم من صار متسولاً ، ومنهم من تحول إلى لص . قالت لي أسماء ليلتها إنهم أولئك الذين عاقبهم الجميع ؛ لأنهم أبناء حرام . وأنا أحاول تقمص صوت رجل سألت شابًا يقف تحت مظلة للحافلات العمومية عن حافلة توصلني إلى هناك ، فقال وهو ينظر إلي مستغربًا :

- بعد دقائق ستأتي الحافلة .

لم يمض سوى دقائق إلا وأتت الحافلة وصعدت بها ، جلست ورحت أنظر إلى الأمام من دون أي التفات ، بعد دقائق أخذت أنظر حولي بعجالة ، ثمة وجوه صامتة لأناس منهم من كان متعبًا ، ومنهم من يلهو بهاتفه ، وآخرين يتحدثون لبعضهم . رغم أني لم أجد أحدًا يبتسم إلا أني رأيت الحياة خارج الملجأ جميلة لكنها مخيفة لواحدة مثلي لا تعرف أحدًا ، وها هي الآن تقصد أشخاصًا مهملين مثلها . تذكرت ما قالته ماجدة : (رمونا إلى عالم إن لم تكن لك فيه قبيلة أو عشيرة ستبقى منبوذًا ، ولن تكون لك أي قيمة مهما فعلت) .

نبه السائق إلى اقتراب الحافلة من الدوار الثالث فنزلت ، وهبطت الشارع أحدث نفسي : (عليك يا ليلى أن تتذكري أنك تتخفين بملابس شاب ، اضبطي مشيتك وتصرفي كالرجال) . تفحصت سورًا طويلاً يحد الشارع ، ثمة كوة فيه بالكاد اجتزتها فأدت بي عبر زقاق ملتو مليء بالقاذورات ، والأوساخ ، ورائحة البول والبراز ، إلى بيت عتيق وقفت أمام بابه وقرعته فلم يجبني أحد ، كدت أعود حين رأيت ذلك الباب المتآكل معدنه ، لكنني رأيت شخصًا يطل من فتحة فيه ، فأسرعت نحو الباب : (أنا ليلى) .

استمر ذلك الشخص ينظر إلي باستغراب ، إلى أن أشرع الباب فأطل منه وجه متعب لفتاة تأملتها فعرفت أنها سلام ، كيف يحدث لنا ما يحدث؟ كانت سلام من أكثر نزلاء الملجأ توقًا إلى مغادرته ، تصف الحياة خارجه كأنها عاشت هناك سنين طويلة ، لقد بنت كل حكاياتها على مشاهد خاطفة رأتها حين ذهبت إلى المستشفى مرة ، وفي مرات قليلة أخذونا فيها في نزهة خارج عمان .

عند الباب عانقتني سلام ثم انهارت مرة واحدة ؛ إذ جلست على

الأرض تبكي وتشتم الناس والحكومات ، ووالديها اللذيْن سببا لها كل ذلك . أمسكتْ بقدمي وراحت تصرخ :

- لو يحدث لي وأعرف من هما والداي سأقتلهما ، أقسم إني سأفعل ذلك .

عندما اقتدت سلام إلى الداخل هجمت علي روائح الرطوبة والعفن ، وروائح أخرى كريهة ، بيت معتم وآيل للسقوط بقينا فيه حتى المساء ، إذ جاء معظم قاطنيه : نور ، ورائد ، وعدي ، كانوا منهارين وحزينين كما لم يحدث لنا في الملجأ ، تحلّقوا حول بضع حبات من الفلافل وأكلوا ، ثم اتخذ كل واحد منهم زاوية ونام . (كيف لم يتبق لنا إلا هذا البيت المهجور؟) كنت أفكر بسري بعد أن نام الجميع رغم البرد ، منهم من نام على فرشة بالية ، ومنهم نام على الأرض وعلى أجسادهم بطانيات مهترئة . أمضيت يومين في ذلك البيت بلا طعام ، وكل ما تبقى معي لا يتجاوز العشرين دينارًا ، كان علي أن أجد وسيلة لأعمل ، فاشتريت مناديل ورقية لأبيعها لسائقي السيارات ، غير مدركة أن بانتظاري صدفة غريبة سوف تبدل كل شيء .

٢

إبراهيم
(قبرمائي)

لم أنم في الليلة الفائتة ، مع ذلك كنت ممتلئًا بصحو استثنائي والحافلة تنطلق بي للتو من عمان نحو العقبة ، أفكر بوعي هلامي ، لا هو بالحزين ولا هو بالمبهج ، رجل ذاهب ليلقي بنفسه إلى حضن الموت ، هل الأمر سهل إلى هذه الدرجة؟ الطريق إلى الفردوس فردوس ، وعلى الطريق إلى الموت أن تكون موتًا ، لكن ما الذي يحدث لي؟ إذ يبدو الأمر كأني موظف ذاهب إلى عمله ليقدم استقالته ويستريح من العناء . نهضت من الكرسي ومشيت نحو السائق ، نظر إلي عبر المرآة :

- هل تريد شيئًا؟

- أريد أن أنزل من الحافلة .

وقبل أن يمتثل لطلبي عدت إلى كرسيّي بعد أن لوحت له بيدي متراجعًا عما طلبت ، أرخيت رأسي على مسند الكرسي وأغمضت عيني ، اعتراني إحساس يشبه النعاس ، يشبه استعادتي لنباح كلب حزين في ليل القرية البهيم ، رأيت قمرًا شاحبًا تمر من أمامه غيوم سوداء ، وسمعت صفير ريح ، واستغاثة امرأة لا يجيبها أحد ، رأيتُني اثنين ، واحدًا منا ضئيل ظل يتسلق جسد الكبير إلى أن دخل فمه ثم راح يتسلق حبالاً إلى أن وصل غرفة فيها أناس ، وبلاد ، وسماء ، وفيها

أسرار كثيرة : رغبات ، وكبوات ، وبكاء ، وضحك ، وفيها صندوق ما إن فتحته حتى هجم علي صوت خليط من الأغنيات والنواح فاستفقت ورحت أنظر حولي . كان الرجل الذي يجلس بجواري يحدق بي :

- كنت تئن ، يبدو أنك تحلم .

لم أقل شيئًا إنما أنصتُ إلى الصوت الذي جاء همسًا له صدى مرعب كأن مصدره بئر فارغة .

رن هاتفي ؛ إذ كانت رسالة من الدكتور يوسف السماك :

- (عزيزي إبراهيم حديثك حول الجذور دفعني لكتابة هذه الرسالة فأفكر معك بصوت عال : هل يمكنني العيش بلا انتماء إلى عائلة كبيرة في زمن يهرع الجميع فيه إلى تجمعات مثل تلك ، أعلم أن هناك انتماء مكتسبًا ، وانتماء فطريًا ، وآخر تكونه جماعة ما ، وأعلم أن ذلك يغدو ضربًا من العبث ما دمنا ننتمي إلى عقولنا ، تعلمتُ في أعرق جامعات أمريكا ولدي من المال ما يكفيني إلى الشيخوخة ، لكنني أشعر أنني أنقص شيئًا ، في أمريكا يشق الناس طريقهم بعد الثامنة عشرة ، كل ما يهمهم أن يكونوا أحرارًا في كل شيء ، يحتكمون للقانون فقط ، ينفصلون عن آبائهم وعن أمهاتهم ويعيشون الحياة بكامل الجسارة . طوال تلك السنين التي أمضيتها هناك بقيت أنقب في نفسي عن سر توقي إلى انتماء لا يعترف به من أعاشرهم ، كان التفكير بأمر مثل هذا يشبه الدخول في دوامة ، لن يقبل كل من قرأت لهم ما أتوق إليه : يونغ ، فرويد ، أدلر ، ألبورت ، وكثير ممن توغلوا عميقًا في نفس الإنسان ونوازعه الغريبة . نعم أتوق لذلك ، وبخلافك أشعر حتى وأنا بين الناس أنني أجوف من الداخل ، كنت في السنة الأخيرة من الدراسة حينما قررت أن ألجأ إلى طبيب نفسي لأخبره

عما يقلقني ، لكنني عدت بعد أن وقفت بباب عيادته ، ليس لأنني طالب متفوق في علم النفس إنما لأن جانبًا في حياتنا العربية عصيًا عليه فهمه) . ما الذي يدفع طبيبًا للحديث إلى مريضه بكل هذه الصراحة؟ هل استفززْتُه؟ أمرٌ حيرني لكني ما وجدت لدي طاقة في أن أرد على رسالته ، فما عاد هناك من داع لفعل شيء بما أنني اتخذت قرارًا سيلغي كل شيء . هل أنا ذاهب لأنهي عذابًا داخليًا كنت لسنين أداويه بالكتب-أفكر- أم أنا ذاهب لأنتصر لما خلفته بي تلك الكتب؟ الأمر أهون مما يفكر به الخائف ، حسنًا سألقي بجسدي إلى الماء ، دقائق قليلة من الوجع بعدها ينداح البياض ، وتحل الراحة الأبدية . أتخيلها كرعشة جنسية لا نهائية ، سيأكل ملحُ البحر والأسماك قميصَ الروح التي ستكون قد فرّت من قفصها بعد دقائق من الولوج إلى العمق ، وهكذا تكون النهاية .

كتبت في صفحتي في الفيس بوك : (عندما سقطت قشرة الطلاء ، عرفت الحقيقة) ، لكني تراجعت عن نشرها ، واكتفيت بأن أتنقل ما بين الصفحات : عماد الأحمر ينشر صورة في صفحته كتب أعلاها (اللهم احفظ هذا البلد) . أغلقت هاتفي ورحت أنظر خارج الحافلة كأني سائح يزور هذه البلاد ، ها أنا لأول مرة أغادر عمان منذ أن قطنتها ، وأمضي عبر طريق (العقبة) الطويلة ، طالما رأيت العروض الترويجية لها في صفحات الجرائد ، والمجلات ، وعلى شاشات التلفاز ، لكنني لم أذهب إليها . كان والدي يخشى أن أغيب عن ناظريه ، يتلبسه خوف وقلق غريبان علي من أن أتعرض لحادث يخسرني فيه . كيف صار أبي على هذا النحو؟ أي هاوية سقط فيها وعاد منزوعًا مما كان عليه في زمن مليء بالأحلام؟ بعد شهر من استقرارنا في عمان

انفل أبي كمعلم إلى مدرسة في جبل الجوفة ، كنت أنا وعاهد نتعلم فيها . يمضي جل وقته صامتًا لا يتحدث إلا أمام الطلبة ، يجلس في الاستراحات بين الحصص على حافة سور في باحة المدرسة ينظر في الفراغ ، وبعد انتهاء عمله يذهب إلى الكشك يمارس صمته من جديد . استمر على هذا الحال إلى أن أحيل على التقاعد قبل أن أتخرج من المدرسة بعام ، كان قد تدبر أمره وأقام كشك الكتب وسمَّاه (كشك الوراق) . اعتاد الزبائن على صمته ؛ إذ لا يتحدث إلا قليلاً في ما يخص سعر الكتب أو توفرها . كان يصطحبني في أيام العطل من المدرسة ، ويعرفني بالكتب وبأسعارها إلى أن اطمأنّ على تشكّل خبرة كافية لديّ . أنهيت الثانوية العامة بتحصيل علمي ضعيف فأمرني أن أعمل معه ، نعم أمرني ، فلم أعص له أمرًا قط ؛ إذ كنت أطيعه في كل صغيرة وكبيرة ، لكنه لم يكن راضيًا عن طاعتي العمياء ، فقد كنت ألمس أسى في عينيه وأنا أمتثل لأي شيء يقوله ، كأنه يتذكر سنين عاشها جسورًا متمردًا يفعل ما يحلو له . حينما كبرت وفهمت ما معنى أن يمتثل ولد لأبيه ، أدركت أن أخي عاهد رغم حبه الشديد لأبي إلا أنه لم يقتنع بمخاوفه وقلقه من كل شيء حوله ، لم يقنعه أن كثيرًا من الناس مخبرون ، وأن كل شيء مخيف إلى ذلك الحد . لم يتوقف والدي عن بث الحذر بي من كل ما يقلقه . أتذكر أول مرة أخذ فيها يملي علي صراحة ما يجب أن أفعله ونحن نجلس في ليلة شتائية قرب المدفأة ؛ إذ فرغ من قراءة كتاب يتحدث عن إعدام الشيوعيين العراقيين عام ١٩٧٨ في عهد صدام ، وراح يحدثني عنهم ، ثم فجأة تنبه إلى أنه ما كان عليه أن يخوض في حديث مثل ذاك ، طوى صفحة في الكتاب وتنهد ثم قال بلهجة تختلط فيها نبرة الأسى بنبرة آمرة :

- بني يا إبراهيم تعلَّم أن تبقى كتومًا ، ما أدراك أن البقال مثلاً ينقل المعلومات للجهات الأمنية ، البقالون يثرثرون كثيرًا ، ويستقون المعلومات من الشباب الذين هم بعمرك ، ألم تلاحظ كيف يتنصت عمال النظافة على البيوت ، يلتقطون أي كلمة ، ويدونونها في تقاريرهم اليومية؟ حتى العجائز هناك خوف منهن ، ففي جلساتهن تدور أحاديث عفوية : ابني قال كذا ، زوجي استقبل فلان ، أخي ذهب إلى ذاك المكان ، بعضهن ينقلن الأحاديث بعد أن تنفض الجلسات ، فما أدراك أن ابن فلانة أو غيرها مخبر أو عنصر في الأمن؟ لا تثق بأحد ، صديقك ، زميلك ، أخيك . حبيبتك ، حتى العاهرات في الشوارع لا تأمن جانبهن .

- لست مهتمًا بالسياسة ، ولا أتحدث بها .

اقترب مني ، وحدق بي :

- كل شيء في هذه الدنيا سياسة ، وكل شيء محسوب عليك ، وستجني عقوبته من دون أن تعي ذلك .

مع الأيام اعتدت طريقة أبي في التفكير ، وتحولت إلى شخص انعزالي ، حذرني من زبائن الكشك ، وطلب مني إن غاب ألا أتحدث عن أي كتاب أو محتواه لأي واحد منهم ، وألاّ أدخل في أي أحاديث جانبية ، حتى إنّه حذرني من قراءة بعض الكتب ، سواء أكانت روايات أم كتبًا في السياسة أم الفلسفة أم في الدين ، ورأى إن كان لا بد من القراءة فعلي أن أمارسها في البيت ، وهذا هو الأمر الوحيد الذي ما أطعت فيه والدي ؛ قرأت خفية ، وإذا بي أجد عالما مختلفًا غير الذي أعيشه يشبه يدًا تزيل رمادًا عن زجاج المرآة ، بت أقرأ علانية بعد موته الذي جعلني أقع صريعًا لإحساس يشبه إحساس أعمى اعتاد أن

بمناداه أحد ويدله على الطرقات ، ثم اختفى . رأيت يافطة تشير إلى مادبا ، عندما اقتربنا من الجسر الذي يؤدي إليها كنت سأغير مسار رحلتي ، وأترك الحافلة وأستقل أخرى ، وأذهب إلى بيتنا الأول في القرية لولا أني سمعت صوت المجهول يهزأ بي ويهددني ، قضي الأمر وأصبحت قبالة خيار واحد هو الانتحار ؛ لئلا يحدث ما لا يحمد عقباه . كانت الحافلة تشق طريقها عبر المساحات الصحراوية الصفراء الممتدة حتى الأفق ، تيمم شطر الجنوب الذي كلما تعمقنا فيه ازدادت درجات الحرارة ، رغم أن الشتاء على مقربة من باب السماء . أراض صفراء تهز الريح فيها نباتات صحراوية وأشواكًا جافة تَعَلَّقَت فيها أوراق وأكياس بلاستيكية تبعث على الوحشة . أرخيت رأسي على مسند الكرسي أنظر إلى بيوت القرى ، وقد بدت لي تحتمي بالطريق من قسوة الطبيعة ، بيوت صغيرة بألوان كالحة في الصيف تقاسي شمسًا لا تتهاون في حرارتها ، وفي الشتاء يتفصد البرد من ذاته ليقسو على كل شيء ، كنت أفكر بشكل الموت الذي سأقترفه :

-(كوني لا أجيد السباحة سأسأل عن أعمق مكان في الشاطئ ، وألقي بنفسي فيه ، بل سأفتش بنفسي لأتجنب إثارة أي شكوك حول سؤالي فلا تنجح مهمتي ، سأختار التوقيت المناسب ، إنه الصباح الباكر ، حيث لا أحد على الشاطئ يمكنه أن يقدم على إنقاذي ، فلو حصل ذلك سيتمكن مني ذلك المجهول الذي ينوء بي كفيروس ضار ، سأصارع النوم هذه الليلة لأنني أعلم أنه سيحاول قض مضجعي ، وحين يطلع الصباح سأباغته أثناء نومه) .

عند العصر وصلت الحافلة مشارف العقبة ، لاح لي البحر ساكنًا والشمس تلمع على وجهه ، بينما القوارب الصغيرة تخلف زبدًا أبيض

تشق طريقها مسرعة إلى أكثر من جهة ، اعتراني شعور بالحسرة لأنني أرى ذلك للمرة الأولى . بدت المدينة وهي على طرف البحر كابتسامة على فم امرأة عاشقة ، وقد نهضت من أرضها أشجار النخيل نحو سماء تخفق في زرقتها الصافية طائرات شراعية ، ونوارس تهبط نحو الماء كصبية يغيرون على كرة في منتصف الملعب .

ما هي إلا دقائق حتى توقفت الحافلة في منتصف المدينة منهية رحلتها الطويلة ، حمل المسافرون حقائبهم وغادروا إلا أنا ، فكيف لواحد جاء ينتحر أن يحمل معه حقيبة تضم ملابسه وأغراضه الشخصية؟! لا أحمل معي إلا حافظتي الجلدية التي تحتوي على بطاقتي الشخصية ، وصورة تضمني أنا وأمي وأخي عاهد ، وهاتفي النقال ، وألفي دينار كل ما ادّخرته . التفت السائق نحوي مستغربًا من بقائي في الحافلة ، ثم نبهني إلى انتهاء الرحلة ، فغادرت أفتش عن الطريق إلى البحر ، لكن ساعات طويلة تفصلني عن الصباح ، التوقيت الذي ستنتهي فيه حياتي . عبرت الشارع ميممًا رصيفه المقابل ، ثمة سيارة فارهة تتعالى منها أصداء موسيقى راقصة كادت أن تدهسني ، تراجعت فسقطت أرضًا وقلبي يخفق خوفًا ، سمعت صوت المجهول ضاحكًا :

- كيف لرجل اختار موته بمحض إرادته أن يخاف من فرصة للموت ، كان للسيارة أن تباغتك وتنهي الذي بيني وبينك .

- لو حدث ذلك ستفر من جسدي وتستقر في جسد آخر .

ضحك ساخرًا :

- لو عرفتني ما قلت هذا .

مضيت في طريقي وعلى وجهي ترتسم ابتسامة خائف وحزين ،

راجعتُ والشارع يأخذني إلى آخَر ، ويطلعني على ضجيج وزحام ممبلين ، كنت أرى قامتي في زجاج المحال التجارية ، بَدَنٌ يسير إلى لا منفى له غير الموت ، وفي الآن ذاته يلاحقني إحساس بالخطيئة مما أنا مقدم عليه . باغتني شعور عارم بالجوع استغربته ، فكيف أشتهي الطعام ما دمت سألقي ببدني بعد ساعات للبحر!

جاء صوت المجهول جادًا :

- ما دمت ستنهي حياتك عشْ هذا اليوم كما ينبغي .

قلت في سري : (لا بأس من أن أدلل نفسي قبل هلاكها) .

اخترت مطعمًا فَخمًا حينما وقفت ببابه جاءني صوت موسيقي رقيق ، تخلله صدى ارتطام الملاعق والسكاكين بالأطباق ، نظر إليَّ النادل بتفحص هيأتي ، وقال ينبهني :

- ثمن الطعام غال في هذا المكان .

قلت وأنا أسرح بصري عبر نافذة زجاجية عريضة :

- لا تقلق سأدفع ما تطلبه مني .

اخترت طاولة تطل على البحر ، ودوَّن النادل ما اخترته من طعام بعد أن استعنت بالقائمة ، ثم مضى ينظر إلي غير مطمئن . منحتني نسمات هواء المكيف شيئًا من الانتعاش ، وطردت ما خلفه علي يوم مثل ذاك حافل بالهجير . رأيت رجالاً بملابس أنيقة يجلسون إلى الطاولات ، ونساءً بلباس صيفي أعلن عن أنوثتهن الصارخة ، ثمة طاولة يجلس إليها ثلاثة رجال وامرأتان يشربون شيئًا عرفت في ما بعد أنه نبيذ أبيض ، ويتناولون طعامًا لم أهتد إلى نوعيته ، كان الرجل الذي يجلس عند رأس الطاولة يتحدث بشيء من التوتر عن عمليات فساد أرهقت البلاد مؤخراً ، يلوم جهات كثيرة ، ويرى أن خطوات جادة

يجب أن تتخذ لتزول هكذا أزمة . تحدث عن الطبقة الوسطى وتلاشيها ، وخطورة ما يمكن أن يحدث جراء ذلك ، صمت قليلاً من الوقت ونظر نحو امرأة تقابله :

- نحن بحاجة لواحد مثل القاضي الإيطالي (أنطونيو دي بييترو) .

ذكرني ذلك الرجل بالمتنفذ الذي أزيلت الأكشاك من وسط البلد لصالحه رغم عدم حاجته لها ، فدخلت صفحته في الفيس بوك وعدت أتصفحها من جديد : (إياد نبيل) يتصرف كمسؤول سياسي مهم يخشى على الوطن ، تشير صفحته إلى أنه يمتلك شركة ضخمة للمستلزمات الطبية ، ومصنع دواء ، وعددًا من الوكالات العالمية ، له كثير من الصور والفيديوهات حول أنشطته الخيرية ، يمسك في معظم صوره بسبحة ، وتلوح في صورتين له واحدة في مكتبه وأخرى في بيته ، لوحتان منقوشة عليهما آيات من القرآن الكريم . جاءت النادلة بالطعام ، وضعته أمامي وذهبت إلى طاولة الرجال الثلاثة والمرأتين ، تذكرت ما قاله أبي ذات يوم : (لا تأمن أصحاب الأصوات العالية ، إنهم عادة ما يخبئون وراءها حقيقتهم المختلفة) . التهمت الطعام بشهية عالية ، كأنني أستزيد مما فاتني من عمري قبل أن أنهيه بخطوة سوف تريحني من إرث أبي الذي قيدني بخوف وعزلة موجعين ، ومن كائن متطرف يسكنني . كانت روائح العطور الرجالية والنسائية تجتاح المكان ، فمنحتني بهجة مفاجئة جعلتني أتلفت يمينًا وشمالاً ، ونوعًا جديدًا من الراحة يسري بجسدي . جاءني صوت ساكني المتطرف :

- ليس لك إلا الرائحة تحتفي بزورها . ليس لك إلا أن تنظر إلى هؤلاء ، وتستمع إلى أصواتهم وقد محقت صوتك وصوت من هم على

ا ساكلتك ، أنت القـادم من جـوع قـديم ، وهم الراسـخـون في ثرائهم الفاحش ، ماذا لو كان بحوزتك مسدس وصوبته نحوهم الآن؟ ما الذي سيحدث إن تخلص العالم من عدد ممن جعلوا كتفيك دربًا لهم .

أحسست بخيوط تلتف حول جسدي وتسحبني نحو ذلك المجهول ، إنه نوع غريب من الانصياع يشبه نصيحة قاتل يصوب مسدسه نحو رأسي ، وفي الآن ذاته يحدثني من منطقة مشبعة بالشفقة ، انصعت له من غير وعي ، ثم تنبهت إلى خطورة ذلك ، سقطت الملعقة من يدي أرضًا وأحدثت جلبة جعلت أكثر من شخص ينتبه لي ، التهمت طعامي معاندًا صوته القريب ، كأنه يجلس تارة على كتفي ، وقبالتي على الطاولة تارة أخرى .

- أي خطوة ستفعلها بالاتجاه الصحيح ستؤدي إلى أجراس جديدة .

- صحيحك هذا نابع من زاوية مرضية .

أحسست به يمسك بيدي والملعقة قريبة من فمي :

- وهل تعتقد أيها الغبي أن العالم يمضي على نحو سليم؟ الناس مرضى بما صاغوه لهم ، يشعلون الحروب ، يبتكرون أمراضًا ، يغتالون أصواتًا ، ويعلون من أخرى .

- لن أهزم أمامك .

صحوت على النادل يمسك بي ويهزني وأنا أقف بين طاولتي وطاولة بقربي ويدفع بي لأغادر المطعم . نظر البعض إليَّ حينما دفعت ثمن ما أكلته من طعام وغادرت لأجدني في الشارع إزاء حرارة شمس ملتهبة تقصف كل شيء ، أخذ يداهمني شعور بالإعياء حين كنت أنتقل من رصيف إلى آخر كتائه يفتش عما أضاعه ، كنت أتساءل

حينما فكرت بوسيلة لأرتاح من عناء الطريق، ومن حرارة الشمس: (ما الفائدة من أن تذهب للراحة وأنت قاصد الأبدية؟ ما الفائدة من أن تهرب من سيارة مسرعة خوفًا من أن ترطمك؟) سمعته يؤنبني:

- هل أنت غبي؟ حتى الذهاب إلى الموت يستلزم أناقة استثنائية، انظر إلى هيئتك: ملابسك قديمة، قصة شعرك كلاسيكية، ووجهك يميل إلى البلاهة أكثر مما يميل إلى الحزن.

عبرت نحو صالون حلاقة على الطرف الآخر من الشارع، قلت للحلاق: (أنا عريس هذه الليلة، عليك أن تجعلني في هيئة جميلة)، وجدت وجهي في المرآة يتبدل شيئًا فشيئًا؛ قصة جديدة بشعر مسرح بطريقة ملائمة، بشرة تحولت إلى ناعمة وحيوية بعد أن أمضى الحلاق وقتًا يهيئها بالمنظفات والكريمات. نظرت في المرآة وأنا أغادر، وإذا لي وجهًا يخلو من بلاهة طالما سئمتها. قريبًا من صالون الحلاقة دفعت باب محل للملابس وتجولت بين أشكال القمصان والبنطلونات، فاشتريت ثيابًا وحذاءً جديدين، وارتديتها في المحل ذاته، في سلة للمهملات ألقيت ثيابي القديمة وكأني ألقي بزمن قديم، صرت واحدًا غيري. مضيت في الشارع بعد أن مالت الشمس نحو كتف البحر فتراجعت حرارتها، وخرج الناس يغذون الخطى في الشوارع والطرقات. (لا بد أن أصنع لي أناقة كاملة في آخر ليلة لي في هذه الحياة). همست لنفسي وصوت المجهول يوافقني على ما أفكر به، دخلت محلاً للعطور، وجدتُ خزائنه الزجاجية تعرض أصنافًا متنوعة منها، ثمة رجال ونساء كانوا ينتقون عطورهم وروائحها تنتشر في المكان. قلت للبائع سأتجول بين الروائح لأجد ما يناسبني، أعتقد أنني متطلب، وصاحب مزاج مختلف رغم أني لم أقتنِ سوى زجاجات قليلة من

دولونيا الحلاقة . اهتديت لعطر أصابني بغبطة جديدة : (هذا العطر كأنه أغنية) ، ابتسم البائع وهز رأسه موافقًا ، ضمخت ملابسي وعنقي برخات متتالية منه ، وغادرت بعد أن اشتريته وقد ربحت مزاجًا جديدًا رأيت عبره الشوارع تتسع أمام عيني ، ويصبح كل شيء هينًا وجميلاً .

***

حل الليل على (العقبة) ، فنهضت مصابيح الشوارع والبيوت تدحر العتمة ، وانطلقت معزوفات موسيقية تتسلل عبر خليط أصوات العربات والمارة ، ثم لاح البحر لي ، وأضواء السفن والقوارب الصغيرة تحيله إلى قطعة قماش سوداء مرصعة باللآلئ ، عاودني التعب فجلست في مقعد على رصيف يطل على البحر ، كان صوت أم كلثوم وهو يجيء من سيارة تتوقف على طرف الطريق حانيًا يهدهد ما بي من تعب أزلي . سرعان ما غادرني شعوري بالراحة ، وصار الليل أضيق مما يمكن أن يحدث لرجل يتسكع في الساعات الأخيرة من حياته ، داهمني نعاس كنت سأداويه بالاستلقاء على المقعد لولا رؤيتي لشرطي أبعد رجلاً رث الثياب ينام على أحد المقاعد .

– ليس لائقًا برجل يريد أن يستمتع بآخر ساعات حياته أن يبقى كمشردي الشوارع .

استقلّتُ سيارة أجرة ، وطلبت من سائقها أن يقلني إلى أحد فنادق المدينة ، فحدث الذي لم يكن بالحسبان .

٣

إبراهيم
(ساعات أخيرة. بهجات أولى)

قبالة فندق يقع على الشاطئ وقفت دقائق أحدق بما لم أره قبلاً : سيارات فارهة يهبط منها رجال لا يعرف الشقاء دربًا إلى وجوههم ، ونساء منعمات رشيقات القوام محفوفات بعطور تُجفل القلب ، يمشين بدلال تهتز له مؤخراتهن ، وأردافهن ، ونهودهن نصف المكشوفة . أيّ عالم جئت إليه يا إبراهيم؟ عالم ليس لك فيه شيء ، وليس له عندك إلا ما لا تدري عنه بحيث تنتفخ جيوبهم ، ويتسع ثقب جيبك الذي لا يعرف إلا يدك عندما تفر من البرد ، أو السأم وأنت تمشي في زحام وسط البلد ، منهيًا يومًا تجني فيه قليلاً من الدنانير من وراء قرّاء ما يزالون يبحثون في الكتب عن الحقيقة . أيّ عالم هذا الذي يعري بقسوة جهلك بما حولك ، ويثير بك رغبة بالبكاء على ما فات من عمرك ، تمامًا كأنك نمت زمنًا واستفقت تنظر حولك بدهشة موجعة . قلت ذلك حين دخلت بتردد واضح كاد يجعلني أغادر من حيث أتيت ، وأمضي ليلتي مستلقيًا على أحد مقاعد الكورنيش ، أو على رمال الشاطئ . لكنّ ارتباكًا مسيطرًا أخذني إلى باب دوّار أفضى بي إلى صالة عريضة فاخرة ، وقفت في منتصفها مستسلمًا أدور حولي ببطء ، أستطلع تفاصيل جديدة . مشيت نحو موظف استقبلني بابتسامة تجارية ، طلبت بتلعثم غرفة لليلة واحدة تطل على البحر ،

منش في شاشة الحاسوب ، ثم ابتسم : (لحسن حظك هناك غرفة واحدة) ، هل طلبتُ ذلك لأرى أي مثوى سيلفني فيأخذ معه عمرًا لم يجزه شيء ، ويخرجه من كل تلك الرتابة الموجعة؟ أم أنني كنت أنصاع لصوت شجرة ظلت تقاسي العطشَ طوال كل تلك السنين؟ دون الموظف معلوماتي في الحاسوب :

- هل أنت في سياحة هنا أم عمل؟

ماذا لو أخبرته بالحقيقة وأني اخترت الماء قبرًا لي ، حيث الأسماك ، والمرجان ، وأعشاب البحر ، والرمال اللينة في قاعه! قلت له وعيناي تستطلعان المكان بلهفة الأطفال واستغرابهم :

- عمل لن يستغرق مني الكثير من الوقت .

كان هواء المكيف باردًا يطرد حرارة تلك المدينة الساحلية ، ويجيء خليط من روائح عطور رجالية ونسائية تسبقها ضحكات وشهقات غير مألوفة . قدم لي موظف الاستقبال بطاقة إلكترونية لغرفتي :

- نتمنى لك إقامة طيبة أستاذ إبراهيم .

كانت كلماته تتردد في مسمعي والمصعد يرتقي بي إلى الأعلى : (أستاذ إبراهيم) ، وبقيت ترافقني حين عبرت ممرًا مفروشًا بالسجاد وبالسكون إلى أن وصلت غرفتي التي ما إن دخلتها حتى أسرعت إلى النافذة وأشرعتها . كان البحر مظلمًا لا يدل عليه شيء سوى صوت أمواجه المخيفة تركض نحو اليابسة ، كأن العتمة في سجن قصيّ وجاءت بها سفينة الليل تفرغ حمولتها البغيضة ، أغلقت النافذة وألقيت ببدني على السرير أتأمل الغرفة وموجوداتها ، عالم جديد لا يشبه ذاك الذي نشأت فيه ، هدوء يمنحك سكينة فريدة : بألوانه ، بملمس أشيائه ، حتى بالهمس القادم من الممرات قبل أن تفتح الأبواب

ثم توصد ، همسات وضحكات خلقت بي رغبة لاحتضان امرأة ثم الذوبان فيها ، لكنّ وحشة البحر تسللت إلي وأثارت بي حزنًا وخوفًا مبهمًا يأتي على شكل نوبات مفاجئة طالما عانيتها وهربت منها التقطت (ريموت كونترول) وضغطت على زر التشغيل فيه ؛ فأضيئت شاشة تلفاز عريضة رحت أتنقل بين محطاتها : منها ما وجدتها تبث أخبارًا تبعث على السأم ، وأخرى تعرض مسلسلات مملة ، أقفلته وعدت أتأمل السكون . تراجع التعب الذي اقتادني إلى ذلك الفندق ، وناب عنه شعور يشبه الإحساس بالخطيئة مما أنا قادم لأجله ، ليتني بقيت أتسكع في الشوارع وما رأيت كيف يعيش هؤلاء ؛ عندها سأمضي إلى حتفي غير آسف على أي شيء .

(أهرب) ، قلت ذلك بسري ، وألقيت بي في حوض استحمام ملأته بالماء الدافئ ، أسعى إلى استرخاء يقودني للنوم ؛ لئلا أفكر بشيء ، إذ وجب علي أن أفرغ رأسي من أي أمر يعكر صفو ليلة قررت أن أعيشها كما لم أفعل من قبل . كانت غرفة الحمام فاخرة ومؤثثة بما لم ينله واحد مثلي في زمن الطفولة رأى الاستحمام عقوبة ؛ جراء خشونة الليفة والجلد يحمرّ وأمي تدعكه بقسوة قروية مفرطة ، تجلس على كرسي خشبي هابط ، وبقربها بابور كاز يعتليه سطل معدني ، تغرف منه الماء وتدلقه على رأسي وأنا أتفلت منها ، متألمًا من حرقة الصابون النابلسي في عيني ، ومما خلفته الليفة في جلدي .

بقيت نصف ساعة أستسلم لدفء الماء ، ثم خرجت واستلقيت في السرير ، ولم يأت النوم ، أخذ الشعور بالملل ، والسأم ، وبالخطيئة يفتك بي ؛ إذ تخوفت من صحو ذلك الكائن وهو على مقربة مني ؛ ليستغل وحدتي ، ويضيف صوتُه البشع مرارةً جديدة لآخر ساعاتي . التقطت

ـُنبًا يشرح ما يقدمه الفندق من خدمات ، فوجدت أن ثمة ناديًا للرقص والغناء يتبع له ، تأملت صورته فجاءني الصوت مُفاجئًا كأنه كامن بها :

- حتى القطارات تخرج عن سككها .

تراجعت وضحكته تحوم في الغرفة ، فارتديت ملابسي وغادرت مسرعًا ، اقتادتني ثلاثة أبواب إلى ناد استفحلت به كثير من أشكال الإضاءات ، وخيل لي وأنا أقف ببابه أن صوت الموسيقى الصاخبة يحرك الجدران من مستقرها ، بينما حلبة الرقص ملأى بالرجال والنساء اللواتي يتمايلن مع الموسيقى بولَهٍ وخَدَر ، والأضواء الملونة تسقط على الأجساد بحركات عشوائية مثيرة . جلس إلى الطاولات رجال ونساء وفتيات وشباب ، أمامهم أطباق من الطعام ، وزجاجات خمر تقدمها فتيات يلبسن قمصانًا تغطي جزءًا يسيرًا من أثدائهن اللبنة ، وتنانير ضيقة تغطي فقط ما تحت السرة بقليل . انتبذتُ طاولة ، وجلستُ إليها مرتبكًا لا أدري ماذا أفعل في ليلة مثل تلك ، أتت النادلة واقتربت مني لتسمعني صوتها الذي حال بيني وبينه ضجيج الموسيقى وجلبة مرتادي النادي ، واستفسرتْ عما أريد من طعام وشراب . كان لشعرها رائحة ليلة صيفية في الجبال ، ولخدها حينما لامس وجهي ملمس ثوب أول عروس رأيتها في القرية ، طلبتُ مما عرضته علي وجبة خفيفة من اللحم المسلوق مع الخضار ، ورحت أنظر إلى عينيها الماجنتين عندما استفسرت عما أريده من الكحول . فكرت بسري : (ولم لا؟ فلتكن ليلة صاخبة) . تذكرت لحظتها مشهدًا للدكتور (فالنتيني) في رواية (وداعًا للسلاح) لهمنجواي يتفقد قدم الملازم فريدريك هنري ، ويتغزل بمحبوبته كاترين باركلي ، ويَعِدها بزجاجة ويسكي فاخر ، قرأت الرواية تحت تأثير مزاج موغل بالكآبة ؛ إذ

دفع أبي معظم مرتبه الشهري أجرة للبيت ، وما تبقى إلا القليل لنعيش . في ذلك اليوم لم يكن هناك إلا القليل من الزبائن الذين اكتفوا بإلقاء نظرة على الكتب وغادروا ، كنت ألف وشاحًا على رقبتي لعله يقيني من برد أربعينية ذلك العام ، وأضع موقدة صغيرة قرب قدمي لأحميهما من سكاكين الهواء وقد تدفق إليَّ عبر ثقوب الكشك . ثمة سائحة أجنبية توقفت قرب كتب قديمة بالإنجليزية وراحت تتصفح إحداها . لها عينان زرقاوان وشعر أشقر غطت جزءاً منه بقبعة حمراء . بدت لي تشبه كاترين باركلي ، لها المزاج الأنثوي الحاني ذاته ، وقامة السمكة ذاتها ، طويتُ الصفحة وأخذتُ أتأمل ملامحها ، وأنصاع إلى حلم يقظة كاد أن يجعلني أخرج وأحتضنها لسبب لا علاقة له لا بالفقر الذي راح يجرنا أيامها إلى حقول شائكة ، ولا بحاجتي لامرأة أضاجعها كما يرغب أي شاب في عنفوان طاقته ؛ بل كان سببًا غامضًا يشبه لحظة الاستسلام للانكسار الكلي على كتف امرأة جميلة ، تعي ما معنى أن يتداعى رجل بكل ذلك السخاء الحزين . لكنها ألقت علي ابتسامة وغادرت . قلت بصوت عالٍ ليصل للنادلة بين كل ذلك الضجيج الذي غمر المكان :

- ويسكي ، أريد زجاجة ويسكي .

استعدت أسلوبي الذي اجتهدت فيه ؛ لأبدو رجلاً اعتاد الخمر وعاقره سنين فضحكتُ ، ثم في لحظة لا أدري سرها تحولتُ إلى (فريديرك هنري) واستحال كل شيء أمامي إلى زمن الحرب العالمية الأولى ، رأيت الصالة تعج بجنود يرتدون بزاتهم العسكرية ، يراقصون حبيباتهم على أنغام موسيقى ذلك الزمن قبل ذهابهم إلى الحرب . عادت النادلة تحمل أطباق الطعام وزجاجة الويسكي ، وضعتها أمامي ،

والتقطت مكعبات ثلج وألقت بها في الكأس ، وسكبت عليها قليلاً من الويسكي ، رحبتْ بي ثم غادرتْ . قرَّبتُ الكأس من فمي ولم استسغ رائحته ، لكني شربت جرعة منه فانهالت في جوفي حارقة . تناولت شيئًا من الطعام ، وأتبعتها بجرعة ثانية ، وتوالت الجرعات إلى أن نقبلته ، وبتّ أحس بأجنحة تدفعني للتحليق ، والغناء ، والرقص . كانت رائحة الأجساد وعبق العطور تلفني من كل جهة عندما رحت اهتز مع دفقات الموسيقى ، إلى أن وجدتني بين الراقصين أفتعل حركات لا إرادية ، وأدور حول نفسي كصوفي مصاب باللذة . توقف الجنود وحبيباتهم عن الرقص ، والتفوا حولي وأنا أدور ، وأدور ، وأدور ، وبي لذة جديدة ، مرّة واحدة انفجر صوت المجهول :

– عليك أن تصحو ؛ أنت لست فريدرك هنري يتجهز للذهاب إلى الجبهة ؛ أنت إبراهيم الوراق ابن الخسارات المتتالية .

أقعيت على الأرض أنظر كيف يتحرك كل شيء حولي ، كدت أراه ؛ إذ إن له وجهًا ضبابيًا وهيئة غير ثابتة ، فصرخت به وهو يتنقل من جهة إلى أخرى كشبح لا فكاك منه :

– ما هي إلا ساعات قليلة وأتخلص من ملازمتك لي .

جاءت ضحكته ماجنة ومستهزئة :

– الذين كونوا هذه الدائرة يصفقون للمهرج الفاشل فيك ، ويحتفون بتسلية عابرة تكسر رتابتهم ، توقّفْ عما تفعله ، تبدو مثل قرد يتقافز في حفرة مليئة بالجمر قبالة أناس ينفقون ما تحتاج من سنين لتجمعه .

تناقص عدد الأيدي التي كانت تصفق لي ، فنهضت ورحت أرقص مدفوعًا بعناد كبير بعد أن صرخت به :

- فكرتك مشوهة عن كل شيء ، هؤلاء أناس يعيشون الحياة كما ينبغي لها أن تعاش .

- أتعرف من هؤلاء؟ انظر إليهم ، ليسوا من طينتك ، ولن يبدوا أي تعاطف مع من هم على شاكلتك أيها الأبله .

حدقتُ بالوجوه والأضواء الملونة تسقط عليها ثم تنحدر إلى الأرض مكونة مزيجًا فنتازيًا ، أمسك برقبتي وهزني بقسوة :

- هيا قم وابحث عن قواطع الكهرباء وأغلقها ، ثم اعبر إلى الداخل ، واحمل أسطوانة الغاز وأشعلها ، وأتبعها بأخرى ، فتُفَجّر المكان .

عدت إلى الطاولة خائر القوى كورقة تركلها ريح مجنونة ، ورحت أدلق في جوفي كأسًا أتبعه بآخر ، لعل ذلك الصوت يختفي ، لكن لا فائدة ، فقد تبخر أثر كل تلك الكؤوس كأني لم أشرب شيئًا . دفعت ثمن تلك الليلة وغادرت عائدًا إلى غرفتي والصوت يلاحقني أينما يممت وجهي : في الحمام ، في الشرفة ، في السرير ، ثم اختفى . غمرت رأسي بالغطاء أُمَنّي نفسي بالنوم استعجالاً للصباح ، لكن طيوره لم تحلق في سمائي ، فرحت أحدق بالسقف من جديد ؛ إذ استحال إلى سارد بذاكرة قوية جاء لي بكل الذكريات . رأيت أمي ، وأبي ، وأخي عاهد ، استعدتُ كتبًا ، وشخصيات روايات أمضيت أيامًا وليالي أتتبع خطاها في ورق محشو بذاكرتي ، صرت أتمنى لو ألقي بعود ثقاب إليه فيشتعل ، تذكرتُ كل أخبار الصحف ، ومشاهد رأيتها على شاشة التلفاز ، تذكرت كم كنت بليدًا لا لون لي! وأني سأغادر هذه الحياة بلا أثر يدل علي! كم هو قاس أن تكتشف على نحو مفاجئ أن حياتك صنيعة الآخرين ، وأنك لم تكن إلا مستجيبًا لما يرونه الصواب!

***

أطلَّ الضياء يبدد عتمة تلك الليلة ، لا أصوات تأتي من الخارج عبر صوت آلة تُقلِّمُ العشب في مساحات انتشرت حول الفندق ، ما إن نهضت حتى تفاجأتُ بي في منتصف زوبعة لا أستطيع حتى تحريك يديَّ ، زوبعة يختلط فيها الفرح بالكدر ، وبالخوف من الساعة المقبلة . عدت بخطوات متكاسلة إلى السرير ، وتكورت في منتصفه ، أهرب من مصير أذهب إليه بمحض إرادتي ، ثم رحت أراقب السماء الزرقاء الصافية ، مكثتُ دقائق ثم دخلت الحمام ، ورشقت بدني بالماء البارد ، استخدمتُ غلاية كهربائية وأعددت كوبًا من القهوة لعله يخلصني من الصداع ، سخرت من نفسي كيف أهتم بشأن ألم سوف ينتهي هو والام كثيرة هذا الصباح . من نافذة الغرفة رأيت البحر يغفو بعد ليلة نقي الليل فيها يحاول أن يسرق لونه الأزرق ففشل كعادته اليومية . عبر الشرفة رأيت ضياء الشمس وقد تهيأت لتجاوز الجبال الشرقية ؛ إذ اقصى شيئًا من العتمة فاتضحت الرمال وبان وجه البحر يذكرني بالمسافة القصيرة بيني وبين النهاية . تساءلت : كيف يمكن لواحد مثلك ، رغم هذا الهدوء الذي يتدفق من كل الجهات ، أن يستمر بالتفكير بالموت؟ أي حرب هذه بينك وبين صوت مجهول رفعْتَ في بدايتها الراية؟ رغم أنك لن تجد من سيقول إنه فعل ذلك ؛ ليجنب نفسه جريمة لن يسامحه عليها أحد .

لا أنكر أني أصبت بالحيرة والتردد حيال ما كنت مقدمًا عليه ، خاصة عندما منحتني الحياة ابتسامة صغيرة منذ أن وصلت تلك المدينة التي غبطتها على مجاورتها للبحر ، وقد اتضحت زرقته أكثر وبدا يميط اللثام عن وجه جديد للحياة . حلمتُ ببيت ، وامرأة ، وعائلة ، غشتني من مخيلتي موسيقى رقيقة رأيت خلالها أيامًا حلوة ، وسمعت

ضحكات، وصيحات ابتهاج، وخطوات جسورة نحو الحياة، لكن جاءني الصوت من جديد يبدد لذة تمنيت لو طالت أكثر :

- لا يغرنك ما أنت فيه، أنت تعيش حالة مؤقتة ستعود بعدها إلى بؤسك وضعفك، وهذا ما أريده لتقتنع بما أقوله لك .

مشيت نحو طرف الشرفة وقشعريرة تدب بظهري كأنه يتبعني . قال بصوت هادئ :

- الحياة الحقيقية تجيء إثر جسارة في انتزاع ما تريده، من دون أن تأبه بكل ما سيصيب يدك .

- أنت تسن قانونًا يشرِّع القتل، والخراب .

- الخراب لا يزول إلا بمزيد من الخراب .

عدتُ إلى الغرفة أتلفت حولي لعلي أعثر على مصدر الصوت فأقبض على رقبته وأريحني منه، قلتُ وصوته يحاصرني أكثر من ذي قبل :

- لن أستسلم .

رأيت عبر الشرفة جسرًا خشبيًا يمتد من طرف الشاطئ إلى مسافة في الماء، فوجدته مكانًا مناسبًا لألقي بي من هناك، حيث سيكون الماء عميقًا، كعمق الموت الذي سيبقى يمد لسانه بوجه البشر من غير أن يعلموا أسراره . هل يبدو الموت جميلاً حينما نقترفه في أماكن جميلة؟ كلا، الموت موت لكننا نجمله حتى نتقبل النهاية . استسلمتَ لخوف أبيك يا إبراهيم، وصرت نسخة عنه، لم تكن تدري، وأنت تراه معلقًا من رقبته بالحبل الذي ربطه بسقف المطبخ، أن لك مصيرًا يشبه مصيره . كان عليك ليلة أن غادرت القرية أن تحذو حذو (أوسكار ماتزيرات) بطل رواية طبل الصفيح لـ(غونتر غراس) الذي قرر أن لا

يكبر عندما وجد أباه يصنع مستقبله ؛ إذ خطط له أن يصبح بقالاً . حطمتْ صرختـه الزجاج حين أوقف نموه ، قرر أن يبقى طفلاً هكذا ببساطة . لكن الذي حدث أن ألقى والدك بالرواية في الموقدة في ذلك الشتاء ، والمطر في الخارج يزيل عن بيوت جبل الجوفة ما تراكم عليها من غبار ، ورماد عوادم السيارات والمصانع ، ثم أخذ يهزك حينما وجدك تنطوي على نفسك كما كان يفعل ماتزيرات :

– عليك أن تصحو أنت لست ماتزيرات وأنا لست ألفريد .

يومها نمتَ باكرًا ورأيت في منامك ماتزيرات ، شكوت له ضعفك وهو يجلس قبالتك صامتًا . وحين انتهيت من فضفضاتك مسح بيده على رأسك ثم غادر ، ليتك فعلت مثله يا إبراهيم .

خرجتُ بعجالة تلفُّ روحي غمامة سوداء ، ثم اتجهت إلى البحر عبر الممرات المتعرجة في ساحة الفندق ، وقد قادتني إلى الشاطئ في لحظة كان فيها النزلاء يستغرقون بنومهم ، لا أصوات تؤثث المكان سوى أصوات نوارس تحلق في الهواء ، إضافة إلى ذلك الصوت الذي تحدثه جموع أسماك صغيرة تفر من الماء معًا ، وتعود مرة واحدة .

تنازعني إحساسان وأنا أقترب من البحر : واحد مبهج جاء من أمنيتي العتيقة بمشاهدته ، والآخر حزين جراء تناقص ما تبقى لي من وقت في الحياة ، كأن قلبي مشطور إلى نصفين أبيض وأسود . ها أنت يا إبراهيم تُقدم على إنهاء حياتك في ما تحب ، البحر الذي حلمت به ، كنت تغمض عينيْك وحرارة الطقس في وسط البلد تكاد تذيب كل شيء ، وتحيل الكشك إلى فرن يشوي جسدك النحيل ، تتخيل البحر فترى زرقته الأسرة ، وتحس بنسيمه يلفح روحك المتعبة . ترى امرأة تلقي بجسدها العاجي فيه ، ثم تخرج وطبقة الماء تلمع على

جلدها الأملس ، فتهرع إليه وتقفز فيه ، يغور جسدك في الماء وبرودته تثير بك صرخات بهجة ، ما إن ينبثق رأسك من صفحة الماء حتى تطلقها منتشيًا . ثم تصحو على صوت زبون يريد كتابًا ، فتُحكم الحرارة قبضتها عليك أكثر من ذي قبل .

لم يدر بخلدي أني سأجد امرأة تقف على طرف الجسر الذي قصدته ، بدت لي مستغرقة إلى حَدٍّ جعلني أخفف من وقع خطواتي على الرمال إلى أن وصلت الشاطئ ، واستلقيت مصابًا بتعب ليلة لم أنم خلالها ، وبمشاعر غريبة كانت تفتك بي ، قلت لا بأس من أن أنتظر . لكن كيف يمكن لواحد قرر الذهاب إلى الموت أن ينتظر؟ كنت أريد موتًا سريًا لا يراني أحد أقرع بابه بتوسل ، تمامًا مثل ولد يطرق بابًا ويلتفت وراءه بذهول وخوف من ذئب يطارده . يجب على لحظة الموت أن تجيء غامضة مثل نهايات بعض الروايات العالقة بالذاكرة ، فتضيف سرًّا جديدًا لأسرار هذه الحياة .

رحت أراقب البحر كيف يجسد أكبر فكرة عن الصمت ، كانت المرأة ما تزال ساهمة ؛ لا يتحرك منها سوى شعرها البني ، وقد تناثر على كتفيها مستسلمًا لدفقات هواء خفيفة انطلقت للتو ، ترتدي (بروتيل) أزرق سماويًا ، وتنورة بيضاء تهتز أمام الريح في شاطئ خلا إلا مني ومنها ، أشحتُ بصري عنها ، واستلقيتُ على الرمال معبئًا رئتي بالهواء متلذذًا باللحظة ، وكأننا لا نستسيغ طعم الأشياء التي نعتادها ، ولا نحس بجدواها إلا حينما ندرك أننا سنتركها إلى غير عودة .

تراءت لي السماء صافية يروح فيها البصر إلى حدود اللانهاية . تأملت امتدادها الفسيح ، وكيف تلتصق بنهاية البحر ، ومرة أخرى رأيتها سوداء فيها طيور مخيفة ، ويجيء منها صفير ريح ينم عن حزن

وغضب شديدين . سعلت ولم أنتبه إلى ضرورة كتمان صوتي الذي وجدته قد بدد عزلة تلك المرأة حينما التفتت إلي ، رفعتُ يدي أومئ لها معتذرًا ، وجهتْ لي نظرة خاطفة ، وعادتْ إلى شرودها فاكتسحتني سكينة مباغتة ، أسندتُ رأسي بذراعي ، أراقبها كيف تقف ساكنة كأنها تراقب حدثًا يجري في عرض البحر ، خمنت أشياء كثيرة وراء تلك اللحظات الاستثنائية لها ، فوجدت نفسي أغرق بما رأيته كأنني أمام لوحة لامرأة تقلب دفاتر بحارة غامضين ، فتحتُ هاتفي النقال ، والتقطتُ لها صورة لم أفكر أنها سترافق مقتنياتي إلى الماء ، لم يكن سلوكًا لرجل تُوغل الساعة في آخر دقائق عمره . جاء الصوت مهادنًا :

- ربما يتذكر جندي وردة وهو يسمع الرصاص يمر مخطئًا رأسه المليئة باحتمالات الهلاك ، إنه يفعل ذلك مدفوعًا بالأمل .

كان المنظر استثنائيًا لم أقو على تجاهله ؛ إذ تخيلتها حزينة ، شاردة الذهن رغم أني لم أرَ وجهها إلا حينما التفتتْ ، استرخيتُ أكثر ورطوبة الرمال تدغدغ جسدي وأفكر : (تهاجمني هذه المشاعر للمرأة كأنني كنت مصابًا بمرض عضال وشفيت منه) . ووضعت رسغي على عيني ، ثم رحت دقائق أستعيد تفاصيل ذلك المنظر كأني أذهب إلى نهاية مقرونة بلذة مفاجئة . ثمة وقع لخطى على الرمال أخذ يقترب مني شيئًا فشيئًا ، كانت هي ، تحمل بيمناها حذاءها ، وبيسراها ترفع تنورتها الطويلة ، فكشفت عن ساقين بيضاوين قبالة زرقة البحر . عندما اقتربت مني نهضت معتذرًا :

- يبدو أنني بددت عزلتك .

طفقت في وجهها الطفولي الهادئ ملامح من يُفاجأ بشخص ما ، وأخذت عيناها السوداوان وقد ضاقتا قبالة أشعة الشمس تحدقان بي ،

وتتفحصانني . افتعلتْ ابتسامة لم تخفي تفاجُأها بي ، وقالت وهي تنظر جانبًا تداري إحساسًا ما :

- لا بأس . ربما أنا من بدد عزلتك ، لا يأتي إلى البحر في هذه الأوقات سوى من يفتش عن نفسه ، أو . . .

لكنها لم تكمل ، بدت عبارتها مبتورة . بحثت في وجهها عن سر ارتباكها ونظرتها الغريبة إلي ولم أجد :

- يمكنك أن تجلسي .

لـمّت تنورتها ، ثم جلست ساحبة قدميها إلى الأمام :

- يبدو أنني نسيت ولاعتي . هل أجد معك واحدة؟

- المعذرة أنا لا أدخن .

- لا بأس .

نظرتْ صوب صياد عاد للتو من البحر ، مستسلمة لسهوها رغم جلوسها مع رجل تقابله للمرة الأولى ، كان حجم الحزن الذي في وجهها أكبر من أي اكتراث بشيء ، فقلت أبدد الصمت :

- يبدو أننا نأتي إلى البحر ؛ لأنه كاتم الأسرار ، فلا نرى منه سوى وجهه المائي ، بينما في أعماقه هنالك كثير من الحكايات التي لا يعرفها سوى من يركب موجة المغامرة .

صوّبت نحوي نظرة غريبة لم أفهمها :

- كنت أعمل ورّاقًا في وسط البلد في عمان .

قلت ذلك أُعَرِّف بنفسي ، لكنها لم تبدِ أي اهتمام بما سمعت ، عادت تنظر إلى البحر بعينين حزينتين مستسلمتين لشيء بعيد بدا لي يتعب ذاكرتها ؛ إذ رأيتها وعيناها ما تزالان على البحر تبتسمان ، كأنها هزمت أمام ذكرى قريبة ، ثم وجدتها تعود إلى ملامحها الحزينة مثل

شخص يصحو من حلم يقظة . لم يقلقني ما طفق بيننا من صمت بل
أخذني إلى متعة اكتشاف جانب أكثر جمالاً في وجه الحياة ، كنت
أحدق بها وهي غارقة بشرودها ، لها وجه طفلة ، وعينا امرأة قادرة على
أن تزيل بؤسي العتيق ، وفم يمكن أن يشيع الدفء بقبلة مفاجئة ،
نسيت كل شيء وعيناي مصوبتان نحوها ، نسيت نفسي كقميص
معلق على حبل غسيل أمام امرأة تستعيد ذكرى ليلة جميلة .

- كنت أهبط إلى وسط البلد مشيًا على الأقدام .

قالت بصوتٍ متراخ ثم نظرت إلي وعلى فمها ابتسامة مباغتة ،
تأملتني كمن يتأمل عائدًا من سفر طويل ، ثم أرخت ذقنها على
ركبتيها وعادت تنظر إلى البحر :

- ربما نأتي إلى البحر ؛ لنسترد وجهنا الذي سرق .

كنتُ سأقول إني أكتفي بما تركه السارق من وجهك ، أكتفي
بهاتين اليدين لتدملا الجرح ، ثم تأخذاني بعيدًا عما بي من بؤس ،
أنفيأ كل أوجاعي ، وحين أفرغ نواصل المشي نحو مقصدنا ، كانت
حزينة بالقدر الذي وددت لو أطوق عنقها بذراعي ، وأبكي بمعيتها
وأنكسر ، الانكسار في حضرة المرأة اعتراف يخفي شروخ القلب ،
فالأنثى سماء فسيحة ، والسماء أنثى شاسعة ، لكن كيف يمكن لحزن
امرأة أن يقود رجلاً حزينًا إليها بكل تلك السرعة!

ثمة خصلات من شعرها رفعتها الريح كاشفة عن عنق طويلة ،
طوقتها سلسلة ذهبية حملت حرف (N) .

-رغم أن البحر محطة للرحيل أكثر مما هو محطة للإياب ، إلا أننا
نلوذ به في لحظات انكسارنا .

قلت ذلك ثم أخذت أفكر بملايين الاحتمالات من أسماء يمكن

أن يتصدرها هذا الحرف ، نار ربما ، وربما ناي . أغمضت عيني أنصت لصوت ناي باغتني ، وراح يقود نحوي قطيع أيائل برية ، وقفتْ قبالتي تنظر إلي بعيون هادئة كأنها تحمل بشارة منتظرة .

التفتتْ إليَّ :

- لماذا التقطت لي صورة؟

اجتاح بدني تيار عارم من الخجل أعاقني عن الإجابة ، واكتسحتْ وجهها بدايات ضحكة عفوية أماطت اللثام عن غمازتين جميلتين :

- كيف عرفتِ؟

- سمعت صوت هاتفك حينما فعلت ذلك ، أقتني واحدًا من النوع نفسه .

فتحت هاتفي لأحذف الصورة . لكن يدها امتدت إلى يدي تثنيني عن فعل ذلك :

- اتركها ، فقط أردت أن أعرف السبب .

كانت يدها دافئة ، ناعمة ، موحية ، كقصيدة تصف حديقة بنوافير ماء ، وورود ، وعصافير كثيرة .

- استثنائية المنظر هي من جعلتني أفعل ذلك .

تساءلت ساخرة بأسى :

- استثنائية؟

- نعم ، خاصة حينما يلوح الحزن من امرأة جميلة تقف قبالة البحر في لحظات كهذه .

وضعت يديها على رمال الشاطئ تسند جسدها ، ثم أطلقت تنهيدة طويلة ، وعضت شفتيها بأسنانها البيضاء اللامعة ، أمالت رأسها نحوي ، وابتسمت :

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ البارحة .

تمنيت لو سألتني عن سبب مجيئي ، كنت سأفتح دفاتري السرية واخبرها بكل شيء ، سأعترف بما لا يعرفه أحد عني . سأستعطفها أن تبقى بقربي ، وأنصت لها لأزيل من قلبها ما جعل في وجهها أسى لم نستطع مداراته ، سأكون كظلها حارسًا وفيًا إلى أن يزهر قلبها بالفرح ، حينها سأطلب منها أن تمكث في تلك المدينة نستأنس بالبحر ، لكنها نهضتْ بعجالة كأنها تعاقب نفسها على وقت لم يكن من اللائق أن تمضيه معي ، وجهت إلي نظرة غريبة ثم ابتسمت تحاول أن تداري شيئًا ما ، وسرًا كادت تنطق به ، صافحتني وعيناها تروحان يمينًا وشمالاً ، وقالت بصوت تداري فيه رغبة بالبكاء :

- علي أن أغادر الآن . انتبه لنفسك .

مضت في طريقها حاملة بيمناها حذاءها ، وبيسراها ترفع تنورتها . ناديتها :

- ما اسمك؟

التفتت إلي ومنحتني ابتسامة أخرى ، بينما علا صوت النوارس ، وصوت ارتطام جموع الأسماك بالماء :

- ليس مهمًا ، صدقني ليس مهمًا .

بقيتُ أراقبها ، إلى أن عبرت البوابة الزجاجية للفندق ، وما عدت أرى شيئًا يتحرك سوى أشجار النخيل تهتز كامرأة تتمايل بهدوء أمام تدفق موسيقي آسر ، بينما كلماتها ترن في مسمعي توصيني بنفسي . راودتني مشاعر تثنيني عن فكرة الانتحار لكن الصوت أطلق ضحكة صاخبة وتهديدًا كبيرًا جعلني أسرع من خطواتي إلى حتفي المنتظر .

٤

إبراهيم
(صدفة يصعب نسيانها)

مشيت نحو الجسر بخطوات ثقيلة ، ومن داخلي يأتي صوت عال لنقرات ساعة تشير إلى لحظة نهاية قادمة ، وفي كل خطوة منها تطل ذاكرتي على جانب من عمري ، ومع كل تكة لتكات الساعة يجفل قلبي حزنًا على كل ما لم أفعله ، إلى أن وصلت حافة الجسر حيث كانت تقف تلك السيدة . كان البحر أمامي كأمّ بوجه حزين تثنيني عن فعلتي ، أغمضتُ عيني واستنشقت آخر نفس من الهواء قبل أن ألقي بي إلى الماء ، أحمل بيدي هاتفي الذي احتفظت فيه بصورة اجتمعت فيها عائلتي ، وفي رسغي ساعة والدي التي كانت عقاربها ستبقى تدور وجسدي يغور شيئًا فشيئًا في الماء . رأيت أن عليّ تركها ورائي هي وهاتفي كأثر وحيد ، فخلعتُها ، وانحنيتُ إلى أرضية الجسر الخشبية ؛ لأضعها هناك . رأيتُ دفترًا سميكًا يتوسطه قلم وورقة مثنية في داخله . سمعت صوت المجهول يكركر ساخرًا مني ، جلستُ وفتحتُ الدفتر وأمسكتُ بالورقة أقرأ ما فيها :

(ها أنتم الآن تقرؤون ورقتي هذه ، بينما جسدي قد ابتلعه البحر حيث السكينة الأبدية . أنا منحازة لأسماك الأعماق ، عند انكسار الضوء وارتطامه بالرمال الطرية . لا أحب ديدان الأرض ، حيث الظلمة والرطوبة تهب وجعًا إضافيا للموت ؛ لهذا منحت جسدي للماء سر

الإنصات الأبدي ، والحضن الذي لا تغلق ذراعاه . لم أكتب وصيتي ، فليس هناك من وصايا للذين خذلوا في حياتهم ، سوى أن يتمنوا أن يبادر أحد ليدوزن الوتر النشاز ، وليس لي وصايا لأقولها ، فأنا محض ريشة دوري علقت في هواء لم يسكن ولو لحظة واحدة ، حينها كان يمكنني أن أحط على شجرة وأشاهد كيف تنضج حبة كمثرى على صدر أمها ، أو أحط على كتف رجل ذاهب للقاء امرأة قطع عهدًا على قلبه أن يحبها كما يحب الطائر جناحيه ، بينما يخفق مارًا فوق شارع يكابد عابروه الزحام . أنا محض امرأة ، خُذِلَت في حياتها ، وجاءت إلى الماء تفكر بالاعتزال كما يعتزل عازف شهير في أوج نبوغه لخلل يستشعره قادم لا محالة لأصابعه ، لا وصايا لي سوى هذه الكلمات ، فاحرقوا هذه الورقة ، وانثروها هنا لعلها تصير شاهدة جوالة ، تشير إليّ) .

ارتخيت في مكاني وامتثلت لرغبة عارمة بالبكاء ، وانصعت لحنين جارف للحياة ، بينما الورقة في يدي تهتز جراء ريح تدفع أمواجًا صغيرة ، والشمس تطل من وراء جبال تنتصب في الأفق كظهور كُهُول يفتشون عن شيء ما في التراب . (إذن أتت هذه المرأة إلى البحر لتنهي حياتها ، وما فعلت) . قلت ذلك ، والتقطت الدفتر ورحت أقرأ :

(بعد أحداث اعتقدت أنها صقلتني توهمت أن بإمكاني قول كلمة (لا) بوجه كل من أراد أن يضعني في مسار لا أريده . قبل التحوّل الذي طرأ على حياتي لم يخطر ببالي أني بحاجة لرفض كثير من الأشياء ، فنحن لا نكتشف نعمة السكون إلا إذا مُنينا بفجيعة الصخب ، ما زلت أنثى بسيطة في كل شيء إلا في أحلام شهدها سقف غرفتي في بيتنا الذي اشتراه أبي قديمًا في (جبل الجوفة) . لي

مع عائلتي التي قضت نحبها في حادث سير مروع على طريق العقبة ذكريات جميلة لا تُنسى ، قبل أن تتبدل الأحوال في بيتنا . فقد كنت ألعب في الحي مع قريناتي ، وأصبحت أخرج في ما بعد للقاء صديقات المدرسة ، وأرافق أمي إلى حفلات الزواج التي تقام في الحي ، أحدّث بنات الجيران من شرفة بيتنا ، وأستمع للأغنيات في غرفتي ، وأشاهد المسلسلات والأفلام على شاشة التلفاز ، وأقرأ كتبًا أستعيرها من مكتبة المدرسة ومن صديقات جعلنني أصبح شغوفة بالقراءة ، وأذهب مع زميلاتي في الرحلات المدرسية . فكرتي عن الحياة مثل فكرة أي بنت من أبناء جلدتنا ، مبنية على معرفة ما هو صائب وما هو خاطئ ، ما هو حلال وما هو حرام ، أصحو عند الفجر أصلي ووالدتي ، بينما شقيقي يصلي بمعية والدي .

نشأت في عائلة مكونة مني ومن أخي إضافة إلى والديَّ ، أمي سيدة لا تقرأ ولا تكتب ، تمضي جزءاً من وقتها بين انشغالات البيت ، ومجالستنا نحن وأبي ، وجزءاً قليلاً من وقتها مع الجارات ، لا تعرف من الحياة سوى ما يعرفه أبي ، وما تعرفه من الجارات ، امرأة مطيعة وهادئة حتى إنَّ ما من أحد سمع لها ذات يوم صوتًا غاضبًا . أما شقيقي رمضان فهو شرس لا يظهر على وجهه الفرح إلا حينما يجد نفسه قد فرض سلطته عليَّ . عمل والدي موظفًا في سلطة المياه ، رجل بسيط في كل شيء ، ترك المدرسة في الصف الرابع الابتدائي ، لا يملك سوى بيتنا المكون من غرفتي نوم ، وصالة ، وغرفة أخرى للضيوف ينام فيها رمضان ، إضافة إلى حمام ومطبخ صغيريِّ المساحة . نحن عائلة فقيرة مثلنا مثل باقي سكان الحي ، نأكل الدجاج مرة كل أسبوع ، واللحم مرة في الشهر وأحيانا كل ثلاثة شهور ، لكن والدي

يحمي لنا الكثير ، إذ ننتظر عودته في المساء حاملاً معه ما استطاع شراءه ، فنجتمع على سفرة طعام متواضعة ، لكننا راضون بما قسم الله لنا . ما إن نفرغ من العشاء حتى أندس في حضنه وهو يتابع نشرة الأخبار ، ويبقى يمسّد رأسي إلى أن أنام . كانت الإغفاءة في حضنه ويده الدافئة على رأسي تساوي لي الشيء الكثير . أما أمي فترتدي نظارتها وتمسك بصنارتين وتنشغل بالحياكة ، وبين الفينة والأخرى تُحدِّث والدي ، وشقيقي إما يتابع التلفاز أو يلهو بهاتفه . بقينا على هذا الحال نعيش حياة رغم شظف العيش إلا أنّ فيها شيئًا من المتعة ، إلى أنْ تبدل حال والدي جراء حادثة في الحي ، فقد افتضح أمر فتاة كانت على علاقة بزميلها في الجامعة ، حيث قام مجهول بتصوير ونشر فيديو للفتاة على الإنترنت تبادل الشاب القبل بين أشجار الجامعة ، تناوله الكثير إلى أن رآه شقيق الفتاة فقام بقتلها ؛ إذ طعنها بسكين وقطع أوصالها وألقاها في الشارع ، وصرخ مناديًا بأنه غسل عاره . كانت جريمة بشعة أثارت الرعب بين الفتيات والخوف من العار بين الرجال ، وبقيت مثل كرة الثلج تكبر والناس يتداولونها ، فسمعنا حكايات وقصصًا كثيرة حول تلك الفتاة . في تلك الأيام تناقل مستخدمو الفيس بوك تسجيلاً صوتيًا للفتاة نفسها تتوسل شقيقها قبل أن يرديها قتيلة ، تسجيلاً مرعب ، تقشعر له الأبدان . من الناس ما قال إنها تستحق على ما فعلته ، ومنهم من وصف أخاها بوحش ليس في قلبه ذرة رحمة . انتشر التسجيل سريعًا ودفع بالكثير إلى الاحتجاج في الشارع على قوانين الأحوال الشخصية ، وعلى ما يتزايد من تغول على المرأة ، وانشغلت وسائل التواصل الاجتماعي بهذا الموضوع ؛ إذ دارت عراكات إلكترونية بين المستخدمين ، منهم من يؤيد ومنهم من يستنكر

ما حدث ، ولا ندري كيف ظهرت حينها تسجيلات جديدة لفتيات أخريات .

كان والدي أيامها منزعجًا مما جرى ، ومما يقال في الحي ، أجده في أحيان يوجه نحوي نظرة متوجسة عندما يراني أتصفح هاتفي ، ثم يشيح بسرعة وجهه عني ، تغيرت طباعه فافتقدتُ الابتسامته البشوشة ، ولمساته الحانية ، وصار مزاجه متوترًا ، ويصمت أمام احتجاج رمضان على ملابسي في البيت التي كان يراها ضيقة تبرز مفاتن جسدي ، ويعترض إن خرجت لأجمع الغسيل عن سطح البيت مكشوفة الشعر ، ويصرخ غاضبًا كلما رآني أنظر في هاتفي .

ذات يوم عاد أبي وعلى وجهه علامات تجهم واضحة ؛ إذ كنا نتابع مسلسلاً رومنسيًا في صالة الجلوس ، كان ذلك بعد صلاة العشاء ، خلع حذاءه وجلس مسندًا بدنه للحائط ، والتفت إلى أمي :

- هل صليتم؟

قالت وهي تتابع مشهدًا مشوقًا في المسلسل :

- بعد قليل سنصلي .

ارتفعت حدة صوته :

- هذا لا يجوز ، لا يجوز .

- نعم لا يجوز .

قالت أمي ذلك ونهضت تهلل وتبسمل متوجهة للوضوء . تبعتها أنوي الصلاة ، لكن والدي أزال أسلاك التلفاز وحمله ثم ألقاه عبر نافذة البيت وشتم صانعه ، بينما تقاذف الزقاق صدى صوت ارتطامه بالأرض . التقط الراديو الذي اعتادت أمي أن تستمع عبره لأغنيات فيروز ، وهشمه بمطرقة إلى أن تحول إلى فتات صغيرة . مشيتُ نحوه وقد

حنا على ركبتيه ممسكًا بالمطرقة ، وأنا تحت تأثير الصدمة بما أرى :

- لماذا فعلت كل ذلك يا أبي؟

-نظر إلي بعينين محمرتين ؛ لفرط الغضب :

- هذه أشياء أفسدت أخلاق الناس .

- ومن قال هذا؟

- كان مغشيًا على عيني .

قال ذلك ثم أخذ هاتفي مني وهشمه :

- هذه إحدى المصائب التي لا نعرف كيف جاءتنا . لا نريده ، لا نريده .

مشى إلى الطاولة وحمل كتبًا كنت أستمتع بقراءتها ومزقها . امسكت بكتبي أحاول أن أمنعه ، لكنه دفع بي ، فسقطتُ أرضًا . وقف قبالتنا يلهث ونحن نقع تحت سياط الصدمة ، وراح يملي علينا وصاياه :

(منذ اليوم ، لا أغنيات ، لا موسيقى ، لا مسلسلات ، لا كتب . منذ اليوم عليكن أن تبدلن نمط ملابسكن ، وتلزمن البيت) . صمت قليلاً ووجه عينيه نحوي وقال بصوت لاهث : (لا ذهاب إلى المدرسة) .

لم يكن أبي ذلك الرجل الذي رأيته ينقلب على كل شيء . مع الأيام أسرتني العزلة والصمت ، أما أمي وشقيقي رمضان سرعان ما تكيّفا مع حالنا الجديد ، وبت أمام رمضان لا أقوى على أن أرفع من حدة صوتي ، فقد كان يراقب تحركاتي طيلة وجوده في البيت ، حتى إنّه ذات يوم وبخني على مضيي وقتًا طويلاً في الاستحمام . ذات ليلة كنت أقرأ رواية هرّبَتْها لي بنت الجيران في رغيف من الخبز -هل لكم أن تتخيلوا أمرًا مثل هذا؟- وإذا بقرع شديد على الباب ، حين أشرعته

اندفع رمضان نحوي ومزّق الكتاب وانهال عليّ ضربًا . انقلاب مفاجئ حول البيت إلى سجن ، فما عدت أرى صديقاتي ، ولا أقف في شرفة بيتنا ، ولا أقرأ ، ولا أستخدم الهاتف ، ولا أشاهد التلفاز ، بت أشعر أنني معتقلة تنتظر وقت تنفيذ حكم الإعدام . أمام كل ذلك العناء ما كان أمامي إلا أن أكتب في دفتر كل ما أحس به ، أمضي كل ما يتاح لي من وقت في الليل ، أكتب بهذيان ونهم وعيني على الباب لئلا يدخل أحد ويراني ، فقد منعت من إغلاق الباب إلى أن حدثت الفاجعة ورحلت عائلتي بأكملها . كانوا قد ذهبوا إلى العقبة يرافقون والدي ليشارك في حفل زفاف أحد أقاربنا ، لا أدري في ذلك اليوم كيف وافق والدي أن أبقى في البيت وحدي ، غضب رمضان كثيرًا وأصر على أن أرافقهم لكن والدي أسكته واحتضنني ، ثم همس بأذني :

- انتبهي لنفسك يا ابنتي .

لم أكن أدري أنها المرة الأخيرة التي سأراه بها . بعد مغادرتهم بساعات سمعت ضربًا على الباب ترافقه جلبة غير عادية ، حينما فتحته رأيت الجارات يبكين وهن يحتضنني ، كان سائق الحافلة قد استسلم للنوم أثناء القيادة فانحرفت الحافلة نحو الجهة الأخرى من الشارع ؛ إذ ارتطمت بها شاحنة كانت تسير بسرعة قصوى . مات معظم مَنْ في الحافلة فواجهت ما لم يخطر ببالي ذات يوم) .

٥

إبراهيم
(مقدمات لحكاية لم تحدث بعد)

عندما أغلقت الدفتر كانت الشمس قد تجاوزت الجبال وارتطمت أشعتها بالبحر ، وعيناي تركضان نحو امتداده الطويل فيلتصق بالأفق الأزرق ، والنوارس فيه تؤدي تمارينها اليومية ، ألقيتُ بدني على خشب الجسر فهجمت زرقة السماء عليَّ كأنها ستحمم روحي من أسى مبيق ، أدركت حينها أن اللحظة التي تقع بين الموت والحياة مثل شعرة ملتصق بسطح العين ، ما إنْ تزول حتى تتضح الرؤية ، وأنّ ثمة أحداثًا مباغتة تبدل وجهات اعتقدنا أنها نهائية لا عودة عنها .

مَنْ أنت أيتها المرأة؟ قلت ذلك وملت برأسي نحو الفندق ، أتأمل نوافذ غرفه المغلقة ، أغمضتُ عيني وتخيلتها تشاهدني عبر شقي ستائر إحدى النوافذ ، يبدو أن المتشابهين في الحزن وفي المصائر يعرفون بعضهم جيدًا . نهضتُ وحملتُ ما كنت قد تركته من حاجيات لي على طرف الجسر ، وغادرت أضع الدفتر تحت إبطي ، وفيه صوت توارى بين كلماته التي كتبت بخط متهمل لا يدل إلا على هدوء في كتابة الحزن ، صوت جعلني أستسلم إلى نوع من البكاء تمنيته طوال عمري في حضن والدي . كان الرمل ما يزال يحتفظ بشكل خطواتها القريبة من بعضها ، خطوات هادئة متمهلة لا تشير إلى عاصفة الأسى التي رأيتها في سماء دفتر جعلني أتراجع عن الذهاب إلى الموت .

انتفختْ بطني ، وعاد الصوت يضحك ساخرًا مني ومن تراجعي عن تنفيذ ما أتيت لأجله ، لكن صوت تلك المرأة كان يعلو عليه ، N أيّ اسم يبتدئ به هذا الحرف ، وإلى أي مصير سوف يلقي بي .

عدت إلى غرفتي أتنقل ما بين السرير والكنبة كقط سجين ، أفكر بطريق إلى امرأة حالت بيني وبين مصير غريب ، امرأة هي الأخرى كانت ذاهبة لتنهي حياتها ثم تراجعت ، هناك أسباب كثيرة تدفعنا للإقدام على الموت ، وهناك سبب واحد يعيدنا إلى الحياة .

عند حلول الظهيرة ذهبت إلى مطعم الفندق ، اخترت طعامًا وتناولته ثم رحت أتلفت حولي إلى الطاولات ، وإلى كل من يدخلون المطعم ويخرجون منه . لم أكن أعي أن البعض قد استغرب نظراتي المتفحصة المتوسلة إلا عندما ابتسمت لي امرأة لاحظت كيف أميل برأسي يمينًا وشمالاً ؛ لأرى وجه امرأة أخرى تجلس قبالتها ، كانت لها قصة الشعر ذاتها للسيدة نون ؛ نعم السيدة نون هذا ما كنت أمتلكه من اسم لها قبل أن تكبر كرة الحكاية ويحدث ما حدث .

نهضتُ وتجولت في أرجاء المطعم أتفحص كل الوجوه ، ولم أجدها ، فعدت إلى الغرفة يهاجمني نوع جديد من الهزيمة ، وإلحاح قوي على أن أجد السيدة نون من جديد . استلقيت في سريري لا أقوى على تجاهل ذلك الإلحاح أو حتى أنام أو أذهب لأقوم بما أتيت لأجله . كان البحر عبر نافذة غرفتي ماثلاً بكل جبروته الأزرق حينما وجدتُ بطني تنتفخ من جديد . قبل أن يأتيني ذلك الصوت تذكرت خشيته من الماء ، فخلعت ملابسي بعجالة وهرعت إلى الحمام ، ما أبشع أن يرى رجل بطنه كبطن امرأة على وشك الولادة! وما أقسى استحالة أن لا يصدقك أحد لو تجرأت ورويت له ما يحدث! وقفت

تحت زخات الماء مغمضًا عيني ، لم أسمع وقتها إلا صوت السيدة نون يجيء من ذاكرتي تتحدث عن البحر ، ولم أرَ إلا عينيها والهواء يطيّر خصلات شعرها ، ثم يعيدها إلى حيث كانت تميل عند طرفي حاجبها وتلتف عند فمها ، الذي بدا لي وهي تنظر نحو الأفق كما لو أنها تتذوق طعم الهواء .

هل كانت حلمًا عابرًا أتى ومضى؟ أم أنها امرأة نفضت غبار صفحات كتب كنت أغرق في قراءتها في كشك الوراق ، وعيناي تختطفان نظرة سريعة نحو زحام وسط البلد كلما أصابني سطر بمتعة فأعود أتأمله من جديد . ارتديت ملابسي وتركت الغرفة ثم استقلَلْتُ المصعد لا أدري إلى أين أذهب ، ضغطت على زر الطابق الذي يقع فيه الاستقبال . قلت لنفسي سأسأل عنها ، فأتت ضحكة الصوت مدوية هزت جلد بطني :

- وهل تعرف شيئًا عنها سوى حرف اسمها الأول؟

وقفت قبالة موظفة الاستقبال ببلاهة أصابتني بها الحيرة وضحكات المجهول ، نظرتْ من أعلى نظارتها نحوي وافتعلت ابتسامة عاملات الاستقبال :

- هل أخدمك بشيء؟

- أريد أن أسأل عن نزيلة في الفندق .

- ما اسمها؟

صمتُّ ثواني أفكر بطريقة ؛ لأتراجع عما أتيت لأجله ، لكن الفتاة مالت نحوي ضاحكة :

- هل نسيت اسمها؟

- لا أعرف إلا حرف اسمها الأول ؛ نون .

نظرت الفتاة إلى حاسوب أمامها ثم حدقت بي وفي عينيها كثير من التعاطف ، ثم قالت بصوت خفيض :

- يا سيدي لسوء حظك هناك عدد من نزيلات الفندق تبدأ أسماؤهن بحرف النون .

- إنها امرأة أربعينية ، لها شعر بني ، كانت صباح هذا اليوم ترتدي تنورة بيضاء وبروتيل أزرق .

صمتت قليلاً تفتش الحاسوب ثم قالت مبتسمة :

- ثمة سيدة انتهى حجزها من الفندق ، وغادرت قبل قليل يبدأ اسمها بالحرف نون .

اقتربت من الفتاة متأهبًا لسيل من الأسئلة لكنها قالت معتذرة بلطف :

- نحن نحافظ على معلومات نزلائنا ، المعذرة يا سيدي .

وددت لو أصرخ : (أنتم لا تعرفون ما الذي حدث) ، اعتذرت من الفتاة ، وطلبت منها أن تمدد إقامتي ليلة أخرى ، وغادرتُ .

***

جاء الليل وتبقت لدي محاولة أخيرة قبل أن أعود إلى عمان ، ودليلي عبارة واحدة قالتها : (كنت أهبط مشيًا إلى وسط البلد) ، محاولة أخيرة بأن أجدها على العشاء . تنقلتُ بين الطاولات كمجنون إلى درجة أن سألت أحد العاملين في المطعم عنها ، وصفتُها له ، فأكّدَ أنه لم يرَ امرأة بهذه المواصفات في هذا الفندق ، تناولتُ قليلاً من الحساء وعدتُ إلى غرفتي ، ما إن فتحت الباب حتى عاودني الصوت بكل قسوة :

- أنت تنفذ إلى الحياة من أضعف نقاطها ، الحب ضعف ، لهذا لن أرضخ له ؛ لئلا تتراجع قوتي العظيمة .

هربت إلى زاوية الغرفة أتوسله بأن يفارقني ، لكنه كان كمن منع من الكلام لعمر وأفلتَ فجأة :

- سعيد أنك لم تقدم على الانتحار ، لكن السؤال الذي يثيرني غضبًا ، لماذا هذه المرأة بالذات؟ لقد كانت مقدمة على الموت مثلك وتراجعت ، كلاكما ضعيف لم يستطع قول لا ، والآن ها أنت على وشك البكاء لأجلها ، رغم أنك لم ترها سوى دقائق معدودة أيها الهشّ .

جلست على الأرض أسند جسدي إلى الجدار ، وأضع رأسي على ركبتي وهو يقترب من أذني :

- كنت متأكدًا من أن يعيدك جبنك إليَّ ؛ لتمنحني فرصة أن أفعل ما لم تفعله .

- أعادني الحب .

ركضت نحو الباب وأشرعته :

- لن يصدقوك إن أخبرتهم عني ، سيقولون مجنون .

هربت إلى الحمام ، وألقيت ببدني تحت الماء ، وصوته يتراجع :

- حلولك مؤقتة .

تركتُ الغرفة واستخدمت مصعدًا أوصلني عند بوابة في الطابق الذي يفضي إلى جهة البحر ، فركضت إلى أن وصلت الجسر ، كنت كممسوس يفتش عن خلاص مما يهاجمه ، وقفت على حافته والبحر ظلمة باردة ، وصوت أمواجه وقد ارتطمت بالشاطئ يثير في نفسي مزيدًا من وحشة قاسيتها طوال عمري رغم كل الصخب الممتد حولي ، كانت لحظة وشيكة للنهاية . تهيّأت لأنهي كل ذلك العبث ، لكنني شعرت بلمسة يد دافئة على كتفي .

٦
الصحافية
(عزلة الوردة)

تراجعتْ حرارة الطقس فأصبح المشي ممتعًا في تشرين الثاني ، ورائحة الشتاء تلوح في هوائه . غادرتُ الصحيفة التي أعمل بها صحافية بعد أن طلبت إذنًا من مدير التحرير ، فغادر هو الآخر يرافقني في المشي من عند جسر الرأي إلى أن تعب وأوقف سيارة أجرة ومضى ، رجل طيب ليس لديه إلا ولدٌ واحدٌ حصل على هجرة إلى كندا منذ عشر سنين ، وما عاد منذ ذلك الحين . مشيتُ بضعة أمتار ثم وقفت تحت إحدى مظلات انتظار الحافلات لثوان جاءت بعدها الحافلة ، فصعدت وجلست أنظر إلى الناس والبنايات وأضع على أذني سماعتين موصولتين بهاتفي النقال ، أنصت لموسيقى وجدتها في (يوتيوب) معنونة بـ(موسيقى تزيل التوتر) . لم أكن أفكر من قبل أن أعمل في الصحافة ؛ قرأت إعلانًا يشير إلى حاجة صحيفة لمحررين فخضعت لامتحان اجتزته من المرة الأولى . قال لي مدير التحرير إن لي مهارة جيدة في صياغة الخبر . لم أكن متيقنة مما قاله ، رأيت أن ما أفعله عادي ، ولو سألني أحد لقلت له إني عملت لأقتل الوقت ؛ فأنا امرأة غير اجتماعية إن ذهبت إلى مناسبة فإني أذهب حينما أجد أن لا مناص من ذلك . ما عدت أهتم بملابسي كما فعلت في أول أيام عملي حين تعرضت لكثير من محاولات التقرب من الرجال ، بل

صرت عملية أكثر مما ينبغي لامرأة تحب أنوثتها، أرتدي بنطال جينز وحذاءً رياضيًا وقميصًا فضفاضًا. ربما يعده البعض انهزامًا لكني وجدته أكثر راحة لرأسي الذي لا يحتمل الضجيج، تمامًا مثل ضجيج الشوارع الذي كان يضخه الزحام والحافلة تتقدم نصف متر وتتوقف مغلوبة على أمرها. رفعت من حدة صوت الموسيقى وأرخيت رأسي على زجاج نافذة الحافلة، كان أمامي وقت لا بأس به لأصل البيت، فأخرجت من حقيبتي دفترًا عثرت عليه ذات يوم كتب فيه صاحبه حكاية ربما تكون له، واقترح الطبيب علي أن أحول تلك القصة إلى مسلسل حينما أخبرته بتلك الهواية، كان يرى في الكتابة دواء للاكتئاب، فرحت أقرأ:

(كانت الريح الباردة في أول ساعات يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ تلفح وجه محمود الشُموسي وهو يضع يديه وراء ظهره، ويتمشى بجسده النحيل قلقًا في الخلاء الممتد قبالة بيت الشّعر. يتدفق الظلام بشراهة من كل الجهات، في (الشمد) إحدى مناطق مشارق مادبا عمق موحش، يجيء من صمته الموجع نباح كلاب ونداءات رعاة، طردًا لغارات اللصوص المحتملة في ليل يتكاثر فيه الجوع والفاقة، بينما صوت أمينة يجيء متقطعًا تطلق أنين الولادة وأوجاعها، كانت صرخاتها تأتي من الداخل وقد نفد ما كان فيها من مقاومة. جلس الشموسي قرب حفرة النار والجمر فيها كعيون ذئاب مسعورة، ثم ما لبث أن نهض بقامته المتعبة، مدفوعًا بالقلق كأن زوجته تنجب بكرها، عاد ليقف قبالة بيت الشعر ينظر إلى الخلاء ثم مشى يغطي فمه بحطة الرأس، وينظر نحو السماء يلهج بأدعية متتالية بصوت خفيض، ظل على تلك الحال إلى أن بزغت الشمس، وصرخ

الوليد للمرة الأولى ، أطل عليه وجه محبط وذابل لامرأة ، وبالكاد استجمعت بقايا ما لديها من طاقة فابتسمت على استحياء ، وبشرته بصوت مرتخ بقدوم الولد . سار في الأرض الجرداء ، ثم جلس على صخرة ، وفك لثامه ، ونظر إلى الشمس وقد أطلت من أعلى التلال المقفرة كعيني ولد خجول وراء أمه ، وراحت دموعه تسح على وجهه الضامر ، وتتعلق بشعيرات لحيته المدببة . بكى لشعور يختلط فيه الحزن بالفرح في ليلة اصطف بردها جنبًا إلى جنب مع الجوع ، وقلق العائلة على ولديها خازر وسليم اللذين جُنّدا في الجيش ، في وقت تدق فيه طبول الحرب ضد العصابات اليهودية في فلسطين .

كان الطقس شتاء يفترض أن يجيء بالمطر منذ شهرين ، لكنه لم يأت كما انتظر الناس ، بل جاء شحيحًا ، جفت الينابيع جراء تراجعه ، مثلما جف أول العشب ، وحقول القمح ، والشعير . والأغنام مصدر رزقهم الوحيد أخذت تموت تباعًا ، سنة قحط أنهكت البلاد وعاشت بالناس فقرًا مدقعًا ، أعلنتها الدولة في ما بعد عام جفاف ؛ فالأرض جرداء ، والبشر متعبون ، والطيور كسولة لا تحلق في السماء إلا قليلاً ، والحيوانات منهكة الخطى . كانت عائلة الشموسي ترعى أغنام (أبو جريس) أحد إقطاعيي مادبا ، عامٌ كامل من رعي الأغنام ، وجز صوفها ، وحليبها ، وتحضير اللبن ، والجبن ، والسمن ، والزبدة مقابل خمسة عشر خروفًا أو طَليًا ، لكن القحط هدّد كل شيء .

لحمود الشموسي خمسة أبناء وبنتان إضافة لجاد الله ، حمود وبادي يقيمان مع جوازي وشريفة في المغارة في القرية ؛ لالتزامهما بالمدرسة . وسليم وخازر لا يعودان من خدمتهما العسكرية إلا مرة كل شهرين أو ثلاثة ، أما أكبرهم فهو عليّ الذي يمضي نهاره راعيًا للأغنام ،

يخرج هو وباقي الرعاة صباحًا ويعود عند المساء على أمل أن تصادف الأغنام في البر بقايا حشائش تقتات عليها ، له مثل غيره قامة نحيلة ، ووجه ذابل ، وبطن ضامرة يربطها بحبل ؛ ليتجنب آلام الجوع . فالإفطار قطعة خبز شعير مع كأس واحدة من الشاي ولا مجال لأخرى . أما الغداء والعشاء فقليل من حساء العدس ، أو شيء من جريش القمح المطهو باللبن إن درت الأغنام .

بعد أسبوع من ولادة جاد الله وعند الظهيرة رأى الشموسي (أبا جريس) على فرسه ييمم شطرهم ، كانت الرياح شديدة تذري الغبار ، وبقايا حشائش جافة تطوف بالفرس ، وتدفعها يمينًا وشمالاً إلى أن وصل بيت الشعر الذي كان هو الآخر عرضة لريح مجنونة في ذلك النهار تأخذه إلى كل الجهات ، وكلما أوشك على أن يستسلم للريح ؛ يهرع علي متطوحًا غير قادر على المشي باستقامة يشد الحبال ، ويضع مزيدًا من الحجارة على أطراف البيت ، بينما أمينة تمسك بعامود بتوسطه بيد ، وبالأخرى تحمل طفلها الوليد خشية من أن يسقط عليه ، وتردد جملتها الأثيرة : (نوح وانحى) .

هبط (أبو جريس) عن فرسه بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وكرشه البارز ، فهرع عليّ على مضض بعد أن أمره والده والريح تهز جسده ، وربط الفرس ، ثم راح يراقب أبا جريس وهو يدخل إلى (الشق) يحمل صندوقًا خشبيًا ، وكيسًا . كانت أمينة تهدهد جاد الله الذي لم يتوقف عن البكاء جراء الجوع ، فلم يدر لبن صدرها الضامر . نظر عليّ نحو فاصل بين الشق وبين (المحرم) حيث جلست أمينة ، ثم قال بصوت خفيض فيه لوعة وغضب :

– لولا خوفي من والدي لطردت هذا الرجل البخيل .

وضعت أمينة إصبعها على فمها واستمرت تهز طفلها :
- إششش ، والدك سيغضب كثيرًا ، ثم هل يجوز أن نطرد ضيفًا؟
مشى عليّ خارج البيت بخطوات مرتبكة ، أثارت الريح غبارًا اجتاحه واستقرت منه ذرات في عينيه ، فعاد متذمرًا يفركها ، وينظر إلى أمه بعين واحدة :
- ألا يرى أننا في عام ليس فيه إلا هذا الغبار اللعين؟ لم يحضر معه ولو رغيف خبز ، وفوق هذا غضب حينما أتى الأسبوع الفائت من أن عدة خراف نفقت ، هل نعترض على أمر الله؟ ثم ما الذي أتى به في يوم مثل هذا اليوم القاسي؟
قالت أمينة وهي تداري شعورًا بالغيظ من ذلك الرجل :
- اسكت يا ولد .
قرفص قبالتها ونفض شعره الكث من الغبار ، ثم احتضن رأسه بين يديه فبرزت عظام وجهه أكثر من ذي قبل ، قال بصوت واهن رغم غضبه :
- اعتاد أن يأتي ويملأ كرشه ويغادر .
في الداخل كان أبو جريس قد جلس على الفراش وفك لثامه ، فبان وجهه الأحمر المغبر ، تلفت حوله ثم قال وأنفاسه متسارعة :
- هذه الريح مرعبة يا أبا علي ، ويبدو أن ما من أمل بمزيد من المطر في هذا العام ، إني خائف جدًا على مصير أغنامي .
ألقى الشموسي بضعة أعواد في حفرة النار فارتفع دخانها ؛ إذ كح أبو جريس ، ومسح عينيه بطرف حطته ، وحرك يديه في الهواء انزعاجًا . قال وكلماته تأتي مبتورة بسبب سعاله :
- هذه سنة محل ، ولا أدري كيف ستصمد أغنامي .

ألقى الشموسي نحو أبي جريس نظرة معاتبة :

نخاف على الأغنام يا رجل ولا تخاف علينا؟

طبعًا أنتم رأس المال يا أبا علي ، لكن أنت تعرف هذا رزقي ، ... حمنا الله .

قال بصوت زاعق ، ورسم على صدره شارة الصليب . جاء صوت ... اد الله من الداخل باكيًا ، ثم تبعه صوت أمينة تهدهده بوتيرة ... رتيبة . انتشرت على وجهه ابتسامة باهتة :

- لديكم أطفالٌ؟

أعطى الكيس للشموسي ولم ينتظر الإجابة :

- هذا قليل من الشاي والسكر ، وبعض تبغ الهيشي ، مبروك يبدو ... لديكم مولودًا .

استوى على الفراش ، ووضع الصندوق الخشبي في حضنه ، ثم ادار مفتاحه فجاء منه صوت رجل جعل الشموسي يتساءل مستغربًا :

- ما هذا؟

ضحك أبو جريس :

- راديو .

ثم شرح للشموسي ما هو الراديو ، وكيف تصدر منه الأصوات ، وحينما انتهى أقفله ووضعه جانبًا ، وأرخى بدنه على الفراش :

- لقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الأسبوع الفائت قرارًا بتقسيم فلسطين .

قال الشموسي وعيناه تتسعان ، وقد أخذت يده تحكم قبضتها على عصا كان يعيد بها الجمر إلى مكانه :

-كيف؟

- أعطوا لليهود أكثر من نصف أراضي فلسطين .

أعاد الشموسي عدة جمرات إلى حفرة النار ، ثم قال وفي عينيه غضب يختلط به الأسى :

- الحمران لعنة الله عليهم مكنوهم من فلسطين ، سمعت أنهم يعملون على ذلك .

انتبه الشموسي إلى لون وجه أبي جريس وقد جحظت عيناه غضبًا ، فكركر ضاحكًا :

- أقصد الإنجليز يا رجل .

لم يطل أبو جريس المكوث في ذلك اليوم ، غادر تحسبًا من اشتداد العاصفة ، كان عليّ يقف غاضبًا ويداه على خاصرتيه ينصت لبكاء جاد الله ، وينظر إلى فرس أبي جريس كيف تطوّحها الريح ويتمتم (الله لا يردك ، رجل بخيل) . ما إن رآه قد ابتعد حتى انطلق إلى حيث هجعتِ الأغنام ، واستل خنجره ، والشموسي ينادي وينهاه عما سيفعل : (هذا مال الناس فلا تعبث به يا ولد) ، لكنْ عليٌّ نحر شاة ونظر نحو أبيه مزهوًا . قال والدم يسيل من خنجره وفي عينيه ملامح توسل تختلط بالأسى :

- نحن لنا قدرة على مقاومة الجوع لكن كيف لجاد الله أن يعيش بلا لبن أمه؟

أدار الشموسي ظهره ومشى إلى الداخل صامتًا ، بينما راح عليٌ يسلخ جلد الشاة ويقطعها ، ثم حين انتهى من ذلك أشعل نارًا وشوى اللحم وراح يطعمه لأمينة .

***

التف ثلاثة رجال حول حفرة النار في بيت الشموسي ، كان ذلك بعد ثلاثة أشهر من ولادة جاد الله . كشف الضوء الشحيح للفانوس على استحياء جانبًا من وجوههم المرهقة ، بينما بقي الجانب الآخر معتمًا لا ينبىء بشيء . خارج البيت ألقى الليل على تلك المنطقة المقفرة ما تبقى من ستاره السرمدي ، وجاءت الريح بصفيرها وبردها القارس . اقترب أحد الرجال من النار أكثر ، وراح ينفض شعره الكث وملابسه المهترئة باتجاه الجمر ، فتبعه الآخرون وطقطقات القمل تأتي متفاوتة وهو ينفق . كانوا قبيل القحط يكافحونه بالكاز ؛ يبللون به شعورهم ويستخدمون مشطًا يُربط بأسنانه خيطٌ ليصطادوا ما تبقى منه ، لكن بعد أن تبدلت أحوالهم ما عاد لهم حيلة على شراء لتر واحد . ما هي إلا ساعات قليلة بعد غروب الشمس حتى يأووا إلى النوم متعبين ، والصباح بدء نهار شقي جديد .

كان الرجال الثلاثة من أقارب الشموسي ، منهم من يرعى أغنام (أبي متري) ، ومنهم من يرعى أغنام (أبي توما) . يمضون الشتاء في كهوف القرية ، فلكل عائلة كهفٌ ، وحالما ينتهي هذا الفصل يرحل بعضهم مع الأغنام شرقًا ، ويبقى عدد من أفراد عائلاتهم في القرية . راح جزء من أراضيهم رهنًا لبعض أصحاب الدكاكين في مادبا ، مثل (اسكندر) الذي ابتلع عددًا من أراضي الناس بعد أن وزعتها الدولة عليهم ، وسالت دماء بين العشائر والعائلات لأجلها ، يشترون موادهم التموينية دَيْنًا والسداد في نهاية الموسم ، لكن المواسم لا تأتي كما يريد المتأملون إلا قليلاً ، مثل تلك السنة حيث استبد الجوع إلى درجة أن خرج أحد رجال القرية يصرخ بصوت حزين متمنيًا أن يتغوط ، فقد كان طعامهم قليلاً من خبز الشعير ، وأحيانًا شيئًا من (طراميز) الذرة ،

أما العدس فهو سيد المائدة الوحيد الدائم الذي تيبست أمعاؤهم جراءه .

من الداخل جاء عليٌّ يحمل بيده إبريق شاي وبالأخرى عددًا من الكاسات ، قرفص في جهة ينيرها الفانوس وراح يسكب الشاي من دون أن يملأ الكاسات ثم قدمها إليهم . قال أحدهم وكتفاه بعظامهما البارزة تهتزان وقد شهق بضحكة باهتة :

– قبل شهر كنا نقول هنيئًا لمن يشرب كأسًا ثانية ، يبدو أننا في الأيام القادمة لن نجد هذا النصف .

من (المحرم) كان بكاء جاد الله يتناهى إلى مسامعهم بين الحين والآخر ، وكلما سمعه الشموسي يغمض عينيه ويهز جسده يمينًا وشمالاً موجوعًا أمام ما يحدث ؛ إذ كانت أمينة تلقم جاد الله ثديها بلا فائدة ، كان صدرها في أغلب الأيام ضامرًا ترضعه فقط ؛ ليكف عن الصراخ ، فتنقّل منذ مولده بين أثداء عدد من نساء (الفريج) اللواتي يقطنُّ بيوت الشعر متجاورات . في تلك الليلة لم تدر أثداء النعاج إلا قليلاً ، حلبتها أمينة عند غروب الشمس وجلست قرب وعاء الحليب تقتطع منه حصة ؛ لترضع وليدها ، بينما الشموسي يقرفص في طرف البيت متداريًا عن الريح يحاول إشعال الفانوس . جاء عليٌّ بعد أن فرغ من حشر النعاج في سياج أعد لها ، فتعثر بالوعاء واندلق الحليب أرضًا ، وضعت أمينة رأسها بين يديها وراحت تولول :

– يا ويلي على ولدي الذي لم يشرب إلا حليب الجوع .

علق الشموسي الفانوس بعامود البيت وزجرها :

– وحدي الله يا امرأة .

ثم نادى على عليّ الذي ترك البيت وجلس قرب سياج الأغنام

، .ـج باكيًا ويلعن الدنيا . نهضت أمينة وحملت جاد الله وأخذت
.ٍ.هده بصوت خفيض .

أخبر الشموسي الرجال بتلك الحادثة وبكاء جاد الله يتناهى إلى
. ..معه ، ثم استلقى على جنبه يسند رأسه على يده ولاذ بالصمت .
.مص أحدهم وغاب دقائق ثم عاد بقليل من الحليب ، فنام الوليد في
مصن أمينة التي كانت تنصت لأحاديث الرجال خافتي الأصوات ،
،هم مـرة يحكون سـيـرة القـحط ، وأخـرى يرددون حكايات
.ن(العسملي) ، و(الحمران) ، وعن ما سمعوه عن هزيمة هتلر ، وعمّا
،صلهم من أخبار شحيحة عن الحرب في فلسطين . بقيت في فراشها
،الب النعاس إلى أن غادر الرجال وجاء الشموسي فاستلقى بقربها ،
،اخذ يلامس وجه جاد الله وينظر إليه إلى أن ناموا .

***

انتهى فصل الشتاء الذي لم تنل الأرض فيه إلا مطرًا شحيحًا ،
وعاد الشموسي هو وأقاربه إلى القرية ، خرج الناس من الكهوف إلى
وجه الأرض وقد خلت من العشب ومن حشائش اعتادوا أن يقتاتوا
على بعض منها ، فاكتمل مشهد الجوع القاسي ، وأُجبِرَ بعضهم على
رهن أراضيهم لدى إسكندر وغيره من المرابين ؛ ليشتروا القمح للخبز
وبعض الحبوب للطعام . وقف الشموسي يوم الخامس عشر من شهر أيار
لعام ١٩٤٨ ينظر بأسى إلى تلك الهضبة الواقعة شرق القرية ، وما رأى
فيها إلا الغبار ، تذكر خازر وسليم اللذيْن كانا يعودان إلى البيت في
إجازة كل ثلاثة شهور ، ويعطيانه ما استلماه من رواتب لا يتجاوز
مجموعها الأربعين دينارًا ، لكن غيابهما طال هذه المرة في الجبهة . في
تلك الليلة لم ينم كما يجب ، كان نومه متقطعًا تعترضه كوابيس

وأحلام مزعجة لجنود يسقطون في باحة المعركة . بعد أسبوع من ذلك اليوم استفاق من نومه قبيل الفجر عطشانَ فشرب وجلس في فراشه قلقًا وحزينًا على غياب ولديه . ما إن شجت الشمس ستار الليل حتى هبط المنحدر الذي يؤدي به إلى مادبا . ثمة رعاة كانوا يسوقون أغنامهم حينما تجاوزهم ، ثم عبرَ حي النَّوَر وبعضهم قد أشعلوا النار وراحوا يطرقون الحديد بعد أن يخرجوه من النار أحمرَ . كان الشموسي في طريقه إلى أبي جريس ؛ ليستطلع أخبار الحرب ، في ذلك اليوم باعه راديو ، وعلمه بشكل سريع كيف يستخدمه . عند المساء انبطح عدد من الرجال قبالة بيت الشعر ينظرون باستغراب إلى الراديو كيف يصدر منه الصوت ، حتى إنّ أحدهم مد رأسه من الخلف يفتش عن المذيع بينما ينقل أخبار نكبة فلسطين . حينما اختلطت أصواتهم متسائلين زجرهم الشموسي : (انْصُتوا لنسمع) ، فأطبق الصمت على المكان ، ينظرون إلى الراديو والمذيع ينقل نص قرار مجلس الأمن بفرض وقف لإطلاق النار . لاذ الشموسي بصمته بينما عدد من الرجال يتحدثون عن معجزة الراديو ، والآخرون يتحدثون عن الحرب ، غادروا وغادر النوم معهم ، إذ بقي الشموسي مستيقظًا يجلس قبالة بيت الشعر ينظر إلى مادبا المستلقية على تلة يلوح فيها ضوء دير اللاتين ، وضوء مسجد الملك حسين . قبيل الفجر استوطنه النعاس فنام بعد أن صلى ودعا الله بصوت باك أن يعيد ولديْه سالمَيْن . بعد أسابيع من القلق الذي عاشته عائلة الشموسي جاء النبأ ، كان الشموسي يغط بالنوم حينما فوّقَتْهُ أمينة وأخبرته بأن جنديًا في الخارج يريد مقابلته ، فنهض بعجلة ثم استقبل الضيف ، دخل الجندي وجلس ، والشموسي ينظر إلى وجهه مترقبًا ، بينما أمينة في الداخل تحمل جاد الله وتتمشى قلقلة تنتظر أن

.. م الجندي عما يخبئه ، سمعت الجندي يتحدث عن علاقته بخازر
... أيام أمضياها سويًا . تنحنح ثم قال بصوت فيه غلظة وحيرة :
كان خازر من أشجع الرجال رحمه الله .
صرخت أمينة : (يا وليدي) ، تبعها صوت عويل جوازي وشريفة ، ثم
.. هي إلا دقائق حتى جاء رجال القرية ونساؤها . كان نواح أمينة ليلتها
.. ي حتى الكلاب ، وقد نبحت كما لو أنها تؤدي مرثية جماعية ، وكلما
. مع جاد الله صوت أمه يعلو بالبكاء حدق بها ثم صرخ خائفًا يتلفت
حوله ، حيث النساء المتشحات بالسواد وبعتمة تلك الليلة .

***

جاء عام ١٩٤٩ وانتهت سنين القحط ؛ كانوا غرب القرية وقد بدا
الناس متعبين كما لو أنهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة . في ذلك اليوم
. مهرت السماء ومارت فيها غيوم داكنة ، وقف الرجال قبالة بيوت
الشعر يصوبون أعينهم نحو السماء ، لعج فجأة برق من الجنوب ، ودوى
صوت رعد ثم هطل المطر غزيرًا مجنونًا ، كأن كريمًا فاض بما لديه مرة
واحدة ، تعالت أصوات الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والأغنام ،
والحمير ، وصهلت الفرس . يومها داهم الماء البيوت ، وجر معه أغنامًا
وحاجيات لمن كانوا هناك ، لكنهم تمكنوا من الفرار إلى الكهوف .
استمر المطر سبعة أيام بلياليها ، وكأن عِرقًا قد بُتر من السماء فتنفست
الأرض الصعداء ، وعادت الحياة بعد أن انتهت سنة (لوفة) التي
شبهها الناس بما حدث في سنة عام ١٩٢٤ ، حيث لافت عاصفة كل
شيء يعتاش عليه الناس . في ذلك العام زرع الشموسي القمح
والشعير ؛ فتحولت الأرض الجرداء إلى حقول تختفي فيها قامات
الرجال ، جاء موسم الحصاد فنهضت عائلة الشموسي قبيل شروق

الشمس وساروا نحو الحقل ، منهم من يحمل منجلاً ، ومنهم من اكتفى باستخدام قبضته ، كان عليّ يزحف نحو السنابل كأنه يحصد ذهبًا ويغني ، والجميع يردّون من ورائه :

منجلي وا منجلاه . . راح للصايغ جلاه

ما جلاه إلا بعلبه . . ريت هالعلبه دواه

عند الظهيرة نهض الشموسي وترك المنجل من يده ومشى نحو الخيمة المنصوبة في وسط الحقل وقد علقت بها حمالة ينام فيها جاد الله ، شرب من قربة الماء ومسح ما تعلق منه بلحيته ، ثم أخرج من جيبه علبة تبغه الهيشي ولف سيجارة ، وراح يدخن وينظر إلى الأفق بعينين حزينتين على رحيل خازر . جاءه صوت أمينة تحصد وتغني بصوت طافح باللوعة ، أخذه صوتها بعيدًا فسحت دموعه على خديه لكنه مسحها بعجالة ، ثم أمرها بصوت أجش لتصمت ، فاستفاق جاد الله من نومه .

في تلك السنة كانت بيادر القمح كالتلال ، درسها علي وبادي وحمود ؛ إذ ربطوا لوحًا معدنيًا تجره الحمير وتدور على القش ، فظلوا لأيام يتناوبون على صعوده إلى أن فصلوا التبن عن الحبوب ، حينها أخذ الشموسي وأمينة وحولهم أبناؤهم صامتين ، لئلا تطير البركة يملآن الشوالات وأبناؤهم يخيطونها . فرحت العائلة بمحصول جاء أكثر مما توقعوا ، وجاء معه أمل جديد . كان الشموسي يجلس على أحد الشوالات وينظر إلى أبنائه وبناته وهم ينقلون المحصول على ظهور الحمير ، رأى جاد الله يسير نحوه بخطوات متعثرة يمسك بيده عصفورًا ، وقف جاد الله قريبًا من والده ثم أرخى العصفور من يده وظل يراقبه مبتسمًا وهو يحلق في السماء ، اغرورقت عينا الشموسي بالدمع ، فنادى مبتهجًا : (هذا عام بركة يا أمينة) .

الفصل الثالث

«المشاعرُ المكتومة لا تموت أبدا ، إنها مدفونةً وهي على قيد الحياةِ وستظهرُ لاحقا بطرقٍ بَشِعة»

سيغموند فرويد

١
إبراهيم
(خيط أمل يعوّل عليه)

مالت الشمس إلى سرة السماء والحافلة تئن عبر الطريق الذي يسمم شطر الشمال، إنها ظهيرة تشرين الثاني التي تراجع عنها جزء من حرارة الصيف ومسها شيء من أول الشتاء، رأيت البيوت تعدو إلى الخلف بلونها المائل إلى الصفرة متناثرة في أرض جرداء يُهزم العشب بها سريعًا أمام أول صرخة للشمس، ثمة وجوه رأيتها كالحة، ضامرة، حزينة، وأخرى ساخرة. لماذا على الجنوب أن يكون مبتورًا بكل تلك القسوة، تمامًا مثل عائلة مبعدة عن مجاورة النهر! أرخيت رأسي لأغفو فالمسافة طويلة إلى عمّان، وأغلب ركاب الحافلة يغطون بنوم لم أجد لي فيه حظًا، حتى الصوت الذي ما توقف عن تأنيبي وإزعاجي توارى هو الآخر في نومه. أخذ السائق يتأفف مكابدًا التعب، وملل الطريق الطويلة. غط الرجل الذي كان بقربه يثرثر منذ انطلقنا من العقبة بالنوم فهدده النعاس، ضغط بعصبية على زر الراديو فجاء صوت أم كلثوم تغني: (ليه تلاوعيني وإنت نور عيني. أيه جرى بينك في الهوى وبيني. ليه تلاوعيني) فانبثق وجه السيدة نون من ذاكرتي حزينًا، وهادئًا، ووادعًا، ومتوسلاً، وقويًا في الآن نفسه. كيف بعد كل هذا العمر الذي خلا من أي أنثى أن تفعل بي امرأة كل ما فعلت بدقائق معدودة؟ حتى إنني كدت أبكي وأم كلثوم ما تزال تردد أغنيتها: (لما

حبيتك وانضنا حالي . انعدم نومي وانشغل بالي) . ذهبت إلى البحر باحثًا عن الموت ، وجراء تلك السيدة تراجعت عن فعلتي عندما التقيتها في ذلك الصباح ، كدت أفعلها مرة أخرى لولا أني شعرت بها تلمسني وتثنيني عن ذلك ، هل كان وهمًا أم حقيقة غريبة؟ فتحت هاتفي النقال وتأملت صورتها ، امرأة تسللت عبر بوابة رواية موغلة بالحلم والوجع ، وغادرت خفية عن عين كاتبها ، كان الهواء في لحظة التقاط الصورة قد بعثر شعرها كأن روح صياد ابتلعه الماء خرجت من البحر تنقر على أوتار السمسمية ، تتكاثف مع حزن سيدة غامضة ، أو تعلي من شأن لحظة سكون ربما تكون البهجة وراءها ، أو أشياء أخرى لا يجدي معها البوح .

ثمة ذبابة حامت حولي ، تثير بي شعورًا منفرًا يضاف إلى الشعور الذي يخلفه طول الطريق ، انتظرت أن تصبح على مقربة من يديَّ فهرستها ، حركة فكرت خلالها بالفرق بين موت يحدث صدفة ، وموت مدبر ، مسحت دم الذبابة عن يدي ثم عدت أقرأ ما كتبته السيدة نون في دفترها ، كأن حافلة في مكان قصي بي تستعجل الوصول إلى محطة لا أعرف أين تقع :

(أصابني فقد عائلتي بأسى استبد بي أكثر حينما انفض أهل الحي من حولي ، وعادوا يمارسون حياتهم ، لأجدني وحيدة في بيت أعطاني الحزن أكثر مما أعطاني الفرح ، حقيقة أعترف فيها لنفسي حينما أتذكر كيف كنت مجرد كتلة لحم على الجميع أن يبعدها حتى عن نظرة تُصوِّب لها عن بعد . انتهت فترة الحداد ، وبدأت أتلفت حولي وأفتش عن مخرج مما أنا فيه ، أشياء كثيرة كان علي فعلها حتى لا أفقد رغبتي في الحياة ، أول شيء فعلته لأكونني أنا هو أني غيرت

اسمي، لم أحب اسمي القديم؛ إذ كان يذكرني بالوجع كما يتذكر مواطن مخلفات حاكم بائد. قلت للقاضي في جلسة الرد على طلبي تغيير الاسم إن القديم يفزعني، وأنا امرأة جاء وقتها الذي تنام فيه سكينة، نعم هذا أول شيء قمت به بعدما وجدتني وحيدة بلا عائلة، وأول شيء فعله ناس الحي الذي أسكنه، أنهم أطلقوا علي لقب (المالِط) عندما وجدوني أخرج على غير العادة بلا حجاب وأرتدي بنطالاً وقميصًا وحذاء خفيفًا، وأعود إلى البيت أحيانًا في أوقات متأخرة من الليل. لم أبالِ، حتى بعد أن علمت أنهم كتبوا رسالة لابن خالي المقيم خارج البلاد يخبرونه فيها أنني، بعد وفاة عائلتي، تحولت إلى فتاة (تدور على حل شعرها). لكنهم لم يعلموا أني بصدد تغيير حتى مكان سكني؛ لذا أَجَرْتُ البيت، وغيرت مكان إقامتي، فاستأجرت بيتًا ومكثت فيه شهرًا لا أخرج ولا أتحدث لأي احد. كنت أحاول أن أجعل ما يزعجني في ذاكرتي أن يركن لغفوة طويلة؛ لأني أعي أن لا شيء يمكنه أن يقتل الذاكرة إلا الموت، كنت أريد نسيان أني عارٌ، غيرت اسمي، وطريقتي في ارتداء الملابس، وعلاقاتي مع الناس، وزوايا رؤيتي للكون، ورفعت منسوب جسارتي في الاقتراب مما أحب، والابتعاد عما أكره. اخترتُ ما أريد، ونسيت تلك الفتاة التي تمشي مطأطئة الرأس خوفًا من أن يصيبها شاب برصاصة من عينيه في طريق عودتها من المدرسة تضم قدميها، وتمشي على مهل خوفًا على غشاء بكارتها الذي ربما تخسره بناء على الوصايا إن انزلقت في الطريق، أو إن قفزت دونما حذر. تعلمت أن أقول لا، حينما عرفت أن بإمكان هذه الكلمة أن تجنبني حلقة من حلقات سلسلة تلتف حول قدمي، فلا يمكنني أن أمضي في طرق انتبذتها

لنفسي ، طرق تقتادني إلى صورتي التي أريد ، وليس صورة رسموها بأصباغهم الوهمية . تنكرت لذاكرتي ولسكانها ، ليس لأني لا أحبهم ؛ بل لأني كنت شغوفة بأن أسترد نفسي منذ أن وجهوا لي الأمر الأول .

بعد شهر من العزلة في بيتي الجديد ، وقد كنت أعيش فيه على تقاعد والدي القليل ، وعلى أجرة بيتنا القديم ، أشرعت باب البيت وخرجت . كنت في الحقيقة قد أشرعت شبابيك روحي للشمس ؛ لأطرد بردًا داخليًا طالما منعني من الإحساس بجدوى ما حولي ، ثمة جيران لي رأيتهم يعيشون حياتهم بطمأنينة ، مسلمون ، ومسيحيون ، ومن جنسيات مختلفة . كانت الشوارع حنونة تستدرجني لأمشي أكثر مما تمنيت ، أبتسم في وجوه الناس ، وأنظر إلى بيوت قديمة نهضت بأحجار لن تهرم ، وياسمين لم يصبه الكدر . مشيت في ذلك اليوم إلى أن غربت الشمس ، فدلفت إلى مطعم وتناولت قليلاً من الدجاج المشوي ، ثم شربت قهوة وأنا أراقب الناس والشوارع عبر باب زجاجي واسع ، وأفكر بي ماذا سأفعل في الأيام القادمة ؛ إذ كان لا بد لي أنْ أجد عملاً يعينني على العيش . فكرت بأن أكمل تعليمي الذي توقف يوم أنهاه والدي حينما أمرني بترك المدرسة ، وبالفعل راجعت مديرية التربية والتعليم واستكملت شروط دخولي في امتحان الثانوية العامة ، وأمضيت عامًا كنت أنفق نصف أيامه منكبة على الدراسة ، والنصف الآخر أتجول فيه ، فاعتدت المكان وأناسًا صارت لي مع بعضهم صداقة مثل يحيى صاحب مقهى الغروب الذي اعتدت أن أذهب إليه في بعض الأحيان أتناول وجبة خفيفة ، وأشرب قهوة ، وأقرأ . ربحت بنجاحي في امتحان الثانوية العامة انتصارًا كبيرًا جعلني أفكر بآخر

احققه في انتسابي للجامعة ، لكن ذلك سيكلفني مبلغًا لا أحتاط عليه ، اجتاحني أسى لم أستطع رده ، رغم أني عاهدت نفسي على ألاّ اترك منفذًا يستغله الحزن ، ويلطخ روحي بأصباغه الموجعة . تركت البيت أحاول أن أجعل نفسي قبالة الناس حتى أتجنب احتمالات انصياعي لشعور من ذلك النوع ، كنت أحاول ، وأنا أمشي بتمهل على الرصيف ألاّ أفكر بما يمكن أن يقودني إلى اليأس ، رغم أن أجرة البيت بالكاد تكفيني ، فقد ارتفعت الأسعار بوتيرة مجنونة ، وبات الناس يشكون عدم قدرتهم على الصبر أمام ما يجري . كنت حزينة رغم معاندتي لأي طريق تجلب لي الكدر .

على زجاج أحد المطاعم رأيت إعلانًا يشير إلى رغبة إدارة المطعم بتعيين نادلة جديدة ، توقفت أمام بابه أعيد قراءة الإعلان فوجدته فرصة مناسبة ، وحصلت على ذلك العمل ؛ فقد استغرق الأمر دقائق قابلت فيها مدير المطعم فوافق على الفور كوني أقطن قريبًا من المكان ، لقد كانت نقلة مفاجئة لي حينما وجدتني نادلة في مطعم أغلب من يؤمونه كتاب وفنانون وشعراء . ارتديت تنورة زرقاء قصيرة ، وقميصًا أبيض ، وحذاء أسود ، وربطت شعري بمشبك كما هي أوامر مدير المطعم ، الذي أشار أيضًا إلى عدم الخوض في أحاديث مع الزبائن . لم يكن اليوم الأول هينًا بالنسبة لي ؛ فقد شابه بعض ارتباك تداركته في ما بعد .

صرت طالبة في الجامعة لما توفر لي من راتب شهري ومن وقت ؛ إذ يبدأ عملي عند الساعة الثالثة بعد الظهر ، وينتهي عند العاشرة مساء ، يجيء الزبائن عند غروب الشمس فأسترق السمع لأحاديثهم ، ثمة طاولات كان بعض من يجلسون إليها يتجاذبون أطراف أحاديث

سياسية ، وأخرى يحكي الملتفون حولها في الثقافة ، ومنهم من كان يقرأ شعرًا في بعض الأحيان . عرفت منهم الروائي والشاعر والفنان التشكيلي وكتاب الصحف ، لم أكن أتحدث للزبائن سوى بعبارات متعلقة بما يريدون من خدمات ، رغم أني كنت أتلقى بعض عبارات الغزل من بعض الأشخاص ، من غير أن أبدي أية ردة فعل خارج ما يقتضيه نظام المطعم . هناك زبائن دائمون ، وآخرون يأتون بأوقات متقطعة : منهم من يأتون جماعات يتناولون العشاء ، ويشربون ويبقون يتسامرون طوال الليل ، ومنهم من يأتي وحيدًا مثل ذلك الرجل الستيني الذي اعتدت أن أراه يأتي ويجلس قرب النافذة بمفرده ، مرة يقرأ في كتاب ، وأخرى يطوي صفحة الكتاب وينحاز إلى صمته . ثمة خصلات بيضاء كانت تعشّق شعره ولحيته الخفيفة . حينما يعبر باب المطعم يتجه نحو طاولته بهدوء لم أر مثله ، يمشي كأنه على موعد مع أحد لا يراه إلا هو ، يسحب الكرسي بتمهل ، ويجلس شابكًا يديه ببعضهما ، ثم يرخي ذقنه عليهما ويطوح بصره إلى البعيد . يعرف العاملون في المقهى ما يرغب من الشراب ؛ إذ يحضرون له كأسًا من الفودكا وطبقًا من السلطة . مع الأيام أخذ وجود ذلك الرجل يؤنسني ، ويقربني إليه ، وبمجرد أن أفكر بأسبابه تعتريني غبطة لا مثيل لها ؛ إذ صار جزءًا من المكان لا يمكنني أن أراه بغيره ، حفظت ملامحه ، وطريقة مشيته ، وحركة يده وهو يدخن ، وهيئته حين يسترسل بسهوه ، لم أكن أدري أني على مقربة من الحب ، وأني ذاهبة إلى منطقة ستبدل حياتي كما لم أتوقع) .

٢

إبراهيم
(البحث عن السيدة نون)

كنت أتحسس المفتاح في جيبي وأنا أصعد الشارع نحو البيت ، وأتساءل : لماذا حملته حينما غادرت؟ هل كانت إشارة إلى عودتي إليه؟ ثمة صراخ وعويل تناهى إلى مسمعي من بيت أنيسة فمشيت نحوه ، وحينما اقتربت رأيت أنيسة تشد شعرها في حوش الدار وتولول ، كان الحزن الذي في وجهها كافيًا لقتل نفسها هربًا من كل ذلك الوجع . جاءت سيارة شرطة وأمرت من تجمهروا بالابتعاد ، ثم أغلقوا الباب وما سمحوا لأحد بالدخول . سألت فتى يراقب أنيسة بصمت حزين ، فقال إن ابنها انتحر بعد أن كان يصرخ (البنوك أكلتني) . استفاق الصوت بي وكان شرسًا هذه المرة يشدد على الكلمات :

-كيف تؤول المصائر إلى هذا الشكل؟ وكم من خسارات ستتحمل امرأة مثل هذه في أواخر عمرها؟

كان يتقافز في بطني كقط حُشر في حيز ضيق :

- مصيبتنا في صمتك .

عدت إلى البيت بقدمين سائبتين تركلان ما تناثر في الشارع من علب فارغة وحصى ، وعويل أنيسة ورائي يأتي متقطعًا وجارحًا ، فقفز منه صوت رفيقي المرعب حزينًا :

- عليك أن تعلق الجرس ، العالم يسير بسرعة مرعبة نحو الهاوية ، استولت البنوك والمؤسسات المالية على جزء كبير من رواتب الناس ، باتت الشوارع تعج بالسيارات المرهونة للبنوك ، وكثير من الشقق السكنية تم شراؤها بالدين ، كثرت النساء اللواتي أخذن يبعن أجسادهن ، كثر الذين يمكن أن يَقتلوا لأجل بضعة دنانير ، انظر حولك ، هؤلاء الناس على مقربة من أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة .

في طريقي بقيت صورة والدي وجسده معلقًا في السقف تبقر ذاكرتي ، ومن ورائي يأتي صوت نواح أنيسة تشتم الحكومات ومن تسبب في انتحار ابنها ، في صوتها لوعة من عاف الدنيا وبات على مقربة من مغادرتها . كان الليل قد حلّ للتو يضفي على بيوت الحي مزيدًا من الأسى حينما دخلت البيت متمنيًا أن أجد أبي فيه ، كنت أعي أنه قد سار في درب الموت ، لكني تناسيت ما حدث له ، لعبة أعرف كم تضيء على هشاشتي المتوارية! ناديت عليه مرات وأنا أقف بالباب حزينًا وخائفًا ، ناديت والكلمات تخرج من فمي متوسلة تفوح منها رائحة الهزيمة : (أبي) ، ولم يأت من الداخل سوى صدى صوتي ، هل يمكن لنا أن نستمر بحب بيوتنا وزجاج نوافذها مهشم؟ هل يمكن أن نحبها في غياب الآباء؟ ما إن أغلقت الباب ورائي حتى عاد الصوت من جديد :

- نبهتك قبل أن ترحل من أنك ستعود ، أنت للآن لا تعرف قدراتي الضخمة .

تجاهلته وفتحت أبواب الغرف أنظر فيها ،كنت أسعى إلى أن أتصالح مع ما يحدث لي ، بما أن أمرًا جديدًا بات يقربني من أن أتخلص من عتمة طالما لفت روحي ، ومن برد لم يفارقني منذ وعيت على هذه الدنيا .

- سأقف تحت الدوش في الحمام .

جاء صوته ساخرًا هذه المرة وفيه شيء من تعاطف غريب :

- الماء بارد وأنت لا تحبه ؛ لذا ما هي إلا دقائق وتخرج ، أنسيت أنك غادرت ذلك الفندق الفخم بمائه الدافئ ، وفراشه الوثير ، وطعامه اللذيذ ، ورفاه لأول مرة تعيشه؟

هرعت إلى الحمام ، فجاء صوته هادئًا هذه المرة :

- يا رجل ، انظر في المرآة كيف تبدل شكلك ؛ ملابس جديدة ، قصة شعر جميلة ، بشرة نضرة ، ثم ها أنت وقعت في الحب .

ما زلت أتذكر صدى صوتي يتقافز بين الجدران :

- ماذا تريدني أن أفعل؟ قل لي؟

- بت على يقين من أنك لن تفعل شيئًا ، أنا من سيفعل .

- من؟ من؟

تلاشى الصوت ، وأخذت رغم التعب الشديد أحوم في البيت ويداي خلف ظهري دونما تفكير بأي شيء ، حالة تصبح حواسنا فيها معطلة ولا بد لها من لحظة صحو مفاجئة . فتحت حاسوبي وتجولت في بعض المواقع ، ثم استقررْتُ في الفيس بوك . شاشة زرقاء باتت تقول كل شيء : إياد نبيل يحض الناس على الصبر على الوطن ، ويخبرهم بأن العالم يمر بأزمة كبيرة . وفي منشور آخر يقف بجانب عدد من المسؤولين يتحلقون حول مائدة طعام في وليمة دعي إليها . ثمة صورة مغايرة خلف صورة هذا الرجل دفعتني ليلتها إلى أن أخترق حسابه فأرى ما رأيت .

***

جاء صباح جديد صحوت فيه عند التاسعة ، ومكثت وقتًا في السرير أتلذذ بلحظات قليلاً ما تُمنَحُ لي . نظرت إلى بطني فوجدتها طبيعية ، بدا لي أنني سأحظى بنهار لا يعكر صفوه ذلك الصوت المرعب ، أغمضت عيني أصنع حلم يقظة أتخيل فيه السيدة نون تحوم في البيت وتدندن مع إحدى أغنيات فيروز ، فأراها تدلف إليَّ حاملة فنجان قهوة وابتسامة طرية على وجهها ، الذي رغم أني لم أره سوى دقائق معدودة إلا أنه حُفر في الذاكرة كأننا عشنا عمرًا طويلاً معًا . ثمة صوت لبوق إحدى سيارات إسطوانات الغاز دفع بذلك الحلم بعيدًا ، فضحكت ساخرًا من نفسي .

فتحت هاتفي النقال وتجولت في الصفحة العامة للفيس بوك أناس يشكون غياب الحبيبات ، وآخرون يكتبون عن المفسدين ، والبعض يغني ، وآخرون يبكون . هناك من يشتم الساسة ، وهناك من يمتدحهم ، ثمة جلبة تصدر من هذه الشاشة الزرقاء التي أورثتِ الكثير عزلةً غريبة . دخلتُ صفحة عماد الأحمر ففاجأني ما حدث ، لقد مات عماد الأحمر . وجدت منشورات كثيرة تعزي بوفاته ، وأخبارًا تشير إلى أنه عثر عليه ميتًا في ظروف غامضة في شقته . أي مصير هذا أن يموت عماد الأحمر في اليوم ذاته لانتحار ابن أنيسة ، وجدت رابطًا في صفحته يفيد بأنه قتل ليلة البارحة ، عثروا عليه مقيدًا في كرسي وليس في جسده أية ضربة أو كدمة . تفقدت خانة الرسائل ، ثمة رسالة من الدكتور يوسف السماك :

(أعرف أنه ليس من اللائق اقتحامي وقتك الخاص بهذه الرسائل ، خاصة أننا لا نعرف بعضنا ، لكن رؤيتك استفزتني أو دعني أقول إنها دفعتني للتفكير أكثر بما أنا منشغل به . الأمر ياعزيزي ليس

. ملفًا بعيشي في مجتمع قبلي ، أي إن ما أريده ليس وسيلة للدفاع عن نفسي وبالتالي حمايتها ، إنه أمر قادم من أعماق نفسي ومكابدتي تلك المنطقة الفارغة فيها ، منطقة تحلق فيها طيور سوداء ، ربما تستغرب هذه الصراحة ، لكن هذه هي الحقيقة . أكثر ما يزعجني أن كل ما قرأته وامست به في علم النفس لم يستطع أن يخلصني من هذا الهاجس ، اعرف أنه من الغريب أن يلجأ طبيب إلى مريضه ، يبدو أننا مرضى يا عزيزي ولكن بنسب متفاوتة ، يخال لي أحيانًا أن الناس بحاجة إلى مصحة نفسية بحجم الكون ؛ لتخلصهم من شقائهم ، لكن إلى أي درجة يمكن لعلم النفس أن يفعل ذلك ، أتساءل بعد أن تقلبتُ بين الكتب ، والأساتذة ، والنظريات ، بتُّ أشك بكل شيء حولي . هناك . في حياتي علي أن أخبرك به) .

- لا أؤمن بهذا الشكل من الانتماء الذي تتوق له ، ولا أنكر أنني أحن إلى القرية مسقط رأسي لكنني أؤمن بمجتمع حر أكثر مما نعيش ، لا أدري ربما تكون الكتب كما يقول الصوت لي قد لوثت رأسي .

ارتديت ملابسي ، وشربت فنجان قهوة بعجالة على عكس بطئي العتيق بكل شيء وخرجت ، كان عليَّ أن أفتش عن السيدة نون كما يفتش أعمى عن يديْن لامست عينيه فأعادت إليه بصره ليوم واحد ثم اختفت . تنبعث رائحة عطرها من ذاكرتي ، وتخلق بي أملاً لا بد من مطاردته ، لكن أين أبحث ، وكيف ، ودليلي عبارة واحدة تحتمل آلاف المسارات : (كنت أهبط إلى وسط البلد مشيًا) .

نظرت عبر نافذة السيارة والمدرج الروماني -كأنه (مادريانوس) الذي بُني المدرج تكريمًا له- يفتح ذراعيه للقادمين في ذلك الصباح ، في أي جبل من جبالك يا عمان تخبئين امرأة أعادتني إلى الحياة ،

مثلما يدفع مدرسٌ طالبًا لقراءة درس من جديد ؛ لأنه نطق كلمة على نحو خاطئ .كم من كلمة خاطئة في دفتر العمر الذي لم أكتبه بل كتبه آخرون عني! وها هي السيدة نون تعيدني لكتابته من جديد ، كتبتُ في الفيس بوك :

(من هذه التي تقف على تخوم حيرتي كنونة عالقة في بال عازف مهزوم بسطوة اللحن حينما يسيِّرُ الحجرَ على خفة الماء ، ويبقر بأنينه ليلاً مُيَسَّرًا دربًا لتأويل جديد لما كان قبل المكيدة . منْ هذه التي تعيد لي درسًا بمعنى بلاد تنكث وعدَ عروات روحها للأزرار ، وعهد اليد لمزلاج باب قلبها الذي لم يُشرَع إلا للكلمات المولودة في ليلة أعدت لمن ثملوا من ندىً تكاسلَ على ريش قبرات شهدن حقيقة الفجر عندما انتشت الأرض خلسة ، وكادت كأنها حرير على جسد تَسقطُ السماء، من هذه التي تسكب لي الآن هذه الكأس الفائضة بصمت مشوب بحنين لأول رعشة على فم قلب أدرك حاجته للغة؟)

ألقت بي السيارة في وسط البلد ، ومن ذاكرتي تجيء كلمات قصيدة بورخيس : (لو عشت حياتي من جديد) . أمضيت معظم سنيني في كشك الكتب صامتًا ، حتى إن كثيرًا منهم اعتقدوا أنني أخرس ، قرأت معظم ما يأتي للكشك من كتب خلت أن شجرة شجت رأسي وباتت تظلله ، كنت أحس بها تكبر بعد الانتهاء من كل قراءة .

في أي بيت أنتِ وفي أي سرير تخلدين للنوم ، نحن متشابهان في ما ذهبنا إليه ؛ أنتِ تركتِ عمان وذهبت إلى البحر لتنهي حياتك غير آسفة على كل ما مضى ، وأنا فعلت ذلك لأجنب عمان ما يمكن أن يفعله ذلك الذي يختبئ بي كجنين شرير ، عمان بحر كبير نغرق فيه لكننا لا نموت .

وقفت عند الرصيف الذي يصعد منه (درج الكلحة) إلى جبل اللويبدة ، أنظر إلى المتجر وقد أقيم مكان كشك الوراق الذي كان له حشب عتيق ، ونافذة وباب قديمان لهما رائحة الكتب ؛ رائحة لا يعرفها إلا من أدرك كيف كتبت تلك الصفحات ، وأن الحبر الذي أنفقه أصحابها جاء من أرواح تسعى إلى الحياة بعناد عمال المناجم وهم يحفرون الأنفاق . أما المتجر الجديد فقد بني من معدن طلي بألوان زاهية لا رائحة له ، ولا ذاكرة غير ذاكرات هواتف نقالة تهزم أمام أي عطب . من أين كانت السيدة نون تهبط مشيًا إلى وسط البلد؟ وأي الأدراج تسلك؟ صعدت درج الكلحة ، وتجولت بين البيوت ، أنظر إلى النوافذ ، والأبواب ، أنتظر معجزة فيطل عليَّ وجهها باسمًا ، حينها سأصرخ بما لم أقله يوم رأيتها في ذلك الصباح ، كما كان يصرخ العاشق الإغريقي أمام حبيبته ، متوسلاً أن تقبل بحبه (الأغابي) غير المشروط ، والقادم من أعمق منطقة في الروح . أمضيت سنين عمري بلا امرأة حتى متخيلة ، وها هي امرأة خاطفة في مجيئها وذهابها تعيدني إلى لهفة الرجل لامرأة يخلع أمامها ملابس روحه ليتضح بكل ضعفه ، وأحلامه ، وحزنه ، ويبكي على ركبتيها كما ينشج المزراب على حجر أملس .

كانت شوارع اللويبدة تهبط بي مرة ، وتصعد أخرى وعيناي مصوبتان نحو بيوتها . تطل وجوه ، وتتوارى وجوه لكنها ليست للسيدة نون ، تخرج نساء ، وتدخل أخريات ، لكنها ليست بينهن . مالت الشمس غربًا فجاء وقت العصاري . أصابني إحساس بالجوع فدخلت مطعمًا وطلبت صحن فول وكأس شاي ، لم يكن هناك أحد غيري في صالة المطعم الصغير الذي لم يفصلنِ عن العامل فيه سوى واجهة

زجاجية صغيرة . جاء الصوت يلومني :

- أنت تفتش عن إبرة في كومة قش ، مضت سنين عمرك ولم تبحث عن شيء سوى الكتب ، وها أنت الآن تسعى إلى الوهم ، ليس لك ما يميزك في هذه الحياة يا إبراهيم .

جاء الرجل يحمل صينية عليها صحن فول ، وشرائح بصل ، وبندورة ، ورغيفا خبز وكأس شاي ، وضع الصينية وصوب نحوي نظرات غريبة ثم مضى . وقف بباب المطعم ، أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها بتأفف .

قبل أن أضع اللقمة في فمي عاد الصوت مرة أخرى :

- أعلم أن ما معك من مال قد شارف على الانتهاء ، وغيرك يأكل حتى ما لا تعرفه .

تجاهلته ، وأكلت بسرعة لأغادر فيفارقني ، لكنه ما توقف عن حديثه :

- سأخلص من هم على شاكلتك من هذا الضيق . لدي قائمة سأنفذها .

علقت اللقمة في زوري ؛ إذ أصبحتُ على يقين بأن ذلك الشيء سيفعل ما لا أقبله ، نهضتُ من وراء الطاولة فاصطدمتُ بها ، إذ سقط ما عليها محدثًا ضجة جراءها ، جاء العامل في المطعم إلي مسرعًا :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، هل أنت بخير يا رجل؟

نظر بوجهي متفحصًا ثم جاء بمكنسة يزيل شظايا الزجاج عن الأرض :

- رأيتك تحدث نفسك ، هون عليك لا شيء في هذه الحياة يستحق .

- اعذرني أفسدت لك المكان .

ضحك الرجل ونظر إلي بعينين مشفقتين :

- فسد المكان منذ زمن يا سيدي ، لا تقلق .

حمل شظايا الزجاج وألقاها في سلة المهملات ، ثم جفف الأرض ،موطة ونظر إلي ، قال والحزن يضج في وجهه المتعب :

- ما عاد هناك شيء يعول عليه في هذه المدينة ، باتت تبتلعنا مثلما تبتلع المطاعم الكبرى مطاعمنا الصغيرة ، منذ مدة وأنا أفكر بالهجرة .

جلست إلى الطاولة وقد غاب الرجل في الداخل وعاد يحمل كأسين من الشاي ، وضع واحدة أمامي ، والأخرى بقيت في يده ، تشف منها بتتال ، أخرج سيجارة من علبته ثم مد يده نحوي :

- دخن .

- لا أدخن .

ضحك ساخرًا ، بينما في عينيه لمعة تسبق البكاء :

- هل تخاف أن تموت؟

قلت وأنا أرتشف الشاي :

- لا ليس هذا بالتحديد ما عنيته ، لكنني .

قاطعني :

- لكنك ماذا؟

لم أدرِ ما كان علي أن أقوله لذلك الرجل لحظتها ، فصمتُ أنصتُ له :

- أنا لا أعرفك ، وأنت كذلك ، ولا أدري لماذا تخلّق كل هذا الكلام بيننا ، لكن كل شيء حولي يثير الإحباط والنكد ، أمضي

نهاري في هذا المطعم الذي بالكاد أجمع منه أجرته ويتبقى لي القليل لأنفقه على عائلتي .

طوح بصره عبر باب المطعم ، ونظر إلي بعينين حزينتين :

- البارحة عاتبتني زوجتي قائلة : لك ما يزيد على الشهر لم تمارس معي الجنس ، هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟ انفجرت غضبًا وأسمعتها كثيرًا من الشتائم ، ثم غبت ساعة وعدت أعتذر لها ، قلت لها ما عادت عندي رغبة بشيء حتى بالنساء .

أشعل سيجارة جديدة ، وراح يدخن بهدوء حزين :

- تخيل حتى الجنس سرقوا متعتنا فيه .

قال ذلك ومشى نحو زبون دخل المطعم ، التفت نحوي :

- لا تدفع ، سأعتبر حسابك مقابل إنصاتك لي .

٣
ليلى
(فرار من المكيدة)

أغرب ما جرى لي هو حنيني إلى الملجأ ؛ شعور حاولت أن لا يعاودني مرة أخرى ، فكيف أحن إلى مكان ما تزال ذاكرتي تحتفظ بذكريات سيئة حوله . الناس هنا مختلفون عن تلك الصورة التي رسمتها لهم ، ليسوا كلهم طيبين : هنالك من كان يمنحني ضِعْف ثمن علبة المناديل ، ومنهم من كان يعطيني بلا مقابل فأرفض ذلك ؛ فأنا لست متسولة ، ومنهم من يغلق نافذة السيارة حينما يجدني أعرض ما لدي للبيع . كنت أجلس على الرصيف وأنظر إلى السيارات ومن فيها وأفكر : (ربما يكون هذا أبي ؛ رجل حنطي البشرة بشارب يغزوه البياض ، يقف انتظارًا ليتراجع الزحام فيفسح له مجالاً ليمضي في طريقه . ها هو يسهو ، ربما يستعيد تفاصيل ليلة أن التقى فيها أمي تحت شجرة في ليل يداري على المستترين ، أو خلف سور ، أو في غرفة في بيت من بيوت هذه المدينة . أراهما وقد أعمتهما الرغبة ، وحينما استفاقا وجدا نفسيهما قبالة الكارثة ، حتمًا سيُقتلان ، رجل وامرأة طيبان لم يتجرءا على الإجهاض ، وحين جاء وقت الولادة السرية ألقياني في الشارع) .

تعالى ضجيج أبواق السيارات فانطلقت وأنا ما أزال أحدق بالوجوه : وجوه نساء ، وجوه رجال . ترى ما الذي سيحدث إن وقفت في منتصف

الشارع وعطلت السير وخلعت عني ملابس الرجل وصرخت : (أريد أمي وأبي)؟ نظرت إلى سيدة كانت تنصت إلى أغنية وترمي بصرها فوق السيارات ، ثم حدقت بي بعينين حزينتين ، ربما تكون هذه السيدة أمي ، تعيش أعلى درجات الألم منذ تلك الليلة التي حملوني من يدها وألقوا بي في الشارع تفاديًا للفضيحة ، تنظر في وجوه الناس وتفتش عن أمارة تدلها على ابنتها ، لكن كيف ستعثر علي وقد ارتديت ملابس رجالية ، وصرت بارعة في تقمص حركات الرجال وألفاظهم ومشاكساتهم ، حتى إنني حينما أنظر إلى نفسي أجدني قد بدأت أتحول إلى ذكر . قبل أيام سألتني سلام ما بال صوتك تبدل بهذا الشكل؟ لكن الذي كان يحدث لي أنني بمجرد عودتي من الشارع يعود كل شيء على حاله : الحزن مما نحن فيه ، حلمي بالعائلة ، حلمي برجل يلمني بين ذراعيه . أقف أمام كسرة مرآة مثبتة على جدار البيت المهجور ، وألامس شعري القصير وملابسي الرجالية ، تَخَفٍ لم يحقق لي ما أردته من أمان ؛ إذ حدث أن كنت يومًا أتحرك بين السيارات التي تصعد نحو الدوار الثالث قادمة من وسط البلد ، السماء على وشك أن تمطر وهي تمور بالغيوم الداكنة ، وبداية الريح تحمل معها حبات قليلة من المطر . قالوا إنّ عاصفة رعدية في طريقها إلى المنطقة ، كنت أرتدي الملابس ذاتها ، قميصًا فضفاضًا وبنطال جينز ، لم أنتبه إلى أن زر القميص قد سقط إلا حينما وقف أمامي رجل يدخن بشراهة وينظر إلي بعينين محمرتين ، رجل رأيته من قبل وعيناه تتلصصان عليّ . حسبتُ الأمر صدفة فتجاوزت مخاوفي التي باتت ترهقني حتى أثناء النوم بين النزلاء السابقين للملجأ . قال لي بصوت خشن : (أريد علبة مناديل) ، انحنيت إلى الأسفل فاكتشفت أنه يحدق بنهديّ وقد رآهما عبر فتحة القميص ، حين أعطيته العلبة مد يده

،امسك صدري : (كنت أعرف أنك فتاة) ، قفزت مذعورة ، وألقيت الحبس وقد وجدته يقترب مني وينظر إلى رجل يقف على مقربة منه : (لا تمثلي الشرف علي ، تعالي لنمرح وسأعطيك ما تريدين من المال ، أنا احب مضاجعة النساء والأولاد على حد سواء ، منذ مدة وأنا أراقبك وبي ،عبة مجنونة نحوك) .

هاجم صوت المشرفة يوم اغتصبتني مسمعي كأنه فحيح أفعى ، واحسست بأصابعها الطويلة والغليظة تجوس جسدي ، وددت لو أصرخ مستغيثة بأحد لينقذني من ذلك الرجل ، لكنني وجدت الهروب أسهل فابتعدت أكثر إلى الوراء أفتش عن جهة أفر إليها . أسرعت من حطواتي نحو الكوة التي تؤدي إلى البيت المهجور ، وعبرت منها أركض في الزقاق المتعرج ، لكنني عدت خوفًا من أن يكتشف أمر البيت ، ،وجدت الرجل قبالتي عند زاوية تؤدي إليها الكوة حيث الروائح الكريهة ، استغثت بفزع ، لكن ضجيج السيارات كان أعلى من صوتي ، التصقت بالجدار والرجل يقترب مني شيئًا فشيئًا ، يفك حزام بنطاله ويخرج قضيبه المنتصب ، قال بصوت مرعب فيه بحة رجل مجنون : (لا تقلقي الأمر لن يستغرق سوى دقائق) .

كنت أدفع بجسدي إلى الخلف وكأن الجدار سيستجيب ويتراجع مفسحًا لي طريقًا للهروب ، رأيت المشرفة بجانب ذلك الرجل تمشي نحوي ، ومن ورائهما رجل وامرأة طيبان ينظران إلي بحزن ربما هما أبي وأمي . انحنيت سريعًا والتقطت حجرًا ورميت الرجل به ، فارتطم بجبينه ففر الدم غزيرًا وسقط على البول والبراز مغشيًا عليه ، (يا إلهي لقد قتلت الرجل) ، صرخت مذعورة بينما السماء للتو تهطل أول أمطارها ، فهربت ليحدث لي ما لم أتوقعه .

٤

إبراهيم
(لا بيت للوراق)

أنظر إلى عمّان ليلاً ، الوحدة ورائي كثيرة وكبيرة ، لا يبددها سوى عقارب ساعة كان علي أن أهشمها لفرط ما باتت توجعني ، عمان أمامي ولا يمكنني ولوج عالمها : فنادق تقام فيها حفلات ، ويقدم فيها طعام لا أعرفه ، نوادٍ يقف ببابها حراس شخصيون لهم عضلات مفتولة . ولوج مدن مثل هذه بحاجة لشيء واحد لا غير ، هو المال ، وأنا رجل لا يعرف في حياته شيئًا غير الكتب ؛ بضاعة ما عاد لها قيمة . لكن هل هذا فقط هو عالم عمان؟ لعمان عالم آخر مُحبط ، وممل ، وحزين ، كانت كطاولة لها ثلاث أرجل ، وأزيلت واحدة .

باتت خطواتي في البيت هي الأخرى تزعجني ، وتثير بي مزيدًا من السأم ، كل شيء صامت حتى أصوات جبل الجوفة لم تأتني في ذلك المساء . ماذا علي أن أفعل؟ مشيت نحو الصالة حيث كتب الكشك مكدسة فيها ، والتقطت رواية سقطت من رزمة على الأرض ، (قابين) لـ(جوزية ساراماغو) ، قرأت منها صفحتين وألقيتها جانبًا ، نهضت أفتش عن كتاب يبعدني عن كل ذلك السأم ، لكنني أحسست بحركة في بطني ، ورأيته ينتفخ شيئًا فشيئًا ، هرعت دونما وعي مني نحو غرفة النوم ، أنظر إلى جسدي في المرآة فأتى ينذرني :

- علينا أن نعقد اتفاقًا ، سأمهلك شهرًا وإن لم تفعل شيئًا خلال هذا الاتفاق ، لن أكون آسفًا على ما سيحدث .

كنت أعلم أنه سيعود ويزيد من خوفي وقلقي . اهتز الهاتف في جيبي فأفزعني ؛ ثمة رسالة جديدة من ذلك الرقم : (كيف حدث ذلك الذي رأيته في المطبخ؟) ، وقفتُ عند النافذة ، باب شرفة جارتي مغلق ولم أرها منذ أيام ، ماذا لو خَرَجَتْ الآن ودعتني من جديد إلى بيتها ، هذه المرة سأذهب بسبب هذه الرسالة ، أو ربما لأنني أريد الحديث في أي شيء ، ليس عندي أدنى فضول لأعرف أي وجه يختبئ خلف ذلك النقاب ، أو أن أتأكد مما يقال عنها من علاقتها بالرجال ، ليس عندي أي رغبة جنسية بامرأة ؛ أريد أن أهرب من هذا الذي يقض مضجعي ، ويكدر علي لحظاتي . كان الشارع خاليًا والساعة تشارف على انتصاف الليل ، معظم بيوت الجيران مغلقة ولا حركة تأتي منها ، فخرجتُ ، وعبرتُ الشارع أتلفتُ حولي كلِصّ ، دخلتُ بوابة العمارة ، ثم صعدت إلى الطابق الثاني ، كان قلبي ينتفض ويكاد يخرج من صدري ، كأني مقدم على ارتكاب جريمة . بالكاد وصلت باب شقتها وأنفاسي تتعالى جراء توتر لم أتوقعه ، سمعت من داخل الشقة صوت أغنية كلماتها تحكي عن الوحدة ، لامست الباب بيدي لأقرعه ؛ لكن ماذا لو أن المرأة ما عادت تسكن هذه الشقة؟ ما الذي سأقوله لمن سيفتح لي الباب؟ لذلك عدت من حيث أتيت ألوم نفسي على خطوة رعناء لا أدري إلى أين كان يمكن أن تؤدي بي . وأنا أعبر الشارع رأيت رجلاً يوجّه نحوي نظرات مريبة ظلت تتبعني إلى أن دخلت البيت ، استلقيتُ في سريري فجاء الصوت هذه المرة مستهزئًا :

- لماذا خفت حينما وجدت ذلك الرجل ينظر إليك؟

كان يسألني هذه المرة ، قلت متجاوزًا التوتر الذي ينتابني حين
يعاودني هذا الصوت :

- ليس خوفًا ، إنما حرصًا .

جاءت ضحكته عالية فرأيت بطني تهتز بسببها :

- الحرص شكل من أشكال الخوف الذي لا أعرفه أبدًا .

من أين أتتني هذه البلوى؟ وأي طبيب أو شرطي أو رجل دين
حتى مشعوذ له أن يخرج هذا الكائن مني؟ لكن كيف لي أن أذهب
إلى مشعوذ ورائحة الكتب في ذاكرتي أكبر من سحابة بخورهم!

صدرت عن هاتفي نغمة تشير إلى رسالة وجدتها من الدكتور
يوسف :

- كيف تسير أمورك؟

- ليست على ما يرام ، ما زلت أصارع ذلك الكائن الغريب .

- كلنا نصارع أشياء في حياتنا ، ولا ندري من ينتصر في النهاية

استغربت رد طبيب نفسي مثله ، وتوقعت أن يطمئن على الأقل
على التزامي بالدواء الذي أوصى لي به ، كانت محادثة قصيرة لم أدر
ما غرضه من ورائها ، لكن بدا لي أنه كان بحاجة ليتحدث .

***

صحوت في الصباح على قرعات متتالية على الباب ، حينما
فتحته وجدت صاحب البيت بوجه غاضب ، عيناه تكادان تخرجان
من محجريهما ، وأوداجه منتفخة ، وصدره يرتفع وينخفض بنفس
متسارع :

- سأختصر الأمر ؛ عليك أن تدفع أجرة البيت . ألا يكفي أنكم
تدفعون مبلغًا زهيدًا ، بينما أجور البيوت في عمان قد ارتفعت كثيرًا!

صمتَ قليلاً يصوب نحوي نظرة مهددة :

هنالك عائلة ستدفع لي أضعاف ما تدفعونه . عليك أن تخلي ... وإلا . . .

تلفتَ حوله ، ثم عاد إلى النظرة ذاتها ، وقال قبل أن يغادر بخطوات متثاقلة جراء بدانته اللافتة :

- وإلا أرسلت لك من يجعلونك تخرج وبوجه مشوّه .

من الشرفة كانت جارتي تراقبني قبل أن تضع صندوقًا هناك ... في الداخل ، أغلقت الباب وجلست على الأرض مرخيًا ظهري إلى الجدار أفكر بما يمكن أن أفعله . لم يتبقَ لدي سوى عدد قليل من الدنانير ، ولا أحد لي في هذا الحي ليحميني ممن هددني ... ليس هناك أي مخرج من هذه الورطة ، جاءني الصوت غاضبًا :

- أرأيت كيف يستبيحك الخوف؟ هددك هذا البدين اللعين ... من الحي ، وما استطعت حتى أن تجادله .

مشيت في الصالة أتعثر بالكتب وبطني تنتفخ أكثر من ذي قبل ، ... وقفت بباب الحمام ؛ لأرشق جسدي بالماء لأتخلص منه ولو مؤقتًا .

- أكثر ما تجيده في حياتك هو الهروب ، لا عليك سأضيف هذا الرجل إلى القائمة ، ولا بد أنك تعرف ماذا سأفعل .

- ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني؟

- سأضربه ، منطق الضرب لا يواجه إلا بالضرب .

- لكن الضرب لا منطق له ، ولو كان له ذلك لَما حدث كل الخراب الذي تؤدي إليه الزلازل .

- تتشبث بكتبك لتشرّعَ خوفك .

لم أتحمل ما يقوله فهرعت إلى الحمام بملابسي ، وفتحت الصنبور

فهبط الماء على رأسي وبكيت محاطًا بلذة غريبة بالبكاء ، بكيت خوفًا ، وألمًا ، وفقدًا ، ولسبب غامض لا أدري ما هو ، بكيت لأنني لم أجد السيدة نون ، ولأني بت ولسبب مبهم رهينة لها . وجدتني على مقربة من الاستسلام لذلك الصوت مثل مرات قليلة سابقة ، مع الأيام أخذت المسافة بيننا تقصر ، وبات الذي يقوله يستقر في ذاكرتي ، أستعيده في لحظات ما ، أتفكر به ، ثم فجأة أدرك خطورة ذلك . خرجتُ من الحمام وبي شعور بالغضب والإحساس بالذنب ، تعريت من ملابسي أمام المرآة ، وأمسكت بالسكين ، لكنه اختفى ، انتظرته وقتًا ولم يعد ، كانت يدي ترتعش وعرقي يسح من جبيني وعنقي ، وريقي ينشف كلما أوغلت في الانتظار . ألقيت السكين من يدي ، واستلقيت أرضًا ، وغرقت بالبكاء من جديد أتساءل من الذي عليه أن يُقتل أنا أم هو؟

***

جاءني مالك البيت مرة أخرى ، كنت قد عدت من نهار أمضيته أفتش عن السيدة نون بحاجة المصاب بالبرد لمعطف يطلعه على الدفء وأول درب إلى السكينة . قُرع باب البيت فعرفت من به ، كان معه شابان موشوما الذراعين تفوح منهما رائحة الخمر : واحد يقف على يمينه ، والثاني على شماله ، قال لي بصوت خفيض وراء هدوئه كثير من التهديد والوعيد الذي رأيت شكلاً آخر منه في عيني الشابين :

- أمهلك لظهيرة غد ، وبعدها عليك أن تتحمل مسؤولية ما سيحدث .

ظل بطني طوال تلك الليلة كبطن امرأة على وشك أن تلد ، والصوت يلاحقني أينما هربت . كانت ليلة قاسية ، إذ ظل يدفعني

إلى عنف لم أعتده إلى أن تمتُّ ، فولجتُ عالم كوابيس لكثرتها أصبت بالبلادة حيالها . في الصباح خرجت من البيت وقد قررت ما سأفعل ، هل كان قرارًا أم هزيمة لا مجال للاعتراف بها لأحد؟ هل الهزيمة قرار مسبق لا نعترف به؟ وأي هزيمة قادتني إلى تلك السلسلة الموجعة من هذه الخسارات؟ بعد كل ذلك العمر ما تبقى لي شيء ؛ إذ ما عاد يربطني بمسقط رأسي سوى ذكريات تراودني في لحظات ، وتغيب عني سنين طويلة . فقدت الكشك الذي كان يمنحني سماءً عوضتني سنين عما يحيط بي من سراق الأكسجين . فقدت أمي ، أبي ، أخي ، حتى أملي بالعثور على السيدة نون ، وها أنا أخسر بيتي . خسران البيت فاجعة عصافير تقف بلا حذر أمام بندقية الصياد ، لا تعي ماذا ينوي إصبع يحرض البارود على ابتداع شكل أوسع للكارثة ، إذن من الآن فصاعدًا أنا (ديوجين) في مدينة لم تكترث بي ، وأمشي بلا بوصلة ولا جهة .

ذهبت إلى متجر يشتري الأثاث المستعمل ، وعرضت عليه أثاث بيتي القليل : غرفة نوم أمي وأبي إشارة الطمأنينة في عالم يترع بالخوف . غرفة نومي أنا وعاهد كتف الأخ حين نصبح على مقربة من السقوط . طقم المقاعد القديم ، رائحة الأيام التي مضت ، التلفاز الذي يشتغل مرة ، ومرات يبقى ساكنًا إلا من ضوء خفيف . اشترى كل شيء إلا الكتب ، حرر بعود شيئًا من بين أسنانه ، ثم بصق على الأرض : (لا حاجة لي بالورق) .

عند العاشرة صباحًا جاء ذلك التاجر ومعه شاحنة فيها شخصان راحا ينقلان ما في البيت ، وأنا أقف عند الباب أحمل حقيبة فيها حاسوبي ، وشهادة أبي ، وصورة العائلة ، ودفتر كوابيسي ، ودفتر السيدة

نون ، وكتاب (ديوجين) . بعت كل شيء بأربع مئة دينار .

قبل أن ينتهوا من إفراغ البيت مما فيه بقليل ، رأيت أحد الشابين اللذين كانا يرافقان مالك البيت يطمئن عن بعد على امتثالي لطلبهم في إخلائه ، بينما الجيران ينظرون إلى ما يحدث عبر نوافذ بيوتهم ، تمامًا مثلما كانت تفعل جارتي وهي تطيل مكوثها هذه المرة في الشرفة غادرت الشاحنة الحي مخلفة دخان العادم ، فرأيت عبره الشاحنة التي أقلتنا من القرية في تلك السنة ، ورأيتني طفلاً يبكي بصمت أسفًا على المكان .

كانت الكتب وحيدة قبالة كل ذلك الصمت والفراغ المؤهل لابتكار الصدى ، أغلقت الباب وتجولت في البيت ، وصوت نقرات حذائي يتقافز كإيقاع كائنات غريبة ، أتأمل الذكريات التي لا تباع ، وأشم روائح لن يعرف مراميها إلا من عاش ولادة اللحظة . من زوايا البيت طلعت لي أصوات عائلتي ، أصوات حميمية ، حنونة ، دافئة ، كأنها تعوضني في لحظات الخسارة عما فاتني في ذلك الزمن ، بكيت بمرارة ، وصدى صوتي تتقاذفه الجدران وتعيده إلي محملاً بمزيد من الإحساس بالهزيمة والخسارة ، حينها جاء الصوت فيه كثير من الغضب ونبرة البكاء يؤنبني على فعلتي وضعفي الكبيرين :

– ما عاد لك سوى الكتب أيها الوراق اللعين ، احملها معك وامض .

زمجر وتقلب بي كثيرًا أمام شعوري باللاجدوى ، وبأن العالم على قرن ثور هائج يحدق من بعيد بقطعة قماش حمراء ويتجهز للحظة الحاسمة .

وقفت قبالة الكتب كائنات تؤشر للحياة بصمت له قيمة الذهب ،

فرشت الأرض ورحت أقلب بعضها : كتاب سيبويه ، رسائل الجاحظ ، مروج الذهب ، إخوان الصفا ، المدينة الفاضلة ، دواوين شعر ، روايات ، قصص ، سير ، كتب في السياسية .

نقلت الكتب إلى خارج البيت ، ووضعتها في مساحة صغيرة على طرف الشارع ، كان بعضهم ينظر إلي ، وجارتي تطل من شرفتها إلى جانب عابري الطريق . جاء الصوت محرضًا ، وحازمًا بما يقول :

- ما عاد لك بها حاجة . إنهم يعلون من شأن القشور .

أحسست به يدفعني من إلى الأمام :

- احرقها .

اقترب مني أكثر وراح يقرأ علي بصوت يميل إلى الغناء الحزين مقطعًا من قصيدة الشاعر الأمريكي روبرت فروست :

(بعض الناس يقولون إن العالم سينتهي إلى النار/وبعضهم يقول إلى الجليد ./ مما تذوقت من الشهوة/ أنا مع الذين يفضلون النار)

مر بقربي رجل عجوز بطيء الخطى توقف وأشعل سيجارة ثم واصل خطواته ونظر إلي مبتسمًا بسخرية . هرعت إليه وطلبت منه ولاعة مدها إلي ، فأشعلت النار بالكتب وأعدتها إليه ، ربّت على كتفي ومضى في طريقه متمتمًا بكلمات غير مفهومة لأغنية حزينة . حملت حقيبتي الصغيرة ومضيت ودخان الكتب يتصاعد نحو السماء وقد أعلنت للتو أول الشتاء .

٥
الصحافية
(امرأة مريضة بالرحيل)

يبدو أنني اعتدت التنقل من بيت إلى آخر . يتنقل البدو في الصحراء مدفوعين بالبحث عن الماء والعشب ، فعن أي شيء أبحث في عَمان ، مدينة كلما كبرت يزداد خوفي فيها ، ويزداد بي حب غريب نحوها ، مدينة متنوعة تناسب مزاجي الذي بات في السنوات الأخيرة متقلبًا بإيقاع غريب ، فوسط البلد يناسب مزاجي الحزين الذي يستلتزم المشي وحيدة من غير رغبة في أن أتحدث إلى أحد ، ويثير غرب عمان مزاج امرأة مثلي تداهمها الرغبة في الرقص مرة في العام أغيّر أشياء كثيرة :كتبي ، ملابسي ، عطوري ، حتى العدد القليل من أصدقائي الذين استبدلتهم بالعزلة . بدلتُ هذا البيت قبل شهر تقريبًا ، صرت بارعة في قتل ذكريات أي بيت أو مكان أغادره ، الذكريات ترهقني وتوجعني ، مثل الموسيقى التي استغنيت عنها قبل أيام ، صار علي أن أفرغ خزانتي الداخلية من كل شيء فيها حتى أعيش ، خزانة تتراكم فيها كل أشيائنا منذ الطفولة ولا ندري أننا يمكن أن نسقط لسبب بسيط تضخمه فوضاها وتجعله كارثيًا . في الفترة الأخيرة بتّ أسعى لأفرغ ما بي ؛ حتى أنعم بمساحة فارغة لو عَبَرها أي شيء سيغدو عاديًا مقابل ما تخلصت منه ، ربما تتضح الرؤية .

أتى المطر غزيرًا ، إنه أول الشتاء الذي كنت أحبه في ما مضى ،

وانتظره بصبر كبير . كنت أرى العالم على نحو رومانسي ما عاد له أثر بي ، ومجددًا صار الشتاء يعادل عندي شكلاً غريبًا من وحشة تجيء لي دومًا بصورة رجل وحيد يمشي في ليلة ماطرة . حملتُ شالاً من خزانتي ووضعته على كتفي ، وجلست في الصوفة أنظر إلى الأفق الذي يلوح فوق جبل عمّان ، والغيوم الداكنة تركض فيه ، أزحتُ الحاسوب النقال يمينًا واستلقيت ، كنت قد انتهيت من تحقيق صحافي حول العاهرات في هذه المدينة ، مشيت أتبعهن كثيرًا في الشوارع ، والأزقة ، وأماكن يقفن بها انتظارًا للزبائن ، نساءٌ حزينات يتمثل معظمهن الشبق ؛ لإرضاء غرور زبائن : إما يهرب بعضهم من زوجات لا يجدْنَ ما يرضيهم في السرير ، وإما عزاب أمامهم طريق طويلة للزواج . نساء يائسات يحلمن ببيت صغير دافئ بمعية رجل له القدرة على ترميم ما ألمّ بهن من جراح . ازداد هطل المطر فتسللت إلي من الخارج رائحة بقعة صغيرة تقع قبالة باب البيت زُرعت بها شجرة أسكدنيا ، وبعض نباتات الزينة . كنت في ما مضى أصاب بالإثارة حينما أشم رائحة التراب عند أول زخة للمطر ، وتجتاحني رغبة عارمة لحب رجل يجعلني أبكي لفرط البهجة معه . وضعت الحاسوب المتنقل علي قدمي ، ثم فتحت صفحة لأضيف ما خطر ببالي من أفكار للمسلسل الذي سأعمل على كتابته ، كتبت في خانة السيناريو :

(المشهد الأول/ خارجي/ ليل . ترصد الكاميرا منظرًا لرجل يمشي في الشارع في مساء ماطر ، يرتدي الرجل معطفًا طويلاً ، يضع يديه في جيبيه ، ويمشي بإيقاع حزين ، يبدو الرجل غير مبال بسقوط المطر ، ورشقات عجلات السيارات ، إلى أن يختفي) .

في تلك الليلة كتبت حتى منتصف الليل ، والمشاهد تتدافع من

مخيلتي تباعًا . أكثر الكتابات سهولة وصعوبة هي التي تأتي من عمق ما عشناه . كان لا بد لي أن أكتب ما حدث لأنجو من الذاكرة ، ومن الاكتئاب . أغلقت الحاسوب ونهضت نحو السرير ، لكنني لم أجد بي رغبة للنوم ، رغم ما تناولته من عقاقير عادة ما تجلب النعاس ، كنت أنظر نحو الدفتر ورائحة عطر ذلك الرجل ما تزال عالقة به مثل تميمة متقنة ، أمسكت به وشممت رائحة الورق ، ثم أسندت رأسي إلى الوسادة أنظر إلى صفحاته :

(في صيف عام ١٩٥٣ استفاق الشموسي من نومه ، لم يكن جاد الله في الفراش ، فتّش عنه ولم يعثر عليه ، هرع خارج البيت فوجده على ربوة قريبة يفترش التراب ، يضع كوعيه على فخذيه ويداه تحتضنان رأسه وينظر نحو مادبا . في ذلك العام بنى الشموسي دارًا في القرية من الطين والحجر ، وزرع حولها أشجار التين ، والرمان ، والعنب ، وحفر بئرًا للماء ، وتخلى عن الرعي عند الناس ؛ إذ اكتفى بعدد قليل من الأغنام . فعل ذلك بما ادّخره من راتبيّ سليم وخازر ، وبما عاد عليه من محصول القمح .كان مسرورًا بالحال الذي صاروا عليه لكنه احتار بأمر جاد الله ؛ إذ وجده يختلف عن أقرانه لا يذهب إلى اللعب ، ولا يمارس ما يمارسه أبناء جيله ، كثير الصمت وقليل الكلام ، وقليلاً ما يضحك . رآه مرة حينما أمطرت السماء قد خرج مسرعًا وراح يركض تحت مزاريب البيت يحاول أن يمسك بالماء ، ثم اعتلى السور ورفع رأسه إلى الأعلى ليسقط الماء في فمه ، لم يره الشموسي فرحًا أكثر من تلك المرة ، حتى عندما عاد إلى الداخل وبقي ينظر إلى أشجار البستان والماء يسح منها غزيرًا .

سار الشموسي بخطوات حذرة نحو جاد الله وجلس بقربه ، لم

انصفت جاد الله إليه بل بقيت عيناه نحو مادبا في ذلك الصباح ذي الأفق الأزرق الصافي ، قال الشموسي بوتيرة مستدرجة :

- بماذا تفكر؟

- لماذا يموت الناس؟

امتعض الشموسي ، وتأمل وجه ابنه الحزين ، ثم قال يحاول أن يداريه :

- هذا ما يريده الله .

عاد جاد الله إلى سهوه تاركًا أباه في حيرة من أمره . قال متسائلاً :

- أبي ، هل أنا شخص جيد؟

وضع الشموسي ذراعه حول رقبة جاد الله وبدا أنه على مقربة من البكاء ، وقد أصبح أكثر خوفًا على ولده :

- نعم أنت كذلك .

قال والخوف يتخلل صوته :

- أرى في المنام شخصًا يخبرني بغير هذا .

نظر بعيني أبيه متوسلاً :

- لا تتركني .

ما إن سمع الشموسي تلك الكلمة حتى غرق بالبكاء ، وراح يقرأ آيات من القرآن الكريم ، وردد تعاويذ وأدعية ، ثم اقتاده من يده وأخبر أمينة بما جرى ، فبخرته وانطلقت مسرعة إلى عجوز من إحدى نساء القرية تصنع التعاويذ ، وتضرب بالرمل ، وتستخدم حصى صغيرة لقراءة الطالع . طوال الطريق الحافلة بالعشب الجاف والحجارة كانت تردد بلا انقطاع وبخوف شديد : (يا حسرتي عليك يا ولدي) . قرعت الباب بشدة ثم ما إن رأته يُفتَح حتى أسرعت إلى الداخل . قالت لاهثة :

- ولدي بخطر .

ثم راحت تشرح لها سلوكه وما قاله لأبيه هذا الصباح . ألقى العجوز عددًا من الحصى بأشكال وألوان مختلفة تناثرت على الأرض ، ظلت تتأملها إلى أن تنهدت وأشارت إلى واحدة تتقدّم باقي الحصى :

- هذا الولد ليس لكم .

- هل سيموت؟

صرخت أمينة ، ثم اقتربت من العجوز ووضعت يدها على كتفها متوسلة :

- لا لن يموت في هذا العمر .

كانت أمينة قد أخذت معها قطعة من ثوب جاد الله أعطتها للعجوز ، فأخذتْ تلف قطعة القماش بقطعة أخرى وأخاطتها ، ثم قربتها من فمها وراحت تتمتم بكلمات غير مفهومة ، وحين فرغت طلبت منها أن تعلقها في ملابسه . في تلك السنة بنيت بعض البيوت في القرية ، وفي العام نفسه ذهب جاد الله إلى المدرسة ، ملتحقًا بأخويه حمود وبادي اللذيْن يكبرانه بعامين . كان محمود الشموسي قد هبط إلى الوادي وجمع ما وجده هناك من أحذية قديمة مهملة ، وتركها في حوض ماء إلى أن صارت طرية ، وراح مستخدمًا المطرقة والسندان والمقص يصنع حذاء لجاد الله ، ومن قماش أكياس الطحين التي كانت تأتي للاجئين الفلسطينيين صنع له بنطالاً ، ومن القماش ذاته صارت له حقيبة مدرسية مكتوب عليها UN . ركب خلف أبيه على ظهر الحمار ، وهبطا سفح القرية الغربي ، ثم عبرا السهول ذات التربة الحمراء في أول أيام شهر أيلول ، وقد خلت نسمة الهواء من بعض حرارة الصيف الذي جاء قاسيًا في تلك السنة . أخرج

الشموسي من جيبه كيس تبغ الهيشي ، ووضع قليلاً منه في ورقة صغيرة ولفها بين إصبعيه ، ثم بلل أطرافها بلعابه إلى أن أصبحت سجارة ، وأشعلها بولاعة تعمل بالكاز ، سحب منها نفسًا عميقًا ونظر إلى المساحات الممتدة الفارغة حوله ، قال بصوت هادئ متأمل :

- ولدي يا جاد الله ، هل تتذكر عندما حملتك مريضًا إلى الحكيم نيقولا السنة الفائتة؟

- أتذكر يا أبي .

قال جاد الله ويده تلتف حول خصر أبيه ، بينما الأخرى تلامس حقيبته القماشية الفارغة المعلقة بكتفه ، شهق الشموسي بنفس من سجارته ، وعاند رغبة مفاجئة بالبكاء :

- أريدك أن تصبح حكيمًا مثل نيقولا .

ساد صمت قصير بدده الشموسي قبل أن يعود مرة أخرى :

- أتسمعني يا ولد؟

- أسمعك يا أبي وأريد أن أخبرك بشيء .

التفت الشموسي بعد أن وجد جاد الله قد غرق في صمت قصير :

- قل ، ما الذي تخبئه عني؟

لم يستطع جاد الله أن يعبر عما يجول في خاطره ؛ إذ كان سعيدًا أن والده ما عاد يعمل أجيرًا عند أحد ، فرح كثيرًا عندما رفض طلب أولئك الرجال حينما أتوه السنة الفائتة ليرعى هو وعائلته أغنام واحد منهم . لكز الشموسي بطن الحمار بكعب قدمه ، ثم راح يغني بصوت تشوبه ملامح جديدة للأمل . لامس جاد الله التعويذة التي علقتها أمه في قميصه وتذكر ما قالته له ، نظر إلى السماء حيث طائر يحلق ويكاد

يقف في مكانه ، تأمله جيداً ثم انتزع التعويذة وألقاها خلسة على
الأرض . مرا خلال (حي النّوَر) وبقيا يسيران غربًا فتجاوزا مخفر
الشرطة إلى أن وصلا المدرسة . كانت عبارة عن ثلاث غرف بنيت من
حجر يميل إلى الصفرة : واحدة للمدير وللأستاذين ، وأخريان للطلبة .
تقع على منطقة مرتفعة شيئًا ما ، تطل على السهوب الشرقية لمادبا ،
وتمتد دونما شيء يعيقها . وقف الشموسي ورمى نظرة سريعة إليها ثم
إلى القرية وبيته يقف على رأس الربوة ، بينما جاد الله ينظر نحو
المدرسة بدهشة وخوف مستتر . كان ذلك اليوم هو الأول لطلبة : منهم
من جاء من القرى ، ومنهم من هو من قاطني المدينة . الوجوه لا تشبه
بعضها ، وجوه أبناء المدينة يميل كثير منها إلى حمرة مختلطة بالبياض ،
والسمر منهم ذوي بشرة نقية ووجوه ممتلئة . ملابس وأحذية كثير منهم
جديدة لها ألوان زاهية ، أما أبناء القرى فوجوه الكثير منهم متعبة
ضامرة ، شعورهم كثة وملابس بعضهم مرقعة ، وبالية . عيونهم ساهمة
مندهشة غير قادرة على فهم ما يحدث حولهم . لهم حركات سريعة ،
والتفاتات خاطفة كأنهم يتوقعون تهديدًا ما . مشى الشموسي نحو
رجل يرتدي بذلة سفاري تميل إلى اللون الزيتي ، له صلعة حمراء
ملساء ، وعينان جاحظتان بانتا خلال زجاج نظارته السميك ، يمسك
بيده عصا دفلى متوسطة الطول . ما إن رأى الشموسي حتى سار إليه
مرحبًا ثم صافحه وعانقه بحرارة :

- أهلاً يا أبا عليّ .

لاذ جاد الله وراء قامة أبيه الطويلة ، ينظر إلى الرجل بريبة ورغبة
بالاكتشاف . فالتفت إليه الشموسي :

- هذا الخطيب عواد .

كانوا يسمون أستاذ المدرسة خطيبًا ، يكرمونه بأفضل الأماكن لديهم للجلوس ، ويقدرونه أيما تقدير ، يهابه الطلبة ، ويهابه حتى الذين لم يذهبوا إلى المدرسة .

- هذا ولدي جاد الله ، قلت له أريدك أن تصير حكيمًا مثل مولا .

ضحك عواد ثم عاد إلى تجهمه . نظر إلى جاد الله :

- اذهب مع إخوتك ، وأنت يا أبا علي الله معك سنضع جاد الله في عيوننا .

تأمل الشموسي جاد الله بحنو وقد رآه يذهب إلى أخويه اللذيْن يجلسان على طرف جدار هابط في باحة المدرسة ، ثم قال حازمًا :

- يا خطيب عواد ، العظم لنا والجلد لك إن قَصَّر .

كان الشموسي يطلب قسوة الأستاذ ؛ لئلا يهمل جاد الله دراسته . ربما إن ما مر بهم جعلهم يعتقدون أن عصا أساتذة المدرسة ليست أكثر قسوة من القحط وشظف العيش ، في ذلك اليوم جلس جاد الله إلى مقعده المدرسي ينظر إلى بادي وحمود في الغرفة الأخرى ، ورؤوسهما الحليقة تميزهما عن الآخرين ، بينما الأستاذ يوزع الكتب على الطلبة ، ثم حين فرغ من ذلك بدأت الدراسة : (أبجد هوز حطي كلمن) . قال الأستاذ ذلك ثم أمر الطلبة بأن يرددوا ، فجاءت أصواتهم متفاوتة : منها ما هو نشيط ، ومنها ما هو خجول وخائف ، مثل جاد الله الذي كان يصرخ مع الطلبة من دون أن يفهم شيئًا . في الحصة الثانية راح الأستاذ يمشي بين المقاعد وعصاه في يده ، ثم قال بصوت فيه شيء من التهديد :

- هل أحضرتم دفاتر وأقلامًا معكم؟

مرة واحدة أجاب عدد من الطلبة بصوت مختلط وهم يخرجون دفاترهم وأقلامهم من حقائبهم ، نظر الأستاذ إلى العدد الآخر ممن كانوا صامتين ، ثم اقترب من جاد الله وهو يكابد ضيقًا مفاجئًا بالتنفس ، وحدق بعينيه الخجولتين :

- أريد أن أرى معكم دفاتر وأقلامًا يوم غد .

هز البعض رؤوسهم بينما الآخرون ينظرون في وجه الأستاذ بصمت لا يُفهم منه شيء ، ومضت الحصص إلى أن جاء وقت الاستراحة الذي يمتد ساعتين ، خَلَتْ باحة المدرسة إلا من جاد الله وبادي وحمود وعدد قليل من أبناء القرى ، جلس ثلاثتهم على طرف السور ينظرون في وجوه بعضهم . شعر جاد الله بمقت شديد للمدرسة وبرغبة في مغادرتها ، لكنه خشي من أبيه إن فعل ذلك ، قال بصوت خفيض خشية أن يسمعه أحد :

- إلى أين ذهب الطلبة؟

رد بادي الذي كان يهرش فروة رأسه وينظر نحو القرية ، وبيتهم يبدو صغيرًا من تلك المسافة :

- يذهبون ليتناولوا الغداء في بيوتهم .

- ماذا يأكلون؟

كركر حمود بعد أن نظر إلى إصبعه كيف يطل من شق في حذائه :

- سمعتهم مرة يقولون إنهم يأكلون المقلوبة .

- ما هذه المقلوبة؟

قال بادي بعد أن تنهد :

- لا أدري .

غرق جاد الله في صمت قصير ينظر إلى القرية :

- لماذا لا نذهب إلى البيت لنأكل؟

قال حمود بصوت كسول :

- لن تجد إلا الخبز والشاي .

عاد الطلبة وتزاحموا في باحة المدرسة ، كان جاد الله يقف جانبًا وينظر في وجوههم واحدًا واحدًا ، ثم عبر إلى غرفة الصف مع الطلبة وقد قُرع الجرس . خلت الباحة إلا من حمود ؛ إذ كان واقفًا كنصب ، وبادي يومئ له بأن يدخل لكنه تسمر في مكانه ، كان جاد الله يراقب ما يحدث مستغربًا ، إلى أن استفسر بادي عن بعد عن سر وقوفه ، فأشر له حمود نحو شيء تحت قدمه ، حينها تلفت حمود يمينًا وشمالاً والتقط شيئًا ، ثم دخل مسرعًا وجلس يلهث ، فقال هامسًا لبادي :

- وجدت قرشًا .

كان حمود في غاية فرحه وهم يعودون من المدرسة ، يقبض على القرش ويبعده عن بادي الذي يريد لمسه ، وجاد الله ينظر إليهما مرة مبتسمًا ، ومرة مستغربًا إلى أن وصلا دكان (الدواج) فاشتروا كيلو وأزيد من التمر ، وبقوا طوال الطريق يأكلون منه حتى نفد مع وصولهم إلى أطراف البستان ، حيث البئر الذي حفره الشموسي هناك . كان حمود ينظر في وجه بادي ضاحكًا يضع يديه على بطنه ويؤشر إلى حمرة انتشرت بوجه بادي ، بينما جاد الله يجلس على طرف حوض ما حجري ينظر إليهما وهما يتضاحكان ، ثم انتشلا دلو ماء وشربا كثيرًا ، ثم راحا يتراشقان بما تبقى فيه . في ذلك النهار لم يسأل حمود وبادي كالمعتاد عن طعام الغداء ، رغم معرفتهما أنهما لن يجدا إلا حساء العدس ، أو جريش القمح ، بل ذهبا إلى المراعي مباشرة . عندما توارت

الشمس وراء تلال القرية عادت الأغنام ، فأحدثت جلبة وهي تعبر إلى حظائرها ، وتهجم على أحواض الماء ، بينما حمود وبادي يتذمران من شقاء الماعز التي كانا يركضان خلفها ليحشراها في الحظائر . كلما التفت الشموسي نحوهما كتما غضبهما وراحا يقومان بعملهما بصمت ، جهزا الأغنام لتُحلبَ ؛ إذ ربطا معظمها بحبال ، فجلست أمينة وبنتاها شريفة وجوازي يحلبنها ، بينما الشموسي يحوم حولهم ويوجه أوامره بصوت أجش . هجم الليل فاشتعلت أضواء باهتة لفوانيس بعض بيوت الشعر ، وفانوس بيت الشموسي المكون من غرفتين بنيتا من الطين والحجر . تحلقت العائلة حول صحن سكب فيه جريش القمح مطبوخًا باللبن ، ثم غادر الجميع بعد أن فرغوا من الطعام إلى فراش النوم إلا الشموسي وأمينة . جاء من أطراف القرية نباح كلاب ، وصوت امرأة تنادي على امرأة أخرى ، يتقاطع بصوت سعال متكرر لكهل في أحد بيوت الشعر المجاورة . استلقى حمود وبادي وجاد الله في فراش واحد ، وأخذ حمود وبادي يتحدثان دقائق إلى أن غلبهما النوم ، وجاد الله ساهمٌ يستعيد اليوم الأول للمدرسة ، وصوت الأستاذ لا يفارق مسمعيْه يأمره بأن يحضر دفاتر وأقلامًا . نهض من فراشه ومشى نحو والده مترددًا . وقف بباب الغرفة التي تطل على البرندة ، وقد أطل القمر منيرًا القرية :

- الخطيب طلب مني دفاتر وأقلامًا .

نظر الشموسي نحو جاد الله وأشرع ذراعيه مبتسمًا ، فمشى جاد الله نحوه ، وأرخى له جسده النحيل ، فهمس الشموسي بأذنه :

- غدًا سأذهب إلى مادبا وأستدين لك ما تريد .

انتبهت أمينة إلى أن التعويذة ليست في مكانها فسألته عنها ، لكنه

ا.لجر معرفته بمصيرها . أمضت وقتًا تفتش البيت وحين فقدت الأمل العثور عليها نامت تفكر بالذهاب إلى العجوز لتعد له تعويذة أخرى .

في صباح اليوم التالي استفاق جاد الله على صوت والده ينادي : (النوم للنسا وللرجال الهلايم) . فرك عينيه بظاهر يده ، وتبع أخويه نحو .ميل مملوء بالماء ورشق وجهه منه ثم جففه بقميصه . كان الديك في تلك الأثناء ما يزال يصيح واقفًا على ظهر القن معلنًا أول الصباح ، حدق بأخته جوازي وقد ربطت على خصرها منديلاً وانهمكت بتوزيع حصة الأغنام من الماء والتبن . فكر بما قاله أبوه وكيف ربط بين النساء والرجال عديمي الحيلة فلم يعجبه الأمر . اقترب منها وقبلها ثم ارتدى حذاءه وجلس قرب موقد النار التي أشعلتها أمينة على البرندة ، ووضعت عليها إبريق شاي ، ودلة قهوة . سكب لنفسه كأس شاي ، وراح يشرب وينظر إلى أخته شريفة وقد فرغت للتو من إعداد الخبز . عرف جاد الله أن ليس مباحًا لأفراد العائلة أن يشربوا الحليب إلا مرة في الأسبوع ، حيث نظام أمينة الصارم تجنبًا لأيام الجوع التي كانت أقسى في ما مضى ، تصنع منه الجميد والسمن ليباع في السوق ، تضع لكل منهم حصة معينة من الطعام ، تخبىء المؤونة في صندوق أغلق بقفل مفتاحه معلق في رقبتها ، تخيط الملابس كلما تمزقت ، حتى دفاتر حمود وبادي تجبرهما على محو ما كتب فيها ليستخدموها من جديد . أكل جاد الله نصف رغيف مع الشاي ، وسار بقامته الهزيلة برفقة أخويه خائفًا من عصا الأستاذ ، مثله مثل حمود وبادي اللذيْن يعرفان شكل العقاب الذي ينتظرهما ، وكان كما توقعوا ؛ إذ عزل الأستاذ طلبة لم يحضروا الدفاتر عن أولئك الذين أحضروها . كان جاد الله ينظر بغضب إلى يد الأستاذ كيف تهوي بالعصا على أيدي

الطلبة ، إلى أن جاء دوره فرفض أن يمد يده ، نظر الأستاذ إليه بغضب واستهجان ، يضرب بالعصا على يده مهددًا :

- قرّب يدك .

ثم حين لم يجد جاد الله يمتثل لأوامره ؛ اقترب منه وحدق بعينيه مهددًا :

- قلت لك قرب يدك ، وافتحها .

قال جاد الله يرتجف خوفًا :

- اليوم سيذهب والدي ليستدين لي الدفاتر ، وغدًا سأحضرها معي .

وحين وجد أن ذلك لن يجنبه العقاب ، حمل حقيبته وغادر غير مكترث بصوت الأستاذ وهو ينادي عليه مهددًا) .

كابوس

أقرعُ باب الشقة ، أرتدي قناعًا ، وأحملُ مسدسًا ، يُشرَع الباب فيطل علي عماد الأحمر متفاجئًا ، أدفعه بقدمي ، أصوب المسدس نحوه ، يصاب برجفة قوية ، أضربه على مؤخرة رأسه فيغمى عليه ، أضعه على كرسي ، أقيده بحبل ، أكممه بقطعة قماش ، أضع كرسيًا قبالته ، وأرش عطرًا قرب أنفه فيصحو ، يحاول الصراخ ، أكشف له كل قذاراته : الرواتب التي وافق عليها مقابل رشاو ، المبالغ التي اختلسها . أطلعه على الصور الفاضحة التي يتداولها مع عشيقاته . أطلعه على التسجيلات التي يحتفظ بها للنساء ، ويستغلهن مقابل مبالغ مالية . تزداد محاولته للصراخ ، والتوسل ، أُخرِج سكينًا من جيبي ، أخبره أني سأقطع أصابعه ، وأبتر عضوه الذكري ، أخلع عنه بنطاله ، ومن ثم لباسه الداخلي ، أقبض على عضوه ، وأقرب السكين منه ، ومحاولته للصراخ تزداد أكثر ، يموت خوفًا .

الفصل الرابع

«كل إصــلاح يفــرض بالعنف لا يعــالج الداء ، إنّ الحكمة أن تبتعد عن العنف»

تولوستوي

١
إبراهيم
(ما حدث أسفل الجسر)

في ذلك اليوم صرت بلا بيت ، تمامًا مثل عصفور هدمت الريحُ عشه واستفردت به في العراء . هطل المطر غزيرًا ومرعبًا أكثر مما خبرت ، إذ كنت كمن يمشي عاريًا غير قادر على مداراة عورتي ، فتذكرت ما قاله أبي بعد عام من وفاة أمي : أحس أني في خلاء كثير البرد .

قطعت المسافة من جبل الجوفة سيرًا على الأقدام إلى وسط البلد ، حولت فيها إلى أن حل الليل ، وتدفق البرد متوحشًا يركض بين الأزقة ، وينفلت في الشوارع . تبدى لي الضياع طائرًا غرائبيًا يغرس مخالبه في روحي العطشى لمن يسندها وهي على مقربة من السقوط . الأمر أشبه بحال النهر الذي لولا شكل الوادي وضفتاه لما صار نهرًا ، حدقت بكل الوجوه لعلي أصادف السيدة نون ؛ فعلت ذلك رغم يقيني من أنها باتت واحدة من الأشياء التي فقدتها قبل أن أربحها ، لكن وجهها كان معلقًا كبندول ساعة أمام عيني لا يغادرني . جلستُ في مطعم صغير المساحة وأكلتُ صحن فول وشربتُ كأس شاي ، لم يكن في المطعم إلا أنا ورجل خمسيني بدا لي متسولاً ، أكل بعجالة وغادر يسعل وينفخ في يديه الصغيرين ، ثمة صورة مهترئة للبحر ملصقة على جدار المطعم ، في منتصفها صياد يرمي بشباكه في الماء ، فتحت هاتفي أتأمل صورة السيدة نون ، ليتني أملك أن أخترق هذه الصورة وأعود إلى

تلك اللحظة وأعيد تشكيلها من جديد ، كتبت في فيس بوك :

(متى يصير القلب بيتًا؟ حينما يغفل الوطن عنا منشغلاً بثارات السياسة ، وبسقوط الساسة الطوعي في حفرة الخطيئة ، حينما تقسو السماء وتفتح أبواب الصقيع على مصراعيها فتبتكر معنى جديدًا للعراء . قلبكِ بيتي ، أيقنت ذلك منذ الشعاع الأول عندما كسر جدار ظلمتي في ذاك الصباح ، ورفع يدي إلى الأعلى وحرضني على قدمي المتشبثتين بالأرض وأغراني بالتحليق ، يحدث الحب في الحرب ؛ ليهوّن من رائحة الموت ، ويلهينا على غفلة من الظل عما حدث من خراب ، يحدث الحب في الحزن ؛ ليزيل من فم القلب كرة شوك دسها الوقت خطأ وأحجم عن الاعتراف بالخطيئة ، يحدث الحب وقت الأسى ليدفعنا للغناء كأب يدفع بنتًا مبتورة القدمين للرقص على أرض المخيلة ، يحدث أن تمضي كل تلك السنين ، وأحبك في دقيقة خاطفة كرصاصة أخطأت هدفها فتحرشت بسكينة الهواء) .

أغلقت المحال أبوابها ، وتراجع عدد المارة والسيارات شيئًا فشيئًا ، إلى أن ما عدت أرى في الشوارع إلا القطط ، ودوريات الشرطة ، وبعض المخمورين . يبدو المطر حميميًا حينما نراه عبر زجاج النوافذ ، ومن ورائنا موسيقى تجعل الأشياء على نحو مختلف ولذيذ ، وها أنا أرى وجهه الآخر موحشًا قبالة العراء ، فالمدن في المطر قفر مرعب . تعبت قدماي ، فجلست تحت مظلة للباص العمومي في شارع الملك حسين ، طوقت جزءاً من عنقي بياقة سترتي ، وتأملت الفراغ . كل الأبواب موصدة في قاع المدينة ليلتها إلا باب الصقيع ، أصاب الصمتُ كل شيء حتى هاتفي الذي ما عاد جرسه يقرع ، فيأتيني صوت أحدهم يسأل عن كتاب ما . نظرت في شاشته ، لم يتصل أحد ، نقرت على أيقونة

الفيس بوك أقلب صفحاته ، فوجدت صورة كانت قد نشرت للتو لإياد سيل جالسًا قبالة موقدة فاخرة ، أرفق بالصورة عبارة مخادعة ، كأنه يوجه رسالة لأحد ما : (برفقة الأصدقاء) . لكنه نسي أن هناك مشبك شعر نسائي على طرف حجر الموقدة ، إنه بيته السري الذي عرفت عنه حينما اخترقت حسابه .

توقف الباص قبالتي ، وفتح بابه فصعدتُ إليه ، لم يكن مهمًا إلى أين سيأخذني ؛ فما عاد لشيء قيمة ، وما عادت لدي تلك النظرة السرية إلى عجلة الوقت كيف تمضي إلى الأمام ، كنت كورقة شجرة يابسة كالتي رأيتها عبر نافذة الحافلة تطفو على سيل الماء المنحدر نحو وسط البلد ، لم أكترث بإحساسي المؤنّب على ذهابي إلى حيث تمضي تلك الورقة لتسقط في الأنفاق السفلية للمدينة ، بلادة غريبة جعلتني حتى لا أفكر بأن أجد مأوى لي والبرد يتكاثر بشراهة موجعة . ألقيت نظرة سريعة حولي ؛ نصف مقاعد الحافلة شاغرة ، بعض الوجوه ملأى بالصمت والتعب ، وبعضها تتأمل شتاء جاء ليغسل ذلك الليل ، ويخلي المدينة من عابريها ، ويُبقي على مشرديها الذين تدارى بعضهم بالأزقة . استحال ليل عمان عبر نافذة الحافلة إلى فيلم سينمائي صامت أثار بي مزيدًا من الإحساس بالفقد ، فتحتُ حقيبتي ولذت بالقراءة في كتاب حول ديوجين وقد سخر من كل شيء ، وجاب الشوارع حافيًا يتوكأ على عصاه ، يحمل قنديلاً في وضح النهار وما من مسكن له سوى برميل خشبي . همست بسري : سأدرب نفسي على أن أمضي في طريقه منذ هذه الليلة ؛ فلا قيمة لشيء بما أن الزيف صار عباءة ضخمة تغطي بدن هذه المدينة ، لن أكره شيئًا ، ولن أحب شيئًا سوى حريتي .

أشار منبه هاتفي إلى رسالة كانت من الدكتور يوسف السماك :

- عزيزي إبراهيم ، رغم ما تعانيه جراء ذلك الصوت الذي يستبد بك إلا أنك أكثر قوة مني ، ها أنت تطلق ساقيك للريح غير آسف على بيتك الذي طردت منه ، إيمان عظيم بنفسك ، وهذا ما يمكن رغم الشقاء الذي تعيشه أن يجنبك ما يحيق بي .

استغربت هذه الرسالة ، بل صعقني ما جاء بها :

-كيف عرفت أنني تركت بيتي؟

- أنت كتبت لي؟

يا إلهي! كيف حدث ذلك؟ تفقدتُ خانة المرسلات فاكتشفت أني بالفعل كتبت له عدداً من الرسائل . جاءت منه رسالة جديدة :

- قلت لك في الرسالة السابقة إن هناك ما أخفيه عنك ، هل تعلم أن أكثر ما يمكن أن يدمرنا في هذه الحياة هو عدم قدرتنا على البوح بما تخبئه الذاكرة؟ تخيل أنك ترى والدك أمام عينيك ولا تجرؤ على أن تقترب منه ، وسيهزأ بك لو ناديته يا أبي ، سيقول لك اغرب عن وجهي أيها المعتوه . وتخيل أنك تنظر إلى بطاقتك الشخصية وتجد اسمك ملحقًا باسم رجل آخر ، إنها المنطقة الأكثر إرباكًا ، هذا ما جرى لي ، إلى درجة أنني لا أجرؤ على الإنجاب ، إذ أدرك أنني لن أتقن دور أب لم أعشه ، لم أحس به ، ولم يتسن لي أن تتشكل بي تلك التفاصيل التي يمكن أن تصنع مني رب عائلة) .

أغلقت الهاتف من دون أجد تفسيرًا لرسائل كتبتها للدكتور يوسف بلا وعي مني . كيف كتبتها ومتى؟ ولماذا نسيت ذلك؟ هل حدث خلل لدماغي؟ تناسيت الأمر رغم ما أضاف لي من رعب ، وغرقت بالكتاب لكني لا أدري كم أمضيتُ وقتًا في قراءته ، هل نمت ، أم أغمي علي؟

هل نزلت من الحافلة واستقللت أخرى؟ شيء غامض من هذا القبيل حدث لي أستعيده كطيف خفيف . لكن الذي أتذكره أن الحافلة لفظتني في الشارع حينما لم يتبق فيها إلا أنا . وقفت على الرصيف أنظر إلى شوارع غير التي ألفتها ، بنايات فخمة محاطة بأسوار عالية ، سيارات فارهة ، ونوافذ لا يلوح من ورائها أحد . انفجرت السماء عن مطر يحجب -كأنه دخان يصعد من الشوارع- كلُّ شيء عن عيني . راح البرق يصول ويجول في الأفق ، وأخذ صوت الرعد يدوي مثل قصف جوي مباغت لمدينة آمنة ، فأبرقت في ذاكرتي مشاهد من الحرب العالمية ، احتميت بمظلات بعض المحلات ، لكن المطر كان أقوى من كل شيء ، فركضت لا أدري إلى أين ، ركضت مسافة تنحدر مرة ، وتعلو مرة أخرى ، إلى أن وصلت شجيرات على منحدر سلكته فكان زلقًا : أسقط ، وأنهض ، فوجدتني أسفل طرف جسر ضخم اتكأ طرفاه على جبلين واصطفت على حوافه أضواء براقة . (حظيت الآن بسقف) . قلت لاهثًا وأنا أستطلع المكان الذي أمسيت فيه ، والهواء يمر من تحته بكل جنونه البارد ، مثلما تمر سيارات قليلة من الشارع العريض الذي شُيِّد أسفله . أرخيت بدني على الجدار أطل من مكاني العالي على ذلك الشارع . كيف تعثرت الأيام ببعضها إلى أن وصلت إلى مكان مثل هذا؟ وأي خطأ تناسل من بعضه على هذا النحو المريب؟

أخذ الضباب يتدفق من كل الجهات ، مرة أراه أبيض ، وأخرى أخاله أسود مصحوبًا بأصوات نائحة ، وضحكات تأتي من مكان واسع وفارغ .

- صاحبك حامل المصباح لم يتذمر بل تلذذ بتشرده ، إن كنت جادًا عليك أن تحترم موقفك .

أفزعني الصوت وهو يخرج من أذني فاصطدم رأسي بالجدار، ورحت أمسح دمًا دافئًا سال من رأسي على جبيني، مختلطًا بما تبقى على وجهي من ماء بارد، كان جرحًا طفيفًا ضمدته بمنديل.

قال بوتيرة مرعبة شامتة:

– عش بعض ما قرأتَ لعلك تعلق الجرس.

هربت منه خارج الجسر، ووقفت تحت المطر فغادر. عدت إلى مكاني الضيق الهابط، وجلست أفكر بما أنا فيه؛ إذ كان يتنازعني شعوران: واحد ديوجيني يدفعني لتقبل ما يحدث، وآخر قادم من فكرة غاستون باشلار عن البيت الدافئ، بذكرياته وأسرار الطفولة فيه. اجتاح البرد جسدي، فراحت أطرافي ترتعش، والبرق يضيء لي جزءًا من المكان كلما جاء ضوؤه متجاوزًا البنايات. فركت يدي ببعضهما ونفخت فيهما، ورحت أحك قدمي بحركات متتالية لكن من غير فائدة، فالبرد أقسى مما يمكنني دحره. تفقدتُ ما معي من مال، ثم رحت أبحث عبر هاتفي عن فندق بتكلفة قليلة، كان علي أن أحمي نفسي من ذلك البرد القارس. ثمة وهج لضوء لحته يتمدد على أحد أعمدة الجسر الضخمة، ثم ما هي إلا لحظات حتى سمعت سعلة تردد صداها في المكان، قلت في نفسي ربما هو صوت لأحد المارة؛ لكن هل هناك من مار غيري في ليل هذه المدينة الماطر؟ وهل هناك من هو بلا مأوى مثلي؟ ازداد الوهج وظل انعكاسه مستمرًا على جدران الجسر وأعمدته، وتناهت إلى مسمعي سعلة أخرى، شممت رائحة النار فنهضت من مكاني، ومشيت قليلاً فرأيت شخصًا في زاوية أوسع من التي أويت إليها، يضع رأسه على ركبتيه قرب حفرة النار، لم يرني في البداية، لكنني ما إن اقتربت منه على بعد خطوات أطلب الدفء،

منى انتبه لي ، فزحف مبتعدًا بحركات تنم عن خوف كبير . لم أسمع ...ه سوى سعلة تلاها أنين متقطع ، قلت محاولاً أن أطمئنه :

- لا تخف ، أنا فقط أطلب الدفء مثلك .

لم يقل شيئًا ، إنما قرفص في الزاوية واضعًا يديه على صدغيه ، متراجعتُ قليلاً ، وجلست متكئًا على الجدار ، لم أشأ أن أقترب منه اكثر مما اقتربت رغم البرد الذي كان يتضاعف بمروره من أسفل الجسر . زحفَ نحو النار وراح يُقرِّب يديه منها ، في تلك الأثناء لعج برق جديد أنار المكان لبرهة فرأيته ، إذ بدا لي شابًا نحيلاً في العشرين من عمره ، نظر إليَّ وفرك يديه وكتفيه ، وحينما وجدني أحدق به تراجع ، ثم التقط عصًا من تحت شيء بدا لي فراشًا ، وأمسك بها ينظر إلي مرتابًا ، وغير مطمئن .

استحكم البرد بي وراح يخدر جسدي ، ماذا لو مشيت نحو حفرة النار غير آبه بذلك الفتى . كنت أتساءل وقد فقدت قدرتي على تحمل المزيد من برد بدا لي يعاقب عمان على شيء غامض ، لحظات قاسية مرت فيها أغبط ذلك الفتى على قربه من النار في زاوية لا تختلف كثيرًا عن الزاوية التي أقرفص فيها كقرد مصاب في قدمه . مضت ساعتان والمطر يزداد غزارة ، والبرد يتكاثر بشراهة ، تكورتُ أكثر ، وأرخيت رأسي على ركبتي ، مرة أفكر بما أصبحت عليه ، وأخرى بأمر فتى بدا لي أننا في قارب واحد نيمم شطر مصير غريب . سمعته يسعل ، التفت إليه فأومأ لي بيده . تقدمت نحوه بحذر حتى لا يجفل مني وألقيت عليه التحية بتوجس :

- مساء الخير .

قلت ذلك وجلست قرب النار ، بل أكاد أكون قد التصقت بها

لفرط البرد وقد نفذ عبر مسامات جسدي . كنت أسمع حشرجة
صدره ؛ إذ بدا لي مصابًا بنزلة برد أثرت على قصباته الهوائية . قلت
في نفسي لن أتحدث إليه الآن ، سأتركه يطمئن إلي أكثر . تصاعد
البخار من ملابسي المبتلة أمام ألسنة النار وقد ارتفعت بعد أن ألقى
قطعتي خشب عليها ، وبدأ الدفء على استحياء يلامس جسدي
ويوقظ أوجاع عضلاتي إثر مسيري ساعات طويلة ، رفعت رأسي
ونظرت إليه فأشاح بوجهه عني ، رأيت خلفه عدة قطع كرتونية اتخذها
كفراش ، وكيسًا فيه عدد قليل من أرغفة الخبز ، وزجاجة ماء . شممت
رائحة سمك التونا ، فرأيت علبة مستهلكة في المكان . قلت أطمئنه

- لم آت هنا لأزعجك .

أشاح بوجهه عني من جديد ، وصوت حشرجة صدره ما تزال
بادية وهو يكتم سعاله .

- أنا مثلك لا مأوى لي ، هربت من البرد إلى هذا المكان
بالصدفة ، فأرجوك لا تخف .

لذت بصمت قصير أحدق بالنار ، ثم نظرت إليه ووهجها يكشف
شيئًا من وجهه ، فرأيت فيه شيئًا من الوسامة :

- نحن خائفان ، لهذا نحن هنا ، بإمكانك أن تنام ، أرى أن لك
فراشًا هنا .

ازداد سعاله وراح يضع يده على صدره ويكح مرات ، مصدرًا
صفيرًا عن رئتيه ، وبدا لي متعبًا وعلى مقربة من أن يخور ما تبقى من
قواه . تلبسته موجة السعال أكثر ثم للحظة فقد قدرته على التنفس ،
وأخذ رأسه يترنح ويدب بجسده الارتخاء . اقتربت منه ووضعت يدي
على ظهره ، والأخرى على صدره أساعده على استرداد الهواء ،

ماكتشفت أني ألمس فتاة وليس شابًا ويدي على نهديها . جفلَت ودفعتني بخوف واضطراب شديدين ، وابتعدتْ ثم نظرت إليَّ بريبة وبدنها يرتعش وسعالها لا ينقطع ، تملكتها نوبة خوف صارت معها تبكي وتئن مصدرة أصواتًا متقطعة . أفضل ما كان علي فعله في تلك اللحظة هو أن ألتزم الصمت ؛ لئلا تهرب ويحدث لها ما لا يحمد عقباه . بدأ اضطرابها يتراجع حين وجدتْني لا أشكل خطرًا عليها صامتًا أنظر إلى النار . استلقت في فراشها متعبة فزدت النار خشبًا ، وأخذت أفكر ما الذي يمكنني فعله لفتاة مريضة ومشردة في ليلة مثل هذه وهي مصابة بالربو ، مرض عانى منه أخي عاهد لسنين عرفت خلالها الدواء الذي يخفف من حدته .

- هل لديك دواء؟

كانت تضع ذراعيها على عينيها حينما حركت رأسها نافية ذلك . تحسست جيبي ، إذ كان المبلغ الذي تقاضيته ثمنًا لبيع أثاث البيت ما يزال في مكانه . مسحت على شعرها القصير ذي القصة الرجالية :

- لا تقلقي ، سأذهب لأحضر لك الدواء .

قبل أن أخرج من تحت سقف الجسر جاء الصوت حزينًا :

- كلاكما خائف .

مضيت في طريقي أحاول تجاهله ، أسقط وأنهض ، ثم جاء يصرخ بغضب :

- لكنكما جبانان .

كان سيل الماء يجري على طرف المنحدر ، وبالكاد استطعت المشي بعد عدة سقطات ، إلى أن وصلت إلى الجهة التي كنت قد دخلت منها . لم يتوقف المطر عن الهطل ، بل ازداد غزارة . صعدتُ المنحدر

فغارت قدماي بالوحل ، وصارتا ثقيلتين إلى أن وصلت الشارع فتخلصت من الكتل الكبيرة للطين الذي علق بحذائي . كان علي أن أمشي مسافة لأجد صيدلية ، ركضت وأنا ألتفت ورائي لأحدد الجهة التي أتيت منها ؛ حتى لا أتيه . أصابني التعب فوقفت ألهث ، وأنظر إلى كل الجهات أفتش عن صيدلية فلم أجد . عدت من الطريق ذاتها مسرعًا فعثرت على واحدة ما تزال تشرع بابها ، كانت إحدى المعجزات التي لم أتوقع أنها ستتحقق لي في ليلة مثل تلك . حينما رآني الصيدلاني أعبر الباب بهيأتي الملطخة بالوحل أشار إلي بيده أن أبقى قرب الباب ، ونظر إلي مستغربًا ، شرحت له ما تعاني الفتاة ، وطلبت منه الدواء ذاته الذي كان يستخدمه أخي عاهد ، مشى نحوي وناولني ما أريد ، قلت وأنا أهم بتجاوز الباب نحو الخارج :

- ما اسم هذه المنطقة؟

نظر إلي بعينين مشفقتين :

- عبدون .

- ألا تعرف مكانًا قريبًا من هنا يبيع مشروبًا ساخنًا؟

مشى الصيدلاني نحوي متعاطفًا معي وخائفًا في الوقت ذاته من أن يورط نفسه إن بادر وسألني عن حالتي . أشار نحو محل ببابه ضوء لامع :

- ذلك محل للمشروبات الساخنة .

اشتريت كوبين من الشاي ومضيت ، بينما الضباب يتكاثر كأنه دخان ناجم عن حريق هائل في مكان ما من هذه المدينة . كدت أتيه وأنا في طريق العودة ، لكنني رأيت أضواء الجسر تلمع فعثرت على طريقي . إذن مأواي هذه الليلة أسفل جسر أنهى من علوّه عدد من

الحزانى حياتهم ، أي مصير هذا يا إبراهيم؟ حيث البرد ، وحيث فتاة مريضة لا تعرف عنها إلا ذلك الحزن الذي أغرق روحك ببكاء خفي .
وقفتُ تحت طرف الجسر أفكر : ماذا لو لجأت أنا وهذه الفتاة إلى فندق ، او أي مكان قابل لمداراتنا عن كل هذا البرد؟ حل بدا لي على وجه السرعة محض محاولة محكوم عليها بالفشل مع فتاة منهكة القوى ، وبمال لن يكفينا إلا لأيام معدودة . قلت لها حينما وصلت وجلست مقربها وأضفت شيئًا من الخشب للنار :

- اشتريت لك بخاخًا يسهل عليك التنفس ، إضافة إلى أدوية أخرى ستداويك مما تعانينه .

أسندت جسدها وبدت لي مطمئنة بعض الشيء حينما ناولتها الدواء ، ومن ثم أعنتها على استنشاق البخاخ . قالت بصوت فيه الكثير من الوهن :

- شكرًا .

فتحت غطاء كوب الشاي ، ووضعته بين يديها . ارتشفت منه ، ونظرت إلي ، فرأيت عينيها تلمعان بالدمع ، إذ كانت على مقربة من البكاء :

- ماذا لو لم تأت؟ ما الذي سيحل بي في هذه الليلة المخيفة؟

ربت على كتفها :

- كل ما عليك هو أن تنامي . بعد ساعة سيتلاشى جزء من الأعراض .

قلت ذلك رغم أن البرد كان يقصي أي احتمال للنوم ، لكنها ليلة وعليها أن تمضي . استلقت الفتاة متكورة على نفسها في فراش مكون من عدة طبقات من الكرتون ، فخلعت سترتي ووضعتها عليها ، ثم

أضفت شيئًا من الخشب للنار .كانت فتاة طويلة ، ممشوقة القوام ، ترتدي ملابس رجالية ، ما الذي أتى بها إلى مكان مثل هذا؟ تساءلت في سري وأنا أنظر إلى الشارع الذي يمر من تحت الجسر وقد حُجب جزء منه بالضباب الكثيف . إنها الليلة الأولى يا إبراهيم ، كم مصباحًا يلزمني لأحمله معي وأنا أسير في شوارع هذه المدينة التي تتخلى عن مريدها بكل هذه السرعة؟ كم خطوة ستوصلني إلى قرية ما عادت قرية ، وما تبقى لي فيها أحد أطرق بابه ، وقد اختطفتهم يد الموت بشراهة قاسية ، قرية باع أبي بيتنا فيها ، فباع طفولة كانت للتو تحوش ذكرياتها في أركانه .

***

عند الفجر استيقظت من نوم لا أدري كيف باغتني رغم هجوم البرد الشرس ، نوم كان ممتلئًا بالكوابيس والهلوسات . حينما صحوت وجدت سترتي على كتفيّ ، بينما الفتاة تجلس قرب النار وقد أطعمتها مزيدًا من خشب تبقى من أعمال بناء الجسر . لقد آثرتني على نفسها قبالة برد تصحو معه أنانيتنا في الدفء . كانت تنظر إلي بعينين باسمتين رغم التعب ، فرأيتها على مقربة من أن تقول شيئًا ، لكنها كفت الكلمات عن فمها . أزلت السترة عني ولففتها عليها :

- أنت مريضة ، وبحاجة لها أكثر مني .

قالت وهي تحاول أن تصلني كلماتها من بين سعلاتها المتكررة :

- شعرت بدفء لم أشعر به من قبل .

حركت قطعة خشبية سقطت عن مستقر النار ، ونظرت إلى وجهها الذي أخذت تدفئه بيديها الصغيرتين :

- ما هو هذا الدفء؟

- عشت سنين في بيت رغم ما فيه من مواقد إلا أني عانيت البرد ، وها أنا أسفلَ جسر في ليلة باردة يجتاحني الدفء لمجرد أنك اسرعت تحضر لي الدواء .

هدأت الريح ، وتبقى منها جزء يمر من أسفل الجسر باردًا وقاسيًا ، والجزء الآخر تحجبه عنا شجيرات قريبة .

- صدقني لم أقلق بشأن البرد ، لكني كنت خائفة من العتمة ، ومن أي شيء يمكن أن يقع لي .

- أتفهَّم ذلك .

بدت لي الفتاة رغم الإعياء في تحسن طفيف ؛ فقد تراجع شيء من حشرجة صدرها . قرَّبت يديها من النار وقالت بخجل :

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- فقدت كثيرًا من الأشياء وآخرها بيتي .

ضمت ساقيها فجأة ؛ إذ نسيت نفسها فاسترخت . طغى عليها حوف ما لبث أن أخفته حينما وجدتني أنظر جانبًا .

- هل لتنكرك بزي الرجال علاقة بسبب وجودك هنا؟

بدت مترددة بالإجابة فتشاغلَت بالنار تحرك جمرة بعود وتعيدها إلى مكانها . مسحت أنفها بكم سترتها :

- نعم له علاقة .

ألقت العود على الجمر فاشتعل ينير شيئًا من وجهها . حدقتْ بضياء الفجر وقد ارتفع فوق بنايات عمان مع انسحاب الضباب ؛ فتراجع شيء من شحوبها :

- تنكرت لأنجو من الرجال لكن ذلك لم ينقذني ؛ فقد تعرض لي أحدهم وحاول اغتصابي .

قالت ذلك وأخذت ترتعش ، ثم استلقت على جنبها في الفراش الكرتوني ، ونامت سريعًا مثل قطة ألفت شخصًا وتمددت بقربه . أي صدفة هذه التي جمعتني بفتاة أصيبت بما أصبت به؟ فتحت هاتفي وقد تبقى فيه شيء من الكهرباء ، ورحت أنظر في صورة السيدة نور البحر من أمامها أذنٌ كونية تصغي لأسرارها الدفينة . كتبت في الفيس بك أُبعد يد الوحشة عن عنقي :

(في البرد تسقط أحلام الوحيد إلا صورة الحضن الدافئ . الحرارة تطرد الماء من الأشياء بحجة التبخر فينتصر الجفاف ، والبرد يجلب أمنيات العصافير بمزيد من القش لتحافظ على أعشاشها . ها أنا الآن وجهًا إلى وجه مع سكاكين العراء الحادة ، لست حزينًا ، لست خائفًا لكني أحتاجك جدًا) .

أمضيت ما تبقى من الوقت مستيقظًا ألقي الخشب لنار بدت لي تَعبَة من مهمتها ، إلى أن اتضحت معالم الجسر أكثر ، وبانت المدينة على حقيقتها اليومية . استفاقت الفتاة وألقت علي تحية الصباح بصوت بدا لي أفضل مما مضى ، ثم أخرجت من كيس علبة جبن وأعدت ساندويشتين وسخنتهما على الجمر ، ثم قدمت لي واحدة ، وراحت تأكل وتتفحصني ، وقد جاء النهار ليبوح بكل شيء . كان لها وجه أسمر ممتلئ فيه شامة عند خدها الأيمن ، وعينان واسعتان يتحرك بؤبؤاها فيهما بسرعة ، كأن بها خوف من أي حدث طارئ . كانت جميلة بذلك القدر الذي لم يخفه التعب ، والتنكر بزي رجل .

– لو أني التقيتك في النهار لما انطلى علي هذا الزيُّ .

ابتعدتْ قليلاً ووجهت إلي نظرة جانبية :

– ماذا تقصد؟

- أقصد أنك لم تنجحي بمداراة الفتاة بهذه الملابس الرجالية .

ساد صمت قصير بيننا وقفتُ إثره أنظر خارج ملاذنا ، حيث ،ففت السماء عن هطل المطر . بدا لي أن خوفًا ما يداهم الفتاة كأنها اعتقدتْ أني أضمر لها تقرب الرجل لامرأة في خلوتهما .

- هل تنامين هنا كل يوم؟

قلت ذلك وأنا أنظر نحو البنايات ، والشوارع التي رأيتها للتو تعج بالسيارات . جاء صوتها من ورائي حزينًا :

- لا ، هذه الليلة الوحيدة التي نمت فيها هنا .

التفتُ نحوها :

- يبدو أن المنخفض الجوي سيتجدد ؛ هناك الكثير من الغيوم السوداء في الأفق ، ألن تغادري؟

بدت محتارة وخائفة تحدق بي ثم تنظر خارج الجسر . حملتُ حقيبتي وعلقتها بكتفي :

- لو مكثتِ هنا ليلة أخرى ستموتين من البرد .

قالت بصوت خجول متوسل :

- أين ستذهب؟

كان ما يزال في حفرة النار شيء من الجمر فجلست قربها لا اعرف بماذا أجيبها ، وبماذا أجيب نفسي :

- لا أدري . البارحة غادرت بيتًا لي فيه الكثير من الذكريات : منها ما هو موجع ، ومنها ذكريات مبهجة أظنني ما زلت أحيا بسببها . وها أنا هنا تحت سقف جسر أتى إليه بعض المحبطين وأنهوا حياتهم من علوه .

كانت الفتاة تنصت باهتمام :

- أكمل .

- ماذا أكمل؟ هل أقول لك إنني قررت البارحة أن أكون ديوجين؟ فلا أنا صرت مثله ، ولا احتفظت بإبراهيم .

- من هذا؟

قلتُ وعيناها الواسعتان تضيقان ، تداري ضحكة خشيت أن تطلقها :

- إنسان أمضى عمره يبحث عن إنسان ولم يجد ، سأذهب، ولكنني لا أعرف إلى أين .

أزالت الغبار عن مؤخرتها بضربات متتالية :

- ثمة بيت مهجور يمكننا أن نأوي إليه إلى أن تتدبر أمرك .

نظرتْ نحو ما لاح لها من الأفق ، وعلى وجهها حزن ، وتعب يعلوه خوف واضح :

- لكن .

- لكن ماذا؟

كانت ستقول شيئًا وتراجعت :

- أنت محق ، يبدو أن هناك عاصفة قادمة .

ابتسمتْ رغم مكابدتها البرد :

- ما اسمكَ؟

- إبراهيم ، كانوا ينادونني بإبراهيم الورّاق ، وأنتِ ما اسمكِ؟

- ليلى . لكن ليلى مَنْ؟ لا أعرف ، رغم أنهم أضافوا لاسمي في بطاقتي اسم أب ، وأم ، وجد ، ورقمًا وطنيًا يحمل عددًا من الأصفار .

٢

إبراهيم
(البيت المهجور)

(أنا مثلك يا إبراهيم بلا عائلة ، لكنك محظوظ فأنت تعرف من هم عائلتك ، ولديك الكثير من الذكريات ، أما أنا فلا شيء لدي) .

كانت ليلى تحدثني ونحن نترك خلفنا جسر عبدون ، جسر كبير يقع بين جبلين محمول على أعمدة خرسانية ضخمة ، صممت على شكل أشخاص يرفعون أيديهم إلى الأعلى ، كأنهم مشيعون يحملون تابوتًا كبيرًا . يحدث أن تصور لنا أمزجتنا السوداوية مقاصد وهمية ، لكن إشارات المدن غامضة توحي بأشياء ربما ندركها في وقت متأخر . كم إشارة؟ كم علامة رأيتها يا إبراهيم في حياتك؟

كان بودي لو أسلك طريقًا غير طريق ليلى ؛ لكني خشيت من مداهمة صوت ذلك الشيء من جديد ، لقد كان شكلاً من أشكال الهروب ، فإن اعتزلتُ استبد بي وخلط كل شيء في دواخلي . صمتت ليلى وقد رأتني شارد الذهن ، ومضت تسبقني بخطوات ، وتضع يديها في جيبيْ بنطالها ، كانت صغيرة على ما يعتريها من تعب ، تقفز على الرصيف ، ثم تعود له وتنظر إليَّ ضاحكة ، ثم تتبدل ملامح وجهها كأنها تذكرت خطرًا يطاردها . لم أوجه لها الأسئلة لأعرف عنها المزيد رغم فضولي ؛ إذ وجدتها من ذلك النوع الذي من الأفضل أن يتحدث من تلقاء نفسه .

تجاوزنا الدوار الرابع نحو الثالث ، ولم أسألها أين يقع ذلك البيـ..
الذي كنا نسير نحوه ، لم يكن هناك أي أهمية للوقت عندي ، ولا أي
ضيق من شيء سوى من برد قاس يخفف المشي من سطوته . التفتـ
نحوي وقالت كأنها قرأت ما فكرتُ به :

- وجدوني رضيعة ملقاة على باب أحد مساجد عمان ، فأخذوني
إلى الملجأ ، هكذا قالوا لي حينما صرت في الثالثة عشرة من عمري ،
فصرت أفكر بأبي ، وبأمي ، وبعائلتي ، وبالعالم الذي يقع خارج أسوار
الملجأ . في الحقيقة لقد فكرت بذلك في عمر مبكر ، وسألت لاحقًا
الخوف ، إنه الخوف الذي جعلني أفعل ذلك .

أخذ الجوع يسرق ما تبقى من طاقتي . قلت لها إنّ بحوزتي مبلغًا
يسمح لنا أن نأكل ، هزت رأسها موافقة ، ثم واصلت مشيها مصوبة
عينيها إلى الأمام ، كأنها تستعيد حدثًا ما :

- لم يكن المشرفون والمشرفات لا آباء ولا أمهات لنا ، كانوا مجرد
موظفين مارسوا علينا دور السجان ؛ ليحافظوا على وظائفهم التي بدا جليًا
لنا أنهم يمقتونها ، ويتذمرون منها ، ومن الحياة مع لقطاء وأبناء حرام . لا
نعرف عن الحياة خارج الملجأ سوى قليل رأيناه حينما ذهبنا إلى المدرسة ،
لكن ما عرفناه كان أقسى مما عشناه ، فقد امتنع الطلبة منذ اليوم الأول
عن مخالطتنا ، إذ سمعت إحداهن تقول عندما تقربتُ منها : (أهلي
يمنعونني من اللعب معك لأنك بنت حرام) . حينما صرت في الثالثة
عشرة عزلونا عن الذكور ، ولم أفهم لماذا؟ أتذكر تلك الليلة وأنا أبكي في
فراشي حتى مطلع الفجر ، كيف ما عاد بإمكاني أن أكون بقرب سائد ،
الذي مع الأيام تحول إلى إنسان شرس سجنوه في غرفة مظلمة بلا طعام ؛
فتغير على نحو موجع . نظرتْ إلي بعينين دامعتين :

- وكلما وجدوا بيننا شرسًا ، يضربونه ضربًا مبرحًا ؛ فيتوحش بعد ان سمعهم يصفوننا بأبناء الحرام . جعلوا الفتيات يكرهن الشباب ، والشباب يكرهون الفتيات ، وكلما لاحظوا أحدهم يمازح بنتًا يضربونه ويعنفونه . كان بيننا شاب مصاب بالتلاسيميا لكن لم يتسن له الذهاب إلى المستشفى لتغيير دمه ؛ فالباص لم ينقله ؛ لأن المدير كان يستخدمه لأغراض شخصية . انهارتْ صحته فحملوه مجبرين إلى المستشفى ، في ذلك اليوم لم يرافقه أي مشرف ، ولم يزره أي واحد منهم ، تدهورت صحته فمات ودفن من دون أن يحضر مراسم دفنه إلا مشرف واحد ، وزملاؤه في الملجأ .

ازدادت الريح وبدا أن عاصفة أقوى في طريقها إلينا . صار أنف ملى أحمرَ من شدة البرد ، وبدا التعب يستبد بها وصوت حشرجة صدرها في ازدياد ، توقفنا تحت مظلة للباص العمومي وساعدتها في استنشاق البخاخ ثم مضينا . توقفتْ فجأة ثم صمتتْ تفكر بشيء ما . كسا الخوف وجهها وبدت قلقة بشكل لافت . قالت :

- أريد أن أعود إلى الجسر ، أنا خائفة .

وحينما رأتني مستغربًا ابتسمت :

- لا عليك دعنا نكمل طريقنا .

ضحكتْ وهي تنظر حولها ثم بي :

- هذا العالم جديد علي ، لا أعرف لا أناسه ولا أماكنه ، سمعت إحدى المشرفات مرة تصفني بقطة مغمضة العينين ولم أفهم إلا الآن ما معنى أن تكون لك عينان مبصرتان ولا ترى بهما .

مشينا إلى أن تجاوزنا الدوار الثالث ، ثم سلكنا شارعًا ينحدر إلى وسط البلد ، دخلنا مطعمًا لم يكن فيه سوانا حينما جلسنا ، وطلبنا

طعامًا . نظر العاملون إلينا ، يتفحصون هيئاتنا التي تشبه هيئا
المتسولين ؛ لنا ملابس متسخة ، وأحذية ملطخة بالطين ، ووجوه
معتمة ، وعيون ذابلة لم تذق إلا القليل من النوم . أتى أحدهم
وأشهرت أمامه ما بحوزتي من مال فاطمأن . احتضنت ليلى رأسها
بكفيها ، ونظرت إلي ، كأنها تتساءل بسرها من هذا الرجل الذي ...
ليلة وضحاها أصبحت برفقته . ذهبتُ إلى الحمام بخطوات متعبة
حينها عاودني الصوت :

- حلولك مؤقتة يا إبراهيم .

- لم أضع أي حل لشيء ، أنا أمضي في طريقي لا غير .

- أنت تمشي في نفق لا نهاية له ، ستسقط قبل أن تصل ذلك
الضوء الذي تحسبه شمعة الأمل .

تركتُ الطاولة أفتش بارتباك عن الحمام ، والصوت يقصفني
بحديثه الهادئ الغاضب :

- ليلى عندها حق ، فأنتما لا تختلفان عن بعضكما بشيء ،
لكنها أقوى منك وستعرف هذا .

- لم أدَّعِ القوة ، كما تدعيها أنت وتتبجح بها .

- إنها حقيقتي التي لن أخفيها ، أما أنت فإنك تخفي ضعفًا
كبيرًا وراء هدوئك المصطنع .

كنت أدور حول نفسي حينما خرجت ليلى من حمام النساء
ووقفت ببابه تنظر إلي مستغربة :

- هل أنت بخير؟

التفتُ نحوها وبقيت برهة غير مدرك ما يجري ، إلى أن استفقت
وسألتها عن حمام الرجال ، فأشارت إليه من دون أن تفهم ما بي .

.ه.ت إلى الحمام بعجالة أكابد عذاب ذلك الصوت ، ومكثتُ دقائق .. .مْتُ عبرها وجهي بالماء وعدتُ إلى الطاولة أتمثل الهدوء ، زودتُ هاتفي وحاسوبي المتنقلين بالكهرباء ؛ لأشحنهما . كانت ليلى في تلك الأثناء توجه نحوي نظرة جانبية وأنا أتصفح الفيس بوك ، سألتني باهتمام وقد رأتني متفاجئًا بعد أن قرأتُ خبر موت إياد نبيل :

- ما بك؟

- في ظروف غامضة عُثر على إياد نبيل ميتًا بالسم في بيت ثانٍ يعود له ، وبرفقته امرأة ، إنه الرجل الذي أزيل كشك الوراق لصالحه .

- هل أنت سعيد لأجل ذلك؟

قلتُ والعامل في المطعم يضع الطعام على الطاولة :

- لا أدري .

أكلنا بشراهة ، فهاجمنا التعب أكثر ، ثم شربنا شايًا ونحن ننظر عبر زجاج المطعم إلى المطر وقد عاد من جديد . كانت ليلى ساهمة تفكر بأمر ما وتهز قدمها . قالت بعد أن تلفتت حولها :

- ماذا لو عرفت أنني قتلتُ شخصًا؟

لم يرقْني ما سمعته ، كان في صوتها بداية للبكاء ، وكثير من الخوف . طلبت منها أن تخبرني بما حدث . قصتْ علي ما جرى مع رجل تحرش بها فضربته على رأسه بحجر ؛ وسقط أرضًا .

لم نكن متأكدين مما حل بالرجل ، بحثت في (غوغل) عن حادثة قرب الدوار الثالث ، وفي الفيس بوك ، ولم أجد . طمأنتها أن ما حدث له ربما يكون مجرد إغماء بسبب الضربة لا أكثر ، وأن الأمر انتهى خاصة أنها لا تعرف أين يقطن . توقف المطر بعد أن خرجنا ، وسلكنا شارعًا يسيل ماء كأن أحدًا فتح خرطومًا عند رأسه ، تجاوزنا دائرة ضريبة

الدخل ، لا أدري إلى أين ستأخذني ليلى التي أصبحت على ..، أفضل بعد أن أخبرتني بما جرى لها .

ثمّة كوّة في جدار على يمين الشارع عبرتها ليلى بحذر ، ثم أشا. بيدها تدعوني أن أتبعها . بدا لي المكان كأنه غرفة صغيرة لا سقف لها ، تفوح منه رائحة البول ، وتتكدس فيه القمامة والحجارة . استغر، دخولها إلى مكان مثل هذا ، مع ذلك تبعتها ، فإذا بزاوية تؤدي إلى زقاق ملتوٍ مليء بالقمامة ، من الصعب على أحد أن يعرف بأنه يؤدي إلى الداخل ، إلا مَن يتجاوز تلك الزاوية . عبرتُ الزقاق أسير خلف ليلى إلى أن وصلنا بيتًا مهجورًا عتيقًا بني من الحجر : بابه الرئيـ.. عالٍ ، اعتلاه قوس مزخرف ، تمامًا مثل نوافذه التي بنيت بإتقا. هندسي جميل ، وأحيط بسور هابط فيه مساحة صغيرة صعدت منها شجرة سرو معمرة ، وشجيرات أخرى يبست وما تبقى منها إلا جذوعها . دفعتْ ليلى باب البيت الحديدي ثم دخلت ، فتبعتها أتلمس خطواتي في عتمة يتخللها ضوء خفيف جاء عبر نافذة ، وعبر بعض شقوق في الجدران . بقيت أتعثر بحجارة ، وقطع أخشاب ، وقمامة ، إلى أن وصلنا غرفة قصية لها نافذة واحدة مغلقة بحديد ثبت بسلاسل . في الغرفة عدد قليل من البطانيات البالية ، وملابس مهترئة ملقاة على الأرض ، وللمكان رائحة البول ، ورائحة الرطوبة ، والعفن . جلست ليلى على إحدى البطانيات وأسندت جسدها على الجدار متعبة ، أنفاسها تتعالى بسبب التهاب جهازها التنفسي . استخدمت البخاخ فهدأتْ . تسلل البرد إلينا ، فنهضتُ وأشعلت نارًا من خشب متناثر ، ومن بقايا أثاث ربما كان أثاث البيت ، أو من خارجه ، بينما صوت الرعد والمطر يزيدان من غرابة المكان . أتى شاب ونحن نتحلق

حول النار ؛ شاب قصير القامة ، له وجه دائري ممتلئ ؛ هذا ما استطعت تبطنها أن أتبينه في العتمة التي تشتعل وسطها نار مرة تعلو ألسنتها ، وأحرى يعلو منها دخان أدمع عيوننا وأسال أنوفنا . سأل الشاب مرتابًا :

- عدي؟

- أنا ليلى يا نور .

هرع إليها يسأل بلهفة أين كانت؟ وكيف أمضت ليلة البارحة؟ وهل حدث مكروه لها؟ وقبل أن يتلقى الإجابة أشار نحوي :

- من هذا؟

- إبراهيم .

حكت له باقتضاب كيف التقينا ، فاقترب مني وصافحني ممتنًا :

- شكرًا أستاذ إبراهيم .

كتمتُ ضحكتي أفكر بما قاله ، كيف أكون أستاذًا وأنا مشرد مثلهم لا مأوى ولا أهل لي . أخبرَته بما جرى مع الرجل الذي تحرش بها فعرفه بعد أن وصفته له ، قال لها إن الشرطة ألقت القبض عليه ، فهو صاحب أسبقيات ومطلوب لديهم .

***

قبيل الغروب جاءت فتاتان ، تبعهما شابان ؛ كان واضحًا أنهم دخلوا متسللين فلم أحس بهم إلا وهم يقفون أمامنا يعبِّرون عن إحساسهم بالبرد ، يفركون أيديهم ، ويحركون أقدامهم أرضًا . وضع نور قطعة خشب على طرف الجدار ، وراح يضربها برجله فانكسرت ، ثم ألقاها على النار فاتضحت معالم الغرفة . رأيت فتاتيْن في التاسعة عشرة تقريبًا من عمريْهما ، وشابيْن عشرينييْن تتقاطر ملابسهم ماء . اقتربوا من النار سريعًا ، وحينما رأوا ليلى سألوا بصوت جماعي : (أين

كنت؟) ، ثم استفسر أحدهم عني . عرفتهم ليلى بي ؛ حتى يطمئنوا ، وحكتْ باقتضاب كيف التقينا . ثمة فتاةٌ كانت تهرش فروة رأسها ، وتحك رقبتها ، لها شعر طويل ربطته بقطعة قماش فتدلى خلف ظهرها حدقت الفتاة بي بعينين متعبتين ، ثم قالت بصوت لا طاقة فيه :

- نحن لقطاء لا أهل لنا فأوينا إلى هذا البيت . ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- سلام!

قالت ليلى بصوت حاد تُوقفها عن الحديث . لكنني قاطعتها :

- أنا مثلكم ما عاد لي لا بيت ولا أهل . هذا كل ما في الموضوع ثم إنني أتيت لأوصل ليلى إلى هنا وأغادر .

نهضت حاملاً حقيبتي ، فوقفت ليلى ، ونهض شاب واقترب مني :

- أستاذ إبراهيم ، هذا البيت كما ترى مهجور ، لا تعود ملكيته لنا ، وهو خيارنا الأخير ، فلا يحق لأحد منا أن يدفعك للخروج منه ، أو حتى للبقاء فيه . لكن كما يبدو أنت أكبر سنًا منا ، ووجودك يؤنسني ، ولا أدري عن الآخرين .

- رائد يقول الحقيقة .

قالت ليلى ذلك ، ثم طلبت مني أن أجلس بعد أن أشارت إلى الباب وصوت الرعد يأتي من جديد . اقتربتْ مني وهمستْ لي بتوسل : (أرجوك ابقَ) . صمتت تنتظر ردي ، بينما الآخرون يلتفون حول النار ، رغم الدخان الذي لا يجد منفذاً له ليخرج إلا الباب .

- سأعود .

لم يكن لي حاجة بما تبقّى معي من مال إلا لنأكل ؛ فلم أشاهد

احدًا من أولئك الشبان يحمل معه طعامًا حينما عادوا إلى البيت ؛ اهذا خرجت . بدت السماء كأنها تريد الخلاص مما فيها من ماء مرة واحدة ، فما إنْ حلّ الليل حتى أتت عاصفة قوية ، من الشارع جاء صوت المطر ، والرعد ، وأصوات قليلة لسيارات تمر بين الحين والآخر . قبل أن أنطلق مارًا عبر الزقاق كبر حجم بطني ؛ فتراجعتُ مذعورًا :

- يعيشون في بيت مهجور قرب شارع حيّ في مدينة لا تنام؟ وتعيش أنت بين فيلسوفك المتشرد وبين إبراهيم ، لا أنت ذاك ، ولا أنت هذا .

هربت منه إلى الزقاق فعاد يهددني مرة أخرى ، مخفيًا خلفه غضبًا كبيرًا :

- المهلة لم تنته للآن ، ثمة قائمة بأسماء أشخاص ، وأماكن جاهزة ، سأخبرك بها قريبًا ، أعلم أن لا حق لي بالتصرف قبل نهاية المهلة .

كنت على مقربة من الشارع حين أطلق ضحكة ساخرة :

- امض يا ديوجين .

كيف يحدث لي هذا؟ كائن في أحشائي يدفعني إلى ما لا أريده . كلانا يعرف شكل الخراب ، ولكل واحد منا زاوية في النظر إليه . ذهبت إلى البحر لأحبط ما سيقوم به هذا الغرائبي ، لكن القدر أوقعني في طريق امرأة تمسكتُ بأوهى خيوط الأمل ؛ لأعثر عليها ، أمل ما يزال يبرق أمام عيني في كل شارع أطؤه . ترى هل اخترت هذا التشرد لأعثر على السيدة نون؟ أم أني فعلت ذلك لأني وصلت إلى نقطة لا أستطيع معها قول لا . وكم سأجد ممن هم على شاكلة ليلى في هذه الطريق التي لا أعرف إلى أين ستؤدي بي .

كنت مبتلاً بالكامل حينما كرر الرجل الذي يقف إلى طاولة في مطعم للوجبات السريعة نداءه :

- أنت يا رجل ، ألا تسمعني؟

- عفوًا .

ضحك الرجل وقدر أنني شارد الذهن ، فأخبرته بما أريد من طعام دفعت ثمنه ورحت أراقب النار كيف تشوي اللحم والدجاج قبالة شارع في ليل مترع بالصقيع . ثمة قطة ما إن تقترب من المطعم حتى يصرخ بها عامل له وجه متجهم ، يعمل ويردد كلمات لم أفهم منها سوى ما يتبرم عبرها مما تمر به المدينة من وضع سيء . عادت القطة من جديد وتسللت إلى الداخل هذه المرة ؛ فركض يتبعها ، وتزحلق فسقط أرضًا . الأمر الذي أثار ضحك كثير ممن كانوا مثلي ينتظرون ما طلبوه من طعام . نظر الرجل إليهم ، ثم سألهم بغضب على ماذا يضحكون . صمت معظمهم ، فنهض ومشى يعرج ، إلى أن وصل باب المطعم أشعل سيجارة بتوتر ، وأخذ ينفخ دخانها في الهواء مختلطًا ببخار فمه . ثم رفع رأسه نحو السماء :

- ماذا فعلت يا رب لتعاقبني بهذا الشكل؟ حتى الشتاء ضيق في هذه المدينة! كم علي أن أعمل كثور حتى أحقق القليل مما تريده عائلتي!

رمى بعقب سيجارته في الهواء ثم عاد إلى عمله مستغفرًا . قال وقد صار قريبًا مني :

- لست من أولئك الذين يكرهون القطط .

حملت ما اشتريته من طعام وعدت ، ما إن صرت في الزقاق حتى استباحني الصوت ؛ لهذا سرّعت من خطواتي وقد لحق بي :

(البيوت المهجورة لن تطلعك إلا على الماضي لهذا أنت خاسر) . كان مشهد الكتب التي أضرمت بها النار قبالة البيت لا يفارق مخيلتي منذ أن خرجت ، لكنه هذه المرة استولى علي أكثر ، وبات يوجعني وكأن نارًا تشتعل في رأسي . حملت ليلى من يدي أكياس الطعام ، وقالت قلقة :

- هل حدث شيء؟ أراك لست على ما يرام .

- لا تقلقي أنا بخير .

كان بعضهم قد غفا بقرب النار في فرشات بالية ، والبعض الآخر صامت . ثمة شاب في زاوية الغرفة يضع أنفه في علبة ويستنشق منها . (ماذا يفعل هذا؟) قالت ليلى تجيبني : (إنه يشم الآغو) . لم أفهم لحظتها ما الذي يعنيه هذا ، لكن ضيقًا حل بي حاولت ليلى أن تطرده ونحن نتحلق حول الطعام . أكل الجميع بشراهة ، وعيني على الشاب وقد ألقى من يده علبة الأغو التي انتشرت رائحتها في المكان واستلقى كأنه مغمى عليه . لم أستطع أن أكمل طعامي ، فنهضت أقف قرب فتحة في الباب تطل على الزقاق الذي لا يظهر منه شيء سوى العتمة ، وأفكر : كل شيء في هذا البيت يدفع للحزن والإحباط . أنا في ورطة ، وفي مكان لا يمكنني مغادرته ، ما الذي سيحدث في الأيام القادمة؟ سينفد ما معي من مال ، وستتراجع طاقتي على تحمل هذا التشرد .

لمستني يد فالتفتُ ؛ إذ كانت ليلى تحمل بيدها شيئًا من الطعام :

- يجب أن تأكل .

ثمة صوفة مهشمة عند الباب جلست عليها وأكلت . قلت لها وقد جلست بقربي تأكل ببطء :

- لماذا تهتمين بي؟

جاء صوتها الخفيض بشيء من حشرجة البكاء :

- لماذا اهتممت بي البارحة؟

- كيف لا أساعدك في ليلة مثل تلك؟

تركتُ الطعام جانبًا :

- ونحن أسفل الجسر ورغم خوفكِ الشديد غادرني شيءٌ من الوحشة ، هل تصدقين أن ذلك كان أغلى مكاسبي؟

اقتربتْ مني وأنا أسمع تدافع أنفاسها ، فبدت على وشك البكاء

- وهذا بالضبط ما يجعلني أهتم بكِ .

شهقت بالبكاء ثم قالت وكلماتها تأتي مشوشة :

- منذ أن وعيت على نفسي في الملجأ وأنا أحاول أن أرسم صورة لأبي وأمي ، لكن مخيلتي عجزت ، وهذا أمر كان يثير بي مزيدًا من المواجع . عندما عدتَ تحمل الدواء لي استطعتُ رغم العتمة التي تلفنا أن أرى وجهك . أحسست وقتها أنك الأب الذي أبحث عنه ، صدقني إنّ من هم مثلي في هذه الحياة التي تكثر فيها القسوة لا يريدون إلا أبًا طيبًا مثلك أمام كل هذا الخراب .

وألقت برأسها على كتفي ، وأرخت العنان لما تبقى لديها من بكاء ، وأنا أفكر كيف لفتاة بهذا العمر أن يجعلها الوجع ترى كل هذه الحقيقة .

- أتعلم شيئًا؟

جاء صوتها كأنها تتهيأ للنوم :

- نحن نحمل خطايا آبائنا وأمهاتنا ؛ أبناء حرام في نظر كل من يرانا ، كأن في وجوهنا ما يميزنا عن باقي البشر . أوقفني شرطي يوم

ارتديت ملابس الرجل ثم طلب هويتي . اعتقد في البداية أنني ولد ، ثم حين نظر في بطاقتي ضحك بعد أن اكتشف أنني بنت ، تغير لون وجهه وهو يقرأ رقمي الوطني المميز بالأصفار ، سألني من أين أنا؟ وأين اهلي؟ وأجبرني على أن أقول له إنني خريجة ملجأ ، أنا لقيطة ، بنت حرام . نحن في عالم يبعث على الخوف ؛ فلا يمكن حتى أن نعمل ما دمنا نحمل بطاقة مميزة بعدد من الأصفار ، كأنها تقول لمن يراها إننا لا شيء .

رفعتْ رأسها عن كتفي وأشارت بيدها نحو نيام البيت المهجور :

- هل تعتقد أن واحدًا منهم حتى لو وجد عملاً في مجتمع مثل هذا يمجد الأصول يمكن أن يتزوج؟ الشاب الذي رأيته يدمن شم الأغو واسمه عدي ما يزال يعاني صدمة نفسية جراء موت زميله في الملجأ ، والذي كان مصابًا بالتلاسيميا . ما كانوا يرسلونه ليغيِّر دمه إلا قليلاً ، تخيل كيف يحدث هذا؟

اشتد البرد فأشعلنا نارًا قرب الباب ليخرج دخانها من كوته ؛ بينما كان الجميع قد غرقوا بالنوم ، رغم البرد وصوت الريح والرعد اللذيْن لم يتوقفا طوال الليل عن ذلك الجنون . بقيت ليلى تخبرني بحكايات مَنْ في البيت المهجور إلى أن غفت على الصوفة المهشمة تلتحف بطانية بالية . فتشت البيت عن بقايا أخشاب ورحت كلما خبت النار أزيدها اشتعالاً . تأملت صورة السيدة نون أفتش عن دفء له أن يجنّبني ما يتكاثر في روحي من برد . كيف لي أن أجعلها تلتفت إلي وتحدثني؟ كيف لحركة واحدة تلتقطها الكاميرا في أقل من ثانية أن تصبح عالمي الذي بقي متواريًا وجاء في أكثر لحظات عمري غرابة؟

٣
إبراهيم
(مصائر متقاطعة)

أشرقت شمس أول صباح علي في البيت المهجور ؛ إذ تسللت بضعة خيوط من ضوئها عبر شقوق في الجدران ، فتراقصت عبرها ذرات غبار وكائنات صغيرة . ألمَّ بي صداع ، وأحسست بأطرافي مخدرة جراء البرد ونومي على عدد من القطع الكرتونية . أغمضت عيني أستعيد زمن بيتي في جبل الجوفة ، فغفوت من جديد لتداهمني الكوابيس بشراسة متزايدة ، لكنني استفقت على صوت الباب وهو يفتحه ويغادر ، ثم تبعه رائد ، وسلام ، فلم يتبق إلا أنا ، وليلى ، وعدي ، وفتاة نائمة . لم أكن أعرف إلى أين يغادرون ويمضون نهارهم تسلل الضوء أكثر عبر الباب وعبر كوتين في نافذتين ، فاتضح المكان الذي وجدته سيثير سأم الحيوانات لو أودعت فيه . أسند عدي ظهره إلى جدار حفل بكثير من الرطوبة والعفن ، يحرك إصبعه بإحدى فتحتي أنفه شارد الذهن ، بينما تكورت ليلى في فراشها تنظر إلي من طرف فتحة في بطانية بالية ، صمت بارد لا يتخلله سوى شخير الفتاة ، وأنين تطلقه بين الحين والآخر .

من بيت إلى بيت يا إبراهيم كأن قدرك ألاّ تحظى بألفة وأمان كاملين . في القرية وحينما رأيتَ مصادفة ذات ليلة أباك يضاجع أمك أقعيت في اليوم التالي في زاوية الغرفة تحاول فهم الذي جرى . وحينما

انت أول امرأة ميتة ، وأول عروس تبكي والنساء يودعنها بغناء حزين ، وعلت ذلك . وكلما أردت أن تفهم شيئًا ، أو تتأمل أمرًا ، أو تتلذذ باستعادة حدث تهرع إلى زوايا البيت . كنتَ تشعر بطمأنينة لم تعرف قيمتها إلا عندما ابتعدتْ بك الشاحنة وولجتَ عالم المدينة الصاخب ، كنتَ تضع يدك على عينيك وصوت أبواق سيارات عمان وجلبتها تقتحم مسمعيك . تحاول استيعاب ذلك الإيقاع الجديد لكنك في الآن ذاته تستعيد صراخ أقرانك في القرية وأنتم تركضون نحو الفخاخ التي نصبتموها للعصافير فرحين بصيدكم . كنتَ الوحيد الذي يحرر العصفور من الفخ ويطلقه في الهواء ، إلى أن أقلعت عن ذلك بعد أن اوجعتك العصافير وأيدي أقرانك تفصل رؤوسها عن أبدانها . وحين ماتت أمكَ عرفت حجم فجيعتك ببيتك الأول ، فهمت ما معنى أن يعيش إنسان تسعة شهور في رحم أمه بيته الذي سيبقى يفكر بالعودة إليه رغم استحالة ذلك . كنت تفكر على ذلك النحو وعمان أمامك سر كبير حسمت أمرك حياله ، واكتفيت بطريقك من بيتك في الجوفة إلى الكشك . وها أنت الآن في بيت مهجور . تُرى أي ذكريات ، أي أحلام ، أي حياة حدثت بين جدران هذا البيت لأصحابه ، بيوت متناسلة تشبه خرزًا لو لظمته بخيط ستري البيت الكبير .

مشيتُ عبر الزقاق نحو الشارع ، زقاق يؤدي إلى هذا البيت المهجور الذي يحجبه سور عال ربما لمعمل ، أو لبناية تجارية ، مثل سائر البنايات التي أقيمت في تلك المنطقة . توقّف المطر عن الهطل وما تبقى في السماء إلا غيوم داكنة تركض شرقًا . كانت حركة السيارات والمارة في الشارع اعتيادية ، لكن الهواء بارد وحاد ينخر عظامي ويوجعها ، خرجتُ من الزقاق وسلكت رصيفًا يصعد إلى الأعلى نحو الدوار

الثالث ، أفتش عن متجر يبيع القهوة ، خشيت أن ينتبه الناس إلى ملابسي المتسخة ، لكني تجاهلت خشيتي ؛ فالمدن اعتادت معذبيها ، بل حتى صارت تستغل عذابهم ، وتسرد سيرهم الموجعة فتحيلها إلى أيقونات لعلها تضيء عتمتها .

(لم ينتبه لي أحد ولن ينتبه) قلت لنفسي وأنا أكركر في سري ، وأفكر كيف سأتدبر أمري بعد أن ينفد ما معي من مال ، وأي ورطة سقطت فيها كطائر هوى من علو شاهق . هل هذا ما تبقى لي في هذه الحياة ، بيت مهجور برفقة أشخاص لفظهم الجميع . كانت هيأتي في زجاج المحال وأنا أمشي بإعياء تلوح لي ساخرة مرة ، وحزينة مرة أخرى : لي ذقن غير حليق ، وشعر مبعثر ، وملابس متسخة ، وحذاء مبتل بالماء وملطخ بالطين ، وعينان متعبتان . كيف لي أن أطأ الجمر ولا أكترث بحرارته؟ تتوالى في مخيلتي كتب وأوراق كأنها دولاب سيستقر على رقم حظ معين . أتاني صوت السيدة نون تحكي عن البحر فيختلط بصوت النوارس . وقفتُ أمام زجاج اتضحت فيه هيأتي أكثر من ذي قبل ، فجاء الصوت ساخرًا :

- صاحبك المتشرد تسامى على كل شيء ، وإن كنت تريد أن تكون صورة عنه ، عليك أن تعرف أن أمامك وقتًا طويلاً ، لكن تذكر إن انتهت المهلة لن يعجبك ما سأقوم به .

كان فمي يتّسع في الزجاج حينما صرخت غاضبًا :

- لن أسمح لك أن تهزمني .

أطلق ضحكة ساخرة :

- وهل تعتقد أني أنتظر موافقتك على الانصياع لي أيها الأخرق؟ ثم ما الذي تدافع عنه؟ بلاد نخر جسدها الفاسدون؟

- لماذا أنا؟ اذهب إلى غيري .

- لأنك قرأت ، لأنك تعرف .

- ولأني أعرف أرفض كل ما تقول .

من الداخل خرج رجل يرتدي ملابس أمن من أولئك الذين يعملون في الشركات :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . غادر من هنا يا رجل .

قال ذلك وبقي يحدق بي وأنا أمضي في طريقي ، نظرت ورائي وإذا بي كنت أمام أحد البنوك ، كان الرجل يحسبني مخبولاً ، كيف لو قلت له إنني أتحدث إلى كائن يقيم في بطني؟ ستزداد قناعته بأنني لست سويًا . أقسى ما يحدث للإنسان أن لا يجد وسيلة لإقناع أحدهم بحقيقة لا دليل إليها .

رأيت متجرًا يقابل محل القهوة ، يبيع مستلزمات منزلية ، يُعْرَضُ جزءٌ منها عند الباب : أغطية نوم صوفية ، وسائد ، وكثير من مستلزمات غرف النوم . اعتراني اشتياق إلى لحظة نوم هادئة تطرد ما خلفته بي تلك الليلة شديدة البرودة ، عبرتُ الشارع ثم باب ذلك المتجر فاشتريتُ بطانيات ، وفرشات إسفنجية وعدتُ ، كان بعض الناس ينظرون إلي وأنا أحمل على رأسي ما اشتريته ، لو سألني أحد منهم لأجبته بأني اشتريت دفئًا مؤقتًا في مدينة باردة ، قلتُ لليلى بعد أن وضعت ما أحمله أرضًا :

- هذا ما استطعت شراءه .

رأيتُ في وجهها ابتسامة تبعتها دمعتان سالتا على خديها المتعبيْن ، خرجتُ بعد أن أخبرتها أنني سأعود وصوتها يتبعني ممتنة : (إلى أين؟) . ليس من السهل عليَّ أن أرى إنسانًا يبكي ، إنها لحظة

تشبه انهيارًا سيتلاشى إثره كل شيء ، ولم يكن هينًا أن أرى ليلى
تفعل ذلك وهي التي أخذت تمسك بخيوط لأبوة ضائعة أطرافُها م
في ذلك اليوم اشتريتُ معاطف على عدد الذين كانوا في البيت
وكمية من الطعام المعلب ، وبعض الحاجيات . أمضينا نصف ذلك
النهار بتنظيف الغرفة مما بها من أتربة وحجارة ، وعزلنا الأخشاب
لنستعملها للتدفئة التي وفرتها عن طريق إناء معدني وجدته في
الزقاق . عند المساء عاد من كانوا خارج البيت ، تغيرت ملامح وجوههم
حينما رأوا تبدلاً على المكان : فرشات نوم ، معاطف ، طعامًا ، شموعًا
تضيء المكان ، وإناء معدنيًا فيه جمر ينشر الدفء في المكان . سأل م
بصوت يشبه صوت طفل أربكته المفاجأة :

- كيف فعلتم كل هذا؟

التقطت سلام معطفًا ملقى على فراشها ، ونظرت نحو ليلى الـ
بدورها ابتسمت :

- نعم هذا لك .

ثم التفتت نحو الآخرين وقد قرفص بعضهم قرب النار ، والبعض
الآخر واقفًا :

- هذا ما استطاع إبراهيم فعله .

قلت ويدي قرب النار لمزيد من الدفء :

- هذا ما تبقى معي من ثمن أثاث البيت الذي بعته ، الآن لا
بيت لي إلا هذا الذي أتشاركه معكم ، لا حاجة لي بالمال ما دمتم
تحتاجونه ، صدقوني الأمر ليس طيبة قلب ، أو شفقة ، يمكنكم القول
إنه تصرف لا تفسير له .

كانوا ينظرون إلي باستغراب :

- لم أكن اجتماعيًا ، أنا رجل منعزل مثلكم ، وأجهل هذه المدينة وناسها .

في تلك الأثناء انتهت ليلى من تحضير الطعام فأكلتُ وهم حدقون بي . قلت :

- هذا الطعام لنا جميعًا .

تناولنا العشاء ، وتحدثنا قليلاً ، ثم جلس كل واحد منهم على فراشه ، ينتظرونني أن أخرج عن صمتي . كانوا صغارًا على تحمل ما ألم بهم ، بينما الحياة تريهم وجهها الثاني . ليلتها تعرفت بهم واحدًا واحدًا : فيهم من يتسول ، وفيهم من يبيع أشياء بسيطة على الإشارات الضوئية ، ومنهم من هو بلا عمل . كل ما يجنونه لا يكفي لإطعام شخصيْن ، لكنهم يتصرفون كأنهم أبناء عائلة واحدة ، أنكرهم الجميع فاقتربوا من بعضهم .

استلقيت في فراشي بعد أن ناموا ، ثمة شمعة بقربي يحرك شعلتها هواء ينفذ من شقوق الجدران ، فتخلق ظلالاً موحشة على الجدران والسقف ، إذ بدت لي كمسرحية صامتة تقول الكثير ، فتحت حقيبتي ، وأخرجت دفتر السيدة نون ، كانت له رائحة لم تتلاشَ ، ليست رائحة عطر ، إنما رائحة لشيء آخر خفي يشبه ذلك الشيء الذي دفعني نحوها بكل جنون . فتحتُ الدفتر عند الصفحة التي ثنيتها :

(مع الأيام أصبحت أعرف أوقات مجيء الرجل الأشيب للمطعم ، وأوقات مغادرته ، لم يحدث أن قمت على خدمته ؛ إذ إن زميلتي هي التي كانت تتكفل بذلك وبصمت إلا من كلمات قليلة خاطفة . اكتشفت أنها لا تعرف عنه شيئًا ، وألاّ علاقة تربطه بأي من رواد المطعم ، يدخل بصمت ويخرج بمثله . ثمة إحساس غامض ربطني

بذلك الرجل ، كنت أعتقد أن السبب يكمن في هيئته ، وهدوئه ، وحزنه ، وعزلته التي ارتضاها لنفسه ، وذلك الغموض الذي يلفه منذ رأيته للوهلة الأولى ، لكن بدا لي أن سبب ذلك إحساسٌ خفي يشبه الحنين إلى حضن دافئ في ليلة باردة ، رغم أني أعي أن رجلاً يخفي وراء سكونه حزنًا كبيرًا ، يحتاج للحضن أكثر من امرأة مثلي تعيش وحيدة في بيت لا يزوره أحد غير أشعة الشمس ، وزقزقة عصافير الجيران .

بعد أشهر من عملي في المطعم ، وكان الشتاء قد حل باكرًا في ذلك العام ، تفاجأت باختفائه ، سألت زميلتي عنه ولم تكن تعلم ، سألت مدير المطعم متذرعة بأن طاولته لا يجلس إليها أحد ، فما أجابني بشيء ، فخالجني شعور غريب جاء خليطًا من القلق والفقد . فكرت بوسيلة تهديني إلى مكان إقامته ، ولم أعثر على ما كان يمكن أن يخلصني من قلق حرمني من النوم ومن الاهتمام بدراستي الجامعية ، رغم لومي لنفسي على مشاعر متهورة مثل تلك .

لكنه أتى ، كنت أعد طلبًا لأحد الزبائن حينما عبر بوابة المطعم ، يرفع فوق رأسه مظلة ، ما إن خطا إلى الداخل حتى أغلقها ، وأرخى لفحته الصوفية عن رقبته ، مشى بتمهل نحو الطاولة ، وخلع معطفه الأسود ، وعلقه على مشجب قرب الجدار ، وجلس إلى طاولته بعد أن وضع أمامه دفترًا سميكًا ، وولاعة ، وعلبة سجائر أخرج منها واحدة أشعلها وراح يدخن . مشيت نحوه وضربات قلبي تتسارع بوتيرة مربكة . كان ما يزال ينظر خارج المكان حينما وضعت قبالته كأس فودكا فالتفت نحوي قائلاً بصوت هادئ :

– المعذرة ، أريد قهوة هذه المرة .

لم أجد ما أقوله رغم العبارات التي يمكننا مجاملة الزبائن بها ؛ لذا ١رت وأنا أعود إليه بفنجان القهوة أن أقول له شيئًا لم أتحدث به لأي ،بون . انحنيتُ ؛ لأضع الفنجان على الطاولة فارتطم بأنفي عبق عطره المختلط برائحة سجائره ، كم وددت حينها أن أجلس قربه وأضع رأسي على كتفه! قلت وقلبي يحشد كل طاقته ؛ لأتمالك نفسي :

- القهوة في الشتاء أنيس وفيّ .

التقط فنجانه وقال وهو ينظر إلى شجرة تعاند رياحًا هبت للتو :

- إنها سيدة كل الأوقات يا عزيزتي .

حل صمت بيننا أنقذتني منه زميلتي وقد نادت علي :

- استمتع بقهوتك سيدي .

- اسمك جميل .

شرب من فنجان قهوته ، ثم فتح دفتره وانهمك بالكتابة ، وثمة عين بي تحاول أن تلتصق بالقلم لترى ما يكتب . منذ ذلك اليوم صار يأتي بانتظام . حاولت أن أهدم ذلك الجدار الذي رأيته قائمًا بيني وبينه بكلمات قليلة لكنه كان ينحاز إلى عزلته مع الكتابة . بعد مدة رأيته يكتب بارتباك ، يشعل سيجارة ما إن ينفد تبغها حتى يشعل أخرى محدقًا بدفتره وكأنه يلاحق شيئًا ، إلى أن وجدته يجفف دمعات سحت على وجنتيه السمراوين ، كنت أود لحظتها أن أهرع إليه لولا أن أثنتني زميلتي عن ذلك . أغلق الدفتر وأخذ يدخن شارد الذهن ، نهض وارتدى معطفه واعتمر مظلته وغادر ، لكنه نسي دفتره على الطاولة ، فالتقطته وتركت المطعم أجري في الشارع والسماء مطر لا ينقطع ، لكني ما وجدت له أثرًا . كيف تحدث المصائر بهذا الشكل ، وكيف تتحقق الأمنيات!

أغلقت باب البيت ورائي عندما عدتُ إليه ، وكأني أغلقه عليَ ..
ذلك الذي علقت بكتفيه وما نزلت . بدلتُ ملابسي على عجلة ..
أمري ، وأعددت كوبًا من القهوة ، وجلست قرب المدفأة ، وعبرت بار
رجلٍ ممتلىء بالحزن ، وبالأسرار .

٤

إبراهيم

(حدث يبدو غير مُدَبَّر)

مضى عليَّ أسبوعان في البيت المهجور إثرهما صار كل شيء سيقًا ، وخانقًا . أسبوعان لم أخطُ خلالهما خارج الباب ولو خطوة احدة ، وكأنني في انتظار كائن ما يحملني من هذا العالم ويلقي بي مي جزيرة ليس فيها أحد ، جزيرة تجردني من كل شيء ، وتمنحني سة أن أصوغ حياتي من جديد ، صار الحال أكثر ضيقًا ؛ إذ نفد ما هي من مال ، واشتد البرد أكثر من ذي قبل ، وما عاد أي من الشبان حرج ، فقد قبض على رائد أثناء سطوه على إحدى الدكاكين ، وتوقف ور عن التسول ؛ خوفًا من أن يلقى القبض عليه هو الآخر ، حتى سلام التي كانت تبيع المناديل الورقية لم تخرج هي الأخرى من البيت ؛ فقد اصيبت بنزلة برد حادة . مهملين لا يكترث بأمرهم أحد ، كأنهم براز عصفور سقط على كتف سيد يرتدي بذلة فاخرة وراح يمسحها بعجالة وقرف . مشيتُ بتثاقل نحو الباب أنظر عبر كوته إلى ما لاح لي من المدينة ، ومن ورائي يجيء صوت ليلى تكتم أنينها ؛ بسبب ألم معدتها التي لم يزرها طعام منذ أيام كأي واحد منا . نهضت سلام ، ووضعت رغيفين من الخبز الناشف في صحن وسكبت عليهما شيئًا من الماء ، فأصبح طريًا ، جلستْ قرب فراش ليلى ثم راحتْ تطعمها . تجولتُ في البيت ، أو بالأحرى درتُ حول نفسي محتارًا ، من الخارج ثمة أغنية

راقصة تتسلل إلى مسمعيَّ تتقاطع بصوت محرك سيارة من تلك ال
يقتنيها شبان تستهويهم سيارات السباق ، ثم ساد صمت قصير ...
صفير ريح تعبر شقًا في الجدار . فتحتُ الباب وغادرتُ . لم أكن ...
إلى أين أنوي الذهاب ، في الزقـاق كـانت الريح تحـمل الأوراق
والأكياس البلاستيكية ، والتراب ، وتدور بها ، ثم تبعثرها مرة واحدة
بينما السـماء تنذر بمنخفض جوي جديد ، فصل شتاء قاس أكثر ...
اعتدنا ، ووحشة غريبة تتبختر في كل الاتجاهات ، لم أكن قد تجاوز
الزقاق حينما انتفختْ بطني وجاءني الصوت منبهًا :

- قريبًا ستنتهي المهلة .

بدا لي على مقربة من ارتكاب خراب ما ، فأسرعت من خطواتي
إلى الشارع هربًا منه ، لكنني تعثرت وسقطت في مستنقع ماء صغير
ثم نهضت وملابسي ملطخة بالطين . ثمة رجل كان يقف على جانب
الشـارع لم أكن أدري أنه يراقـبني وأنا أهش الهـواء بيـدي والصوت
يلاحقني كسرب دبابير : (ضعفك سر مأساتك يا إبراهيم) ، لكنه هذه
المرة رافقني كظلي وأنا أمشي على الرصيف محاولاً تجاهله ؛ لئلا يراني
أحد أتحدث لنفسي ؛ فيخالني مجنونًا . كان صوته كـمخرز موجع
يخترق جمجمتي : (ضعيف ، وخائف) . كدت أعود إلى البيت لولا
خشيتي من أن يلاحظ الشبان عليَّ ما لا أريدهم أن يروه ، فمضيت
أكثر أبحث عن زحام ؛ تجنبًا لصوت لا فكاك منه . توقفتُ عند محل
ألعاب صغير ؛ لأتحدث إلى صاحبه متذرعًا بأي شيء ، وبمجرد أن رآني
الرجل أنظر إلى البضاعة المعلقة عند الباب حتى طلب مني أن أحرس
المكان لقليل من الوقت ؛ ليـذهب إلى محل آخر ويتبـول ، ثم مضى
سريع الخطى .

- ألا تلاحظ أنك في صغرك لم تقتن لعبة؟

جاء صوته حزينًا هذه المرة وأنا أنظر إلى الألعاب :

- انظر إلى هذا المسدس اللعبة كم يبدو متقن الصنع وجميلاً

ضحك ساخرًا :

- كنت تصنع ألعابك بنفسك ؛ قطعتين من خشب تستخدمهما كمسدس ، وعلبة سردين مربوطة بخيط تسميها سيارة .

صمت برهة ثم قال بصوت محرض :

- التفتْ إلى شمالك ، هل ترى هذا البنك الذي كنت تنظر إلى هيئتك في زجاجه؟ انظر كيف يخرج الناس منه سعداء دافئي الوجوه ؛ لما حصلوا عليه من مال؟

تخيلته يلتصق بي ، وصوته أكثر قربًا :

- يسكنك سعيد مهران بطل رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ ، وها هو الآن قد استفاق من غفوته ، كنت تعتقد أنك قتلته ؛ لتفسح مجالاً لشخصية أخرى من شخصيات الروايات التي استقرت في لا وعيك . لقد رسمتْ كلمات محفوظ له صورة في مخيلتك ، وجعلتك براعته الروائية تنفذ إلى داخله فترى أحزانه ، وآماله ، ولماذا صار لصًا؟ لم تقل لأحد إنك تعاطفت معه وأهلك ينظرون إليك مستغربين من حالتك الغريبة في تقمص شخصيات بعينها! كانت البلاد أيامها قد استفاقت على خبر رجل مهم سطا عى مبلغ كبير من المال وفرّ هاربًا ، حينها تلبسك سعيد مهران من دون أن تستطيع عائلتك أن تثنيك عن ذلك وهم يرون شخصًا آخر غير ابنهم يتجول في البيت . كان أبوك محتارًا إلى أي طبيب سيذهب ويخبره عن ولعك الغريب في التقمص .

بدا لي الصوت يلتف حولي يحدثني بوتيرة خفيضة مشددًا على الكلمات :

- ها أنت يا سعيد تخرج من السجن بعد أربع سنوات عقوبة على إثر سرقة قمت بها ، تمضي في طريقك إلى زوجتك (نبوية) التي تركتك لأجل صديقك (عليش سدرة) . كان قلبك يشتعل كحقل قمح قبيل الحصاد ، وكنت في غاية قسوتك في رد دمعك فلا تريد لانكسارك أن يظهر للعلن . ستطلب رؤية ابنتك سناء ولن يوافقوا فتغضب ، تحزن ، تحبط وأنت تنصت لجبال تنهار في روحك حنقًا ستحمل عددًا من الكتب وتغادر البيت وقد قررت قتلهما .

أحسستُ به قريبًا من وجهي :

- هيا يا سعيد عليك أن تتجاوز إبراهيم الطيب وتمضي .

أخذ وجه سعيد مهران ينبثق من سماء ذاكرتي ، لحظة تركيز مثل تلك التي كانت تداهمني إثر كل شخصية روائية أغرم بها ، وراحت عضلات وجهي تتحرك ، وعظامي تتجهز لهيئة غير هيئتي . جاء صوت سعيد مهران يشي بحزنه وغضبه الكبيرين .

اشتد الصوت أكثر وحركته تكاد تمزق بطني :

- احمل هذا المسدس يا سعيد .

أخذتْ يداه تدفعانني إلى الأمام بقوة لم أستطع الصمود أمامها ، فحملت المسدس من مكانه وقبل أن أنطلق نبهني إلى قناع معلق هناك :

- ارتدِ هذا القناع ستحتاجه ، هيا أسرع نحو البنك ، يبدو أن رجل الأمن ليس بالباب .

ظل الصوت يزجني نحو البنك ، فتجاوزت البوابة ، وصوت نبوية

يصح في مسمعي مستفزًا تغازل عليش سدرة وتضحك بغنج يثير بي
ما لا يجيء إلا من الشعور بالهزيمة . ركضت عبر قاعة للانتظار فيها
عدد قليل من الزبائن والصوت يتفجر في أذني :

- اقفز يا سعيد واعتل هذا (الكاونتر) .

كانت نبوية تجلس إلى الكاونتر بجمالها الذي قبض على قلبي
بعد أن تعرفت بها خادمة في منزل السيدة التركية ، وكلما مشيت
خطوة نحوها أتذكر مرة يوم زفافنا ، وأخرى أتخيلها بحضن عليش
سدرة ، فتتفجر بي صرخة أسى قوية لكنني أركلها إلى الداخل ؛ لئلا
أبدو ضعيفًا أمام ما اقترفوه بحقي من خديعة ، وأمام من تسلقوا أكتاف
الناس نحو السلطة ، كنت أشم رائحتهم النتنة في البنك عالقة
بالأوراق النقدية وبالجدران ، تمامًا مثلما يعبق بها هواء الأحياء الشعبية
إذ ضحكوا على أناسها بعبارات ممجوجة ما عادت تجدي نفعًا .

صرختْ امرأة كانت تنتظر دورها ، كانت نور بنت الليل التي
عشت معها ليالي صادقة في بيتها قرب المقابر وأحبتني كما لم تحبني
امرأة من قبل ، كانت الكلمات مكبلة على فمها تتوسلني بصوت
(ارجوك لا تفعل يا سعيد) . تهيأ رجلان للهرب في اللحظة التي
صوبتُ المسدس نحو رأس نبوية وهي ترتب مبلغًا كبيرًا من المال . رفع
موظفون آخرون أيديهم وقتها . صرخت بصوت عال :

- إن تحرك أحد من مكانه سأقتل نبوية ، وأقتل أي شخص يحاول
الهرب أو فعل أي شيء . سأقتلها مثلما قتلكم الفاسدون .

من الداخل خرج موظف أمن ومسدسه على خاصرته ، حينها
رايت عليش سدرة يأمر موظف الأمن أن لا يصوب مسدسه نحوي ،
لكنه لم يكن غاضبًا بل مبتسمًا . نظر نحو عليش ضاحكًا :

- ومن قال لك إني سأصوب هذا المسدس نحو رأس هذا الرجل
إن أشهرت مسدسي سأطلق رصاصة في الهواء ابتهاجًا لأنه حا
أخيرًا ؛ لقد أمضيت سنين عملي في هذا البنك أفكر بما فعله هذا الم
لكنني لم أجرؤ . رائحة المال هنا تبكيني ، تذكرني بعجزي ، وفقر
الذي لا أستطيع الخلاص منه ، وتذكرني بأولئك الذين ضحكوا
علينا . جاء الصوت حازمًا :

- دع نبوية تضع المال في حقيبة .

كانت نور تضع يدها على فمها تكتم بكاءها وجسدها يرتعش
خوفًا فأمرتها بأن تصمت ، ثم قلتُ أهدئ من روعها :

- هل تتذكرين ما كنت تقولينه لي في ليالينا الجميلة؟ «أحطك
في عيني وأكحل عليك» .

ابتسمت نور وقالت بهمس وتلذذ متجاوزة خوفها :

- «أحطك في عيني وأكحل عليك» .

أودعت نبوية كل ما لديها من مال في حقيبة كتانية ووضعتها
على الكاونتر وجسدها يرتعش . حدقتُ بعينيها ثم بعينيْ عليش وقد
رفع يديه إلى الأعلى :

- ألمْ تجدي غير هذا الكلب ؛ لتخونني أسدًا مثلي معه؟ ألست من
أولئك الذين عضتهم الكلاب؟

لم تقل شيئًا ، إنما جلست غير قادرة على أن تتمالك نفسها . عبر
واجهة البنك الزجاجية رأيت الشارع وقد ازداد زحامه ، كانت فرصة
سانحة لهرب آمن فحملتُ الحقيبة ومشيت مسرعًا نحو الباب بينما
الجميع ينظرون إلي صامتين وأنا أوجه المسدس نحوهم . عند الباب
أدرت ظهري لكاميرا المراقبة وخلعت القناع بعجالة ، ثم خبأت المسدس

في جيبي ، وعبرت الباب مسرعًا والصوت يلاحقني :

- امش يا سعيد بهدوء ، ؛ حتى لا يشتبه بك أحد .

تراجع الزحام حينما اقتربت من الكوة ، كدت أركض لولا أن الصوت نبهني :

-ادخل بهدوء لئلا يفتضح أمرك .

لم ألتفت خلفي بل دخلت بهدوء وقطعت مسافة الزقاق بسرعة إلى أن وقفت عند باب البيت ألتقط أنفاسي وأهذي :

- ما الذي فعلته ، ما الذي فعلته يا إبراهيم؟

كان صوت أبواق سيارات الشرطة يتعالى في الشارع ، إلى جانب جلبة سمعت صداها يتجاوز البنايات .

- ما فعلتَه سيجعلني أعقد معك اتفاقًا جديدًا .

جاء الصوت حين نظرت ورائي في الزقاق ، ولم أجد أحدًا يتبعني ، فالمدخل إليه ضيّق وقليل من الناس يمكن أن يلاحظوه ، لمستُ ثقل الحقيبة وأنا أقف محتارًا قرب الباب ؛ كيف سأتصرف ومعي مبلغ كبير مثل هذا؟ قال الصوت آمرًا :

- ادخل البيت متسللاً ، ثم اتجه نحو الغرفة الجانبية التي تتكدس فيها الحجارة والقمامة وأخشاب باقي الأثاث القديم .

تلكأتُ قليلاً ، فصرخ بي ، فتحت الباب بحذر ، وتسللت إلى الغرفة أتلفت حولي ، أزلتُ كتلة من الطوب في زاويتها ، فعثرت على بلاطة كانت تتحرك ، رفعتها وحفرت تحتها إلى أن صارت مكانًا يتسع للحقيبة . كان الصوت يملي عليَّ كل خطوة أقوم بها ، فما عاد يمكنني أن أقول له لا :

- خذ مبلغًا قليلاً واترك المسدس والقناع ، وضع الحقيبة في

الحفرة ، واذهب إلى الداخل وتصرف كأن شيئًا لم يحدث ، ولا نحر ،
إلا بعد أسبوع .

كان عدد ممن في البيت نيامًا حينما دخلتُ ، بينما من الشا،
يأتيني صوت سيارات الشرطة ، يختفي ثم يعود . قالت ليلى و،
أرخيت جسدي على الجدار صامتًا وأنظر في العتمة الجزئية للبيت .

– ما بكَ؟ هل حدث لك شيء؟

– لا . لا شيء .

استلقيتُ في الفراش وغمرت رأسي بالبطانية ، أي ورطة جد،
وضعت نفسي فيها! يبدو أن دقائق معدودة ستمضي ويُلقى القبض
علي ، فلا بد أنهم الآن يعودون إلى كاميرات المراقبة . قال الصو،
يطمئنني :

– لا تقلق سيجدون رجلاً يرتدي قناعًا أحمر ، وحتى إن خلعه
سيجدون سعيد مهران وليس إبراهيم .

–كيف تحولت إلى لص بهذه السرعة؟

– أنتَ لص شريف .

بات الصوت يقتحمني حتى وأنا بين الناس ، وكنت غاضبًا مما
فعلت ، بل أشعر بالخزي والندم :

– لا شرف في السرقة .

– عليك في هذه المرحلة أن ترتاح ، وفي الأيام القادمة سأثبت
لك أن لصًا شريفًا في داخلك ، وسأخبرك بما ستفعله؟

– وهل تعتقد أني سأبقى رهن إشارتك؟

جاءني الصوت حازمًا :

– نعم ستبقى إلى أن تنفذ اتفاقنا الجديد الذي سأخبرك به قريبًا .

أزالت سلام البطانية عن وجهي :

- هل أنتَ بخير؟ ما بك تتحدث لنفسك؟

نهضتُ من فراشي أحاول مداراة الأمر :

- لا بد أني كنتُ أحلم .

وجّهَ بعضهم إلي نظرات باهتة ؛ جراء ضعف قواهم ؛ فهم لم يتناولوا الطعام منذ أيام ، كيف سأصبر لأسبوع في هذا البيت وكل من فيه جياع ومعي كل هذا المال؟ داهمني شعور الأب نحو أبنائه ، لكن في خروجي مغامرة غير محسوبة العواقب ، لا بد أن رجال الشرطة ينتشرون في كل الشوارع التي تقع حول البنك ، يوقفون الناس ويدققون بطاقاتهم الشخصية .

أمضينا يومين بلا طعام ؛ لذا كان علي أن أفعل شيئًا رغم أني أعرف خطورة مغادرتي البيت ، فربما يلقى القبض علي في أي لحظة ؛ فأنا لست لصًا محترفًا ، أمرٌ حَدَثَ فجأة وبدافع من ذلك الصوت اللعين . وقفت قرب الباب قبل أن أخرج أسترق السمع لأي صوت يأتي من الزقاق . أغلقت الباب ومشيت ببطء .

- بما أنك خرجتَ امش بهدوء ، ولا تتلفت حولك ، ابتعد عن هذا الحي ، وادخل دكانًا صغيرًا ، واشتر أي شيء ، وغادر .

من أين لهذا الصوت كل هذه الحنكة والدقة ، وكيف لو تُرك يفعل ما يريد؟ أي خراب سيحل! اشتريت زجاجة ماء من متجر صغير ، وأعاد إلي البائع باقي النقود ومضى يتحدث إلى زبون اشترى علبة سجائر :

- لأول مرة أسمع عن سرقة بنك تحدث هنا ، كنت أرى ذلك في الأفلام فقط .

فتح الزبون علبة السجائر ، وأشعل واحدة وغادر :

- سيحدث أكثر من هذا إن ظل الحال كما هو عليه .

شربت من زجاجة الماء جرعة وانحدرتُ إلى وسط البلد ؛ لأبتعد عن المكان فأتجنب أي خطر ، وقفت على طرف الشارع ، وأشرت لسيارة أجرة وصعدت . هز السائق رأسه حينما أخبرته عن وجهتي ، إذ كان ينصت لمحطة إذاعية تحكي نبأ سرقة البنك ، يا إلهي كم أنا مخطئ في ما فعلت! وكم أنا متهور في خروجي للشارع! نظر السائق نحوي مبتسمًا والمذيع يسرد تفاصيل الحادثة :

- ما يزال خبر الرجل المقنع حديث الناس والصحافة ، لقد سرق مبلغًا كبيرًا من المال ولاذ بالفرار .

أطلق الرجل ضحكة عالية ، ثم صمت وفي وجهه علامات حزن وغضب :

- أتمنى ألّا يقبضوا عليه .

بقي الرجل يتحدث وأنا أنظر إليه بعينين بلهاوين إلى أنْ وصلنا وسط البلد . نزلت من السيارة عند الجامع الحسيني شاقًا طريقي في زحام بشري متشابك ، وأفكر : كيف لم يتسن لكل تلك الكتب أن تجنبني ما حدث! لقد بنت لي عالما اعتقدت معه أني عصي على السقوط ، لكنني بمجرد أن فقدت بيتي سقطتُ . دخلت متجرًا للملابس واشتريت ملابس جديدة ارتديتها فيه ، وألقيت بالقديمة في سلة المهملات . بجوار المحل ثمة فرع لأحد البنوك يقف خلف زجاجه حارس أمن يتلفت يمينًا وشمالاً ، وفي وجهه علامات ضجر واستياء .

- انظر إلى هذا البنك ، فرغم وقوعه على شارع رئيسي ؛ إلا أنه يمكنك السطو عليه بسهولة . لا بد أن مراجعيه قلة ؛ فهو بعيد عن

المناطق السكنية، زجاجه الأمامي مغطى بلوائح إعلانية ورقية، وأمامه زحام يسمح لك حينما تفر منه أن تدخل هذا الزقاق الذي بالتأكيد سيخفيك عن مطارديك.

بدا الصوت يدلني على سرقة جديدة بسطوة ما عاد لي حيلة على رفضها. تأملت البنك وما حوله أكثر من مرة، ثم مضيت في طريقي وتوغلت في وسط البلد، واشتريت موقدًا صغيرًا يعمل بالغاز، واشتريت لحمًا، وخبزًا، وخضارًا، وفاكهة، ودواء لسلام وعدتُ. نظروا إلي باستغراب وأنا أضع ما اشتريت أرضًا. رأيت نور يتحدث إلى ليلى بصوت خفيض، ويحدقان بي بتوجس. طلبت ليلى أن نتحدث على انفراد فابتعدنا قليلاً. قالت هامسة:

– من أين لك المال الذي اشتريت به كل هذه الحاجيات؟

قلتُ لها إني استدنت مبلغًا من صديق، ثم أخبرت من كانوا في البيت بأني فعلت ذلك لأجلهم، ولا بد أن يأتي يوم وأسدد ما عليَّ من دين. كانت ردود أفعالهم متفاوتة؛ منهم من شكرني، ومنهم من رفض أن أستدين، وآخرون التزموا الصمت. حضرنا العشاء، كل واحد كان يقوم بمهمة، وأكلنا. دبّت الحياة في البيت، فقربنا الفرشات حول النار، وتحدثنا إلى أن ناموا وأنا مستيقظ أفكر بالأيام القادمة. ثمة حركة لأقدام سمعتها قرب نافذة الغرفة التي كنا فيها، حركة لأحد يمشي بحذر، اقتربتْ أكثر من الباب فأدركتُ أني على وشك النهاية.

٥

الصحافية

(الهروب نحو الذاكرة)

عبرتْ نافذة الطابق الثالث لمبنى الصحيفة بقعة ضوء واستلقت أمامي على الطاولة ، صمتٌ لذيذ كان يشوب المكان في آخر ساعات العمل ؛ إذ تغيب زميل ، وغادر آخر ، وانشغل الباقي في أقسام أخرى راقني هدوء ذلك النهار وقد أصابه شيء من الدفء بدت معه عمان هادئة ووادعة ، وأنا أرخي ذقني على يديّ المتكأتين على الطاولة ، أنظر إليها وصوت طفيف يأتيني من الشوارع أفكر ما الذي سأفعله بعد انقضاء وقت العمل؟ ربما أخرج إلى مقهى وأشرب فنجان قهوة وأنظر بوجوه مرتاديه ، ربما أمشي في الشوارع ، أو أتجول في أحد المولات . مزاجي ليس واضحًا ، لكنني على الأغلب سأبقى في البيت . صعد شاب سطح بناية مقابلة لي ، وبدا أنه يصلح من طبق لاقط منصوب هناك ، فكرت بحاجتي لرجل يقتحم حياتي ويزيل كل هذا الإيقاع الرتيب ، ثم نفضت رأسي رافضة الفكرة . أقلعت عن الرجال منذ أول تجربة تشبه أول محاولة لغواص ذهب إلى قاع البحر وكاد أن يموت ، فعاد وبه خيبة جراء نسيانه شيئًا منه لن يستطيع استعادته . تركت الصحيفة وقد انقضى وقت العمل ، ومشيت متمهلة كعادتي .

صارتْ عندي قناعة بأن المشي ربما يخلص خزانتي الداخلية من بعض فوضاها ، لا أدري مدى صدق قناعتي من زيفها ، سرت في

ـالك اليوم إلى أن وصلت دوار الداخلية المزدحم بالناس والسيارات ، ـانت الشمس قد شارفت على المغيب ؛ فأخذ ظل الناس والبنايات والعربات يمتد شيئًا فشيئًا ، إلى أن حل الليل بدلاً من النهار وأنا أواصل طريقي مرورًا بمجلس النواب ، الذي كان يقف قبالته عدد من المحتجين على رفع الأسعار ، عبرتُ ازدحامهم من دون أن أسمع شيئًا ، ـنت أرى أفواههم تفتح وتغلق ، وأياديهم تتحرك في الهواء ، مشهدٌ صامتٌ رأيت عبره رجلاً حزينًا يمشي في يوم ماطر يضع يديه في جيبيّ معطفه . هززت رأسي يمينًا وشمالاً كأني أنفضه من ذلك المشهد ، ثم أومأت بيدي لسيارة أجرة ، وصعدت بها نحو اللويبدة .

ثمة موسيقى لآلة الدودوك بدأت تهاجمني ، وتثير بي رغبة البكاء ، نظرت عبر نافذة السيارة أهرب منها ، فرأيت الرجل ما يزال يمشي على الرصيف ، ورأيت السماء تمطر ، توسلت السائق ؛ هروبًا من البكاء :

- أرجوك أغلق المسجلة .

نظر إليّ عبر المرآة :

- إنها معطلة يا سيدتي .

فبكيت بصمت الذين يهرعون إلى العتمة ؛ ليداروا حزنهم ، والموسيقى تحاصر روحي ، والرجل ما يزال يمشي على الرصيف ينظر إلى نقطة ثابتة في الأفق . عند دوار باريس توقفت السيارة وأحنى السائق رأسه صامتًا ، وكلما جففت عيني بكيت من جديد . قال بصوت متحشرج ثم التفت إلي :

- سيدتي سمعت مرة عبارة في فيلم سينمائي تقول إن هناك أسبابًا كثيرة للبكاء ، إن استسلمنا لها ستروح بنا إلى أماكن لن

نستطيع العودة منها . صدقيني أن هذه العبارة أعانتني كثيرًا .

كان شابًا مهذبًا ما يزال في مقتبل العمر ، ويبدو أنه من أولئك الذين أغلق باب الوظائف بوجوههم . حينما رآني لا أستطيع التوقف عن البكاء لامس يدي التي كانت تقبض على مسند الكرسي كأنها يدٌ لغريق ، ثم انتبه فجأة واعتذر عما فعل :

-لا عليك عزيزي . أشكرك .

أعطيته أجرته وغادرت نحو المقهى ، وجلست إلى طاولة تواجه الشارع . ثمة أشخاص كانوا يتمشون على رصيف يحيط بدوار باريس ، فرأيته بينهم من جديد يمشي شارد الذهن . كان صوت الدودوك يصفع قلبي بحزنه العالي ويدفعني إلى حافة هاوية البكاء . تذكرت ما قاله الطبيب : عليكِ أن تكتبي لتنجي مما أنت فيه ، بما أنك تميلين إلى كتابة الدراما ، لا بد أن تشاهدي ما حدث لك مسلسلاً يُعرَض على شاشة التلفاز .

أخرجت الدفتر من حقيبتي ، وعدت إلى ما فيه من بوح موجع :

(لم يحب جاد الله الأستاذ عواد منذ أول أيام المدرسة ، في السنوات الأولى كان يمضي جل وقته ساهمًا ، فظل تحصيله المدرسي عاديًا إلى أن مات الأستاذ ، إذ سقط في باحة المدرسة فهرع طالب وأخبر معلمًا آخر بما جرى . كان جاد الله يقف على مبعدة من الطلبة وهم ينظرون إلى جثة عواد ، حملوه إلى الداخل وغطوا وجهه ببطانية ، سأل جاد الله المعلم بعد أن خرج حزينًا : (إلى أين سيذهب؟) . استغرب المعلم سؤاله ولم يقل شيئًا ، لكنه استعاد موقفًا غريبًا أثناء حصة الجغرافيا ، إذ كان يشرح لهم أدلة كروية الأرض ، قال جاد الله مقاطعًا المعلم :

- تحدثنا كأنك رأيت فعلاً أنها كروية .

- لم أرها ، لكن العلماء قالوا ذلك .

ضحك جاد الله على غير العادة :

- لا أحب الرأي المطلق .

تعجب المعلم مما قاله جاد الله ، في وقت الاستراحة راقبه ثم تبعه وهو يدخل المكتبة ويختار كتابًا ثم يقرأ . بعد موت الأستاذ عواد برع جاد الله في المدرسة لكنه بقي بسلوكه الغريب نفسه : يطرح أسئلة عن الموت ، والحياة ، وسلوك الناس . مرت سنين المدرسة عليه كما يمر حافٍ في حقل شائك ؛ فقد ترك بادي الدراسة عندما استفحل به الحزن على موت شقيقه حمود . قبل موت حمود لم يستطيعا أن يتجاوزا ما تركه الفقر في نفسيهما ، وبقيا على مبعدة من كل ما يسعى إليه الطلبة . كانا يدركان أن المدرسة بوابة للخروج من كل المعاناة التي يعيشانها ، لكنهما رأيا صورتهما مغايرة للصورة الجماعية للمدرسة ، وللمدينة التي كانت تتشكل للتو آنذاك . عبر تلك السنين أدرك جاد الله ما عليه فعله خاصة حينما أبدى تفوقًا ملحوظًا تعلق بالقراءة . كان يمضي جل ما يتبقى له من وقت بعد المدرسة في ظل شجرة الزيتون يقرأ روايات ، ودواوين شعر ، وسيراً ، يحس بتجاوز غريب لما حوله . وفي الشتاء يجلس في زاوية حوش الدار مواصلاً قراءته . كان يحتاج إلى مكان يوفر له عزلة خاصة ؛ فانتبذ غرفة صغيرة مهملة تابعة للبيت ، وأقام له فيها سريرًا من بقايا خشب وجذوع أشجار غطاه بفرشة صوفية ، وراح يمضي جزءاً من الليل في متابعة دروسه ، وفي قراءة الكتب والصحف . في تلك الأيام كان اليسار ينشط في البلاد خاصة في مادبا ، ومصادفة وجد جاد الله نفسه شيوعيًا جنده زميله

في المدرسة ، إذ دعاه إلى بيته ، وحدثه عن الشيوعية وعن الاتحا
السوفيتي . أنصت باهتمام ، وأمام عينيه تلوح صورة والده الذي أمضى
سنين من عمره يعمل أجيرًا عند إقطاعي يهبه القليل ، صورة تتداعى
بتذكره لمشهد موت أخيه حمود قديمًا . كان ذلك في يوم هطلت الأمطا
فيه بغزارة ، إذ هبطوا دربًا تنحدر من بيتهم نحو الوادي ، ثم تنطلق م
إلى مادبا . ارتدى حمود معطفا عسكريًا من بقايا ملابس شقيقه
الجندي خازر ، معطف أكبر من حجمه بدا فيه كعصفور في كومة
قش ، وارتدى بادي بلوزة وحذاء عسكريين ليسا على مقاسه . تَبِعَا جاد
الله رغم أنهما يكبرانه في السن ، يدلهما على دروب يتفادون خلالها
الانزلاقات ، والطين الذي كلما مشوا أمتارًا خلاله توقفوا يزيلون كتله
تثقل خطواتهم ، بينما السماء تزداد غزارة في المطر . كان هدير الماء في
الوادي الذي يفصل القرية عن مادبا عاليًا فأثار بهم الخوف ، حين
وصلوه وجدوه يحمل معه الحجارة ، والطين ، وجذوع أشجار علقت
منها واحدة ، وصار يمكن الاستعانة بها كجسر عبور نحو الضفة
الأخرى . أمسك جاد الله بيديّ بادي وحضه على التوازن حين مشى
على جذع الشجرة إلى أن تجاوز السيل . التفت نحو حمود وقد كان
خائفًا ، فأدرك أن عليه بذل جهد كبير ليقنعه بالمشي بهوادة على جذع
الشجرة ، قال له وقد أمسك بكتفيه وخصلات من شعره الطويل تغطي
إحدى عينيه : (افتح ذراعيك لتضبط حركتك ، لا تنظر إلى الأسفل
بل إلى الأمام ، ضع قدمك بهدوء على الجذع حينما تنقلها ، فكر
بضفة السيل لا بالسيل) أعاد ما قاله له أكثر من مرة ، فهو يدرك أن
حمود ساذج ، وحركته بطيئة . كان السيل ما يزال هادرًا حين وضع
حمود قدمه على جذع الشجرة ينظر إلى بادي على الضفة الأخرى

مرتبكًا وخائفًا . مشى أول خطوة وراح يلحقها بأخرى ، بينما جاد الله وراءه يراقبه بتوتر وقلق ، حينما رآه يترنح نادى بصوت عال : (افتح ذراعيك) . رفع حمود ذراعيه بسرعة ، لكنه قبل الضفة بخطوات قليلة زلت قدمه وسقط فَجَرَّه السيل . في الطرف الآخر أخذ بادي يصرخ ويقفز في مكانه ، بينما جاد الله يركض محاذيًا السيل يصرخ مناديًا على حمود ، وقد اختفى في الماء الذي له لون الطين ، فأقعى على الأرض مفزوعًا يضرب على رأسه حزينًا على فقدان شقيقه الطيب .

***

غادر جاد الله بيت زميله يحمل كتبًا ، وصحفًا ممنوعة ، ويفكر بما قاله ، تجاوز حارة النور وصوت أبيه يتردد في مسمعيْه حين طلب منه في تلك السنة أن يكون طبيبًا كالحكيم نيقولا . في آخر أيام المدرسة تزوجا علي وسليم . استمر العرس سبعة أيام سمع خلالها أكثر من شخص يناديه بالحكيم ؛ كانوا يريدونه طبيبًا :

– اسمع يا ولدي .

قال له رجل كبير في السن يمد ساقيه أمامًا ويضع عكازه بينهما ، ويقبض عليها :

– أنت تعلم أن هناك من مات منا مريضًا ولا نعلم السبب ، ما عادت الأعشاب تجدي نفعًا ؛ لهذا أهلك في القرية ينتظرونك طبيبًا .

نظر الرجل إلى آخرين يرقصون (الدحية) ثم حدق بعيني جاد الله :

– لم يصمد من أبناء القرية في المدرسة غيرك ، سيجند عدد من الشباب في الجيش ، والبعض الآخر لا ندري ما هو مصيرهم .

كان الرجال بأصواتهم الخشنة يرددون لازمة الدحية :

(الدحيهيء ، الدحيهيء ، الدحيهيء) فلاحقته وهو يترك بيت الشعر ويلوذ بغرفته ينظر إلى كتب الفلسفة التي أغرم بها ، وصوت الرجل ما يزال يتبعه : (نريدك حكيمًا) . استلقى في فراشه وغامر بما تبقى في الفانوس من وقود ، وفتح كتابًا حول كونفوشيوس ، وغرق فيه بينما صوت الرجال يأتيه من بيت الشعر حماسيًا ، يتقاطع معه صوت نساء يرددن أغنيات عن العريس الذي تلمع أزرار بذلته العسكرية كالنجوم في السماء ، إلى أن نام فهاجمته كوابيس لم يخبر أحدًا بشأنها .

في ذلك العام نجح جاد الله في الثانوية العامة ، كان قد أمضى معظم السنة منكبًا على مطالعة دروسه ، ما إن يعود إلى البيت قادمًا من المدرسة حتى يحمل كتبه إلى الخلاء ، حيث اختط طريقًا في مشارق القرية يبقى يمشي عبرها جيئة وذهابًا يحمل كتابه ويقرأ بصوت مسموع . في الليل حيث لا كهرباء تصد العتمة عن القرية ولا فوانيس يمكنها أن تسهر بمعينه يذهب إلى أطراف مادبا ، إلى شارع ينيره مصباح كهربائي يجلس أسفله يحمل كتابه ويقرأ إلى أن يحين منتصف الليل . بعد أسبوع من انتهاء مرحلة المدرسة ناجحًا ناداه رفيقه في الحزب ، وهمس بأذنه :

– لقد تدبرنا لك بعثة للدراسة في موسكو .

كان الخبر بالنسبة له بمثابة ابتسامة شاسعة ، رآها في الأفق تشير إلى أيامه القادمة . في ذلك اليوم عاد مسرعًا إلى البيت ، وبحث عن أبيه ، إذ وجده يحفر عند جذع شجرة زيتون . ما إن رآه أبوه حتى توقع أن بجعبته خبرًا يبعث على البهجة ، افترشا التراب والشمس تميل إلى الغرب ، وتلقي بظلال الأشجار على أرض البستان . نظر الشموسي بوجه جاد الله مترقبًا :

– ما الأمر يا ولد .

- حصلت على منحة للدراسة في موسكو .

- ميسكا؟

ردد الشموسي الكلمة على نحو خاطئ ، وفي عينيه دموع يجاهد ألا تفر من عينيه :

- موسكو يا والدي .

- وهل هذه بلاد بعيدة؟

قال الشموسي وفي صوته حشرجة البكاء ، وحين لم يجد جوابًا من جاد الله نظر نحو الأفق وتلال القرية تخفي الشمس شيئًا فشيئًا ، وراح بإصبعه ينكش التراب ، وقد نزت من صدره شهقة البكاء . في الصباح ذهب الشموسي يرافقه عليّ إلى إسكندر الذي كان للتو يصل دكانه الواقع في شارع مسجد الملك حسين ، يتلفت يمينًا وشمالاً يبحث عمن يعاونه على رفع الباب الحديدي إلى الأعلى . طلب المساعدة من أكثر من شخص مر من هناك لكنهم لم يلقوا له بالاً . تساءل عليّ بإشفاق عن صدودهم ، فضحك الشموسي وأمر علي بأن يعاون إسكندر وهو يتقافز يمينًا وشمالاً بقامته القصيرة ، وجسده الممتلئ ، وعينيه الصغيرتين . انتبه إسكندر إلى الشموسي وقد وقف قريبًا منه ، فحياه بكلمات سريعة متداخلة ببعضها كعادته . دخل الدكان وراح يخرج مكانس قش ، وأباريق بلاستيكية ، وبعض ما يبيعه ويعلقه على جدار الدكان من الخارج ويتذمر من كره الناس له . حين فرغ جلس إلى طاولة خشبية يحدق بالشموسي :

- أهلاً يا أبا علي .

- أهلاً بك يا إسكندر .

أخرج الشموسي علبة تبغه وأعد سيجارة وأشعلها ، وإسكندر ينظر

إليه منتظرًا سبب مجيئه الذي لم يكتمه الشموسي طويلاً :

– جئت أريد منك مبلغًا من المال ، جاد الله سيسافر إلى بلا،
الغربة ليدرس .

أخذ إسكندر يتلفت حوله مبديًا عدم اهتمام بما يقوله الشموسي ،
فأعاد طلبه مرة أخرى ، وبشيء من التوسل :

– ألم تسمعني يا إسكندر؟

– بلى سمعتك . يبدو أن ولدك واحد ممن حصلوا على بعثة ولى
يكفيهم ما يُمنح لهم . الدراسة في بلاد الغربة ستستمر سنين يا أبا
علي ، ولن يقتصر الأمر على مجيئك هذه المرة لطلب المال ، بل
ستأتيني كثيرًا ، وفي هذه الحالة ليس أمامك إلا أن ترهن أرضك ا
لأطمئن على ما أدفعه لك .

نظر علي إلى أبيه متفاجئًا ، ثم وقف غاضبًا ، فأمره الشموسي بأن
يجلس :

– وأنا موافق .

ابتسم إسكندر فرحًا وعيناه تروحان يمينًا وشمالاً ، ثم أخرج من
صندوق خلفه ورقة وأمضى وقتًا يكتب إلى أن فرغ ، فقرَّب علبة حبر
من الشموسي :

– ابصم .

وضع الشموسي إصبعه بشيء من التردد على الورقة وضغطه وهو
يكز على أسنانه مصابًا بهزيمة خفية . نهض علي ثم أخذ يتمشى قبالة
الدكان إلى أن خرج الشموسي يدس الدنانير في جيبه :

– ما الذي علي فعله غير ذلك؟ لكن اطمئن سنسدد المبلغ ونأخذ
تلك الورقة .

بعد أسبوعين من ذلك اليوم سافر جاد الله . ليلة سفره امتلأت المضافة بالمودعين ؛ فهو أول شخص في القرية يسافر . كان الشموسي يدور بين الرجال وسيجارته لا تنطفئ ، وعلى وجهه ابتسامة تخفي وجعه من غياب قادم لأكثر أبنائه قربًا إليه . قدم المودعون كثيرًا من الوصايا قبل أن يغادر جلهم . كان موعد الطائرة عند الثانية عشرة ليلاً ، ارتدى جاد الله ملابسه وراح ينظر إلى الغرفة التي غطى جدرانها بصحف كان يقرؤها ، وتكدست على أطرافها الكتب . جهز حقيبته وأخرج من تحت السرير عددًا من المناشير السياسية وأحرقها ، ثم خرج ، وعانق أمه وشقيقتيْه ، وأشقاءه ، والمودعين ، مخفيًا رغبته بالبكاء أمام بكائهم بصوت مسموع ، ثم ركب سيارة أقلتهم هو ووالده وشقيقيه سليم وبادي . في المطار ودعهم بحرارة ، وحين عانقه والده أجهش بالبكاء وقد أوصاه مشددًا على الكلمات :

- ننتظرك طبيبًا .

٦

إبراهيم
(شخصيات من ورق)

أشرقت شمس صباح جديد بعد أسبوع من اعتكافي في البيـ.. المهجور ، تذكرت الخوف الذي تلبسني في تلك الليلة جراء الحركة الغريبة قرب الباب ، خوف توقف معه التفكير إلا باحتمال واحد هو أن يلقى القبض عليّ . ليلتها لم يكن عندي صبر لأبقى في مكاني ؛ لئلا أدل على نفسي ، بل نظرت من ثقب الباب فوجدت كلبًا يفتش القمامة عن الطعام . الخوف رسام غريب يخط على ورق مخيلاتنا ما لا نتوقعه .

خرج الجميع إلا أنا وليلى التي كانت تغط بالنوم ، تراجع البرد ، وحل محله شيء من الدفء ، تقلبتُ في فراشي ، ثم غمرتُ رأسي بالبطانية أفكر : لو أن أحدًا شك بي وعرف طريقي لاعتقلوني منذ ذلك اليوم . نهضتُ وأشعلت الموقد ثم أعددت كوبًا من القهوة ، ومشيت نحو الباب ، ونظرت عبر كوته . وددت وقتها لو أخرج لقليل من الوقت ، لكنني خشيت من أن يراني أحد . عدت أفكر : لا بد أن كاميرات البنك تحتفظ بتسجيل لي ، ولا بد أنهم وضعوا لي صورة تقريبية رغم أنني كنت أرتدي قناعًا .

نهضت ليلى من فراشها وجاءت بخطوات كسولة . قالت بصوت هادئ :

- صحيح أن هذا البيت مهجور ولا يأتيه أحد ، لكن القلق يحاصرني منذ أتيت إليه ؛ فربما يعود أصحابه في أي لحظة ويتهموننا بحرابه .

وقفت بجانبي فرأيت عن قرب عينيها اللتين تضجان براءة وحزنًا :

- موجع أنْ يحلم الواحد منا ببيت ولا يجده . هذا العالم قاسٍ أكثر مما كنت أتوقع .

لامست شعرها فأرخت رأسها على كتفي :

- صحيح أن هذا العالم قاسٍ يا ليلى ، لكن كما ترين ها هو النور يتدفق من فتحة هذا الباب الصدئ ؛ إنه الأمل .

قالت :

- هناك سيدة تعمل في جمعية خيرية كانت سلام قد لجأت لها ذات يوم تطلب عمَلا ، قبل أيام عرضتْ على سلام أن تقيم مقابل أجر مع سيدة عجوز ؛ لتعتني بها . لا يريدون ممرضة بل فتاة تنتمي للبيت وبالتالي تحب عملها ، وقد رأوا أن واحدة من مجهولات النسب أفضل لهذه المهمة . أخبرتها سلام عني ورأت أني أجيد هذا العمل أكثر منها .

- إن كانت عائلة جيدة فلا بأس .

قلت ذلك ولا أدري هل أنا على صواب أم خطأ ، فهي فتاة صغيرة لا تعرف من الحياة شيئًا . أتاني الصوت ساخرًا بعد أن غادرت ليلى :

- وأنت ما الذي عرفته من الحياة غير قراءة الكتب؟ كلهم تخلوا عنك : ديكارت ، كونفوشيوس ، ابن سينا ، كريغور . وفي النهاية بت لا تحمل معك سوى كتابٍ حول محبط مثلك .

انقطع الصوت لبرهة ثم عاد آمرًا :

- الآن خلا البيت من سكانه ، هيا تفقد ما لديك من مال .

تأكدت من أن الباب مغلق ، وما من أحد قادم نحو البيت . رفع كتلة الطوب والبلاطة ، وأخرجت الحقيبة ، وبعد أن وضعت المـ والقناع جانبًا ، أحصيت كم فيها من مال ؛ وإذا به مئتا ألف ... تنقصان مئة .

- يا إلهي ، هل سرقتُ كل هذا المال؟

نهضت مذعورًا وتعثرت بالحجارة فسقطت أرضًا :

- إشـشـشـش ، قلت لك ستكون لصًا شريفًا ، الآن سأخبرا باتفاقنا الجديد .

تلفتُ حولي ثم عدت أنظر إلى كل ذلك العدد من الدنانير . جا الصوت واضحًا وواثقًا من أنني ما عدت قادرًا على الرفض :

- عليك أن تضاعف هذا المبلغ .

أعدت المال إلى مخبئه ، وعبرت إلى الداخل وصوته قرب أذني :

- أعددت قائمة بمن سوف أنتقم منهم ، لم يرضكَ ذلك؟ حسنًا سأتراجع عن هذه القائمة بشرط واحد هو أن تضاعف هذا المبلغ لتصل إلى مرحلة تصبح فيها قادرًا على أن تبني بيتًا لهؤلاء المشردين ، وتؤسس لهم مشروعًا يعتاشون منه .

جلست على الأرض لا أملك طاقة للمجابهة ، وتعجبني في الوقت نفسه فكرة أن يصير لأناس مشردين بيت يحتمون به . قلت مستسلمًا :

- حسنًا ماذا تريد مني أن أفعل؟

- عليك أن تعيد (كوازيمودو) من مخبأ ذاكرتك الذي داريته به ، أنسيته؟ بطل رواية أحدب نوتردام ، كم أحببتَه! وكم قرأت الرواية لأجله مرات كثيرة! هربتَ من إبراهيم إليه كما تفعل دومًا ، وأمضيت

... تتقمص دوره ببراعة ، إلى أن نهتك أمك عن ذلك ؛ لئلا تصبح ... مدبا بالفعل . اذهب إلى وسط البلد واشتر ملابس من متجر الملابس المستعملة تقارب ملابسه ، واشتر قطعة قماش ؛ لتصنع حدبة في ظهرك . ودع كوازيمودو يسطو على ذلك البنك .

***

ما إن ولجت شارع الطلياني ووقفت بباب إحدى محاله حتى شممت رائحة الملابس المستعملة ، فأشرعتِ الذاكرةُ بابها على ذلك اليوم الذي اصطحبنا فيه أبي إلى سوق مادبا . وقفنا بباب محل له رائحة قوية ازدادت أكثر حينما أخذ أبي يقلب كومة من القمصان والبناطيل ويختار المناسب لنا ، قمصان وبناطيل حمراء وصفراء وزرقاء . في طريق العودة كنت أحتضن كيسًا فيه ملابسي مثلما فعل عاهد أيضًا . سألت والدي وهو يمشي ويداه وراء ظهره يتأمل الناس :

– لماذا لهذه الملابس رائحة تميزها عن الأخرى؟

قال وفي وجهه شيء من الكدر :

– هكذا هي رائحة أشياء الفقراء .

نظر إلي مبتسمًا وقال كأنه يتراجع عن قول شيء لم أفهمه في الأصل :

– هذه رائحة مادة يضعونها بين الملابس ؛ لئلا تأوي إليها الحشرات .

تجاوزنا السوق فصرنا بأطراف القرية ويداي قد تعرقتا وأنا أقبض فرحًا على كيس الملابس ، وأفكر برائحة أشياء الفقراء . في البيت رحتُ أشم الوسائد وفرشات النوم وأواني المطبخ ، ولم أجد تلك الرائحة ، كان أبي يجلس على الباب وينظر إلى مادبا . قلت له :

- هل نحن فقراء؟

لم يجبني بل بقي شارد الذهن يصوب عينيه نحو مادبا ، وفا تدلت فوقها غيوم أرجوانية اخترقتها أشعة الشمس ، وقد مالت غرنا تفسح لليل بأن يعود إلى مهمته اليومية .

استفقتُ على صوت رجل يحدثني : (تفضل ما الذي ترنا شراءه) . في ذلك اليوم اشتريت ما وجدته قريبًا من ملابس كوازيمودو الكلاسيكية ، وعرض علي موظف المحل أن يريني مزيدًا منها بما أني مهتم بها ، فأخبرته بأني سأعود مرة أخرى وأكتفي بما أخذت . ثمة زقاق دخلته وارتديت الملابس ، وأعددت حدبة صناعية ، وأنا أردد :

- هذا هو الجنون بعينه يا إبراهيم .

انبثق الصوت محتجًا :

- أنت كوازيمودو تيمم شطر (كلود فورولو) اللعين .

***

سمعت أحدهم وأنا أخرج من شارع الطلياني ينادي علي ضاحكًا : (كوازيمودو) . هذا الاسم الذي لا أحبه والذي أطلقه علي القاضي كلود فورلو بعد أن تسبب بحبس أبي وأمي ؛ رغبة بتطهير باريس من الغجر ، كوازيمودو (نصف المكتمل) هذا ما عناه فورلو اللعين بهذا الاسم . كان الناس وأنا أسير على رصيف شارع الملك حسين يبتعدون عني : منهم من ينظر إلي مشدوهًا ، ومنهم من يغطي عينيه بيديه ؛ خوفًا من خلقتي . ثمة فتاة أخرجت من حقيبتها هاتفها والتقطت لي صورة بعجالة ومضت في طريقها تنظر إلي مستغربة . كان لها وجه يشبه وجه أزميرالدا ، أووو يا أزميرالدا ، ليتني أجدها الآن في زحام عمان لأجثو عند قدميها وأخبرها بالمزيد من الحب الذي ما يزال

قلبي يشتعل به نحوها ، مثل ذلك الحب الذي لابد أنها أحست به ،عاد يطير قلبي من صدري حين أنقذتني ليلة نزولي من برج نوتردام إلى مهرجان الحمقى ؛ لأرى ولأول مرة أناسًا اعتقدوا عندما شاهدوني أني متخفٍ بزي رجل بشع الخلقة . عندما اكتشف فورلو أمري أنزل سخطه علي ؛ لأني عصيت أمره في المكوث في برج نوتردام سجينًا ليس لي إلا أن أراقب الناس من هناك ، يا الله كم ضُربت يومها! وكم كانت الحبال التي أوثقوني بها مؤلمة! لولا أن أزميرالدا أطلقت سراحي واعتقلتني بحبها الأبدي .

مضيت في طريقي أسير على رصيف شارع الملك حسين أمضي نحو البنك الذي لا بد أن أجد به كلود فورلو وأهزمه ، مثلما هزمه جند القاضي (فيبس) ليلة أن هاجم ساحة العجائب ؛ لينكل بالغجر ويتزوج بأزميرالدا . مر أحدهم بقربي ضاحكًا وغير مشمئز من خلقتي مثل الكثيرين . قال ساخرًا : (سأخبر نابليون عنك ، لا بد أنه يقرأ الكتب الآن تحت أشجار عمان المحظوظة بغريبي الأطوار) . كانت سماء عمان في ساعات ذلك الصباح قد أراحت الناس من مطرها وبردها الشديدين ، فبدت الشوارع مزدحمة تعج بالعمانيين وبعابري المدينة وزائريها . وقفتُ أستريح قليلاً من الوقت وأنظر إلى ذلك الكشك الذي حل محل كشك الوراق فيبيع الهواتف بدلاً من الكتب . ليتهم اخترعوا هذا الهاتف النقال في ذلك الزمن لكنتُ بُحتُ لأزميرالدا كل ليلة بما يجول في قلبي ، ولكنت أخبرت سكان باريس عن نوايا كلود فورلو السيئة .

عند باب البنك كان الناس ينظرون إلى الحدبة في ظهري ، بينما بشاعة وجهي تثير اشمئزازهم ؛ فيشيحون وجوههم عني . ترددت قليلاً لكن الصوت دفعني إلى الداخل : (هيا يا كوازيمودو) . ثمة آلة

إلكترونية لحجز الدور ضغطت على زرها والقفاز في يدي ، ثم جلست كأنني أنتظر دوري أمام نظرات الشفقة والاستغراب من الموظفين نحوي . كان كلود فورلو يجلس إلى الكاونتر بعينيه المليئتين بالحقد عند نافذة كتب أعلاها رقم واحد ، بينما أمام النوافذ الأخرى جلست امرأتان . تمتمت بسري : كلود فورلو أيها اللعين كرهك للغجر جعلك تحرق نصف باريس ، ولعلك المرضي بأزميرالدا دفعك إلى اعتقال نصف الغجر ، وإحراق كثير من البيوت بحثًا عنها .

تأملت أبعاد المكان وعدد من فيه ، لم يكن في صالة الزبائن سوى امرأة ورجل على مقربة من المغادرة . قال الصوت يحضرني لساعة الصفر : (تهيأ يا كوازيمودو) . خرج الرجل ثم لحقت به المرأة تتفحصني بوجل تمامًا مثل فورلو والموظفة التي كانت تنظر إلي . جاء صوت امرأة مسجل ينادي على الرقم الذي أحمله ، ثمة حاجز زجاجي بيني وبين كلود فورلو . من الجانب الأيسر للصالة باب رأيت موظفًا يخرج منه نحو الصالة وعاد يسلكه نحو المكان الذي يجلس به فورلو ، بينما موظفة أخرى تنشغل بالعمل على الحاسوب . تذكرت وأنا أمشي نحو الباب أن الكاميرات يمكن أن تلتقط صورة لعيني فارتديت القناع وعبرت الباب بعجالة . ما إن صرت في الداخل حتى أمسكت بفورلو من رقبته وصوبت المسدس نحو رأسه ، قلت وأنا أنظر بوجهه الذي ضج بالخوف :

– فورلو أيها الحقير تسببت بحبس أبي وأمي ، حينما وجدتني وحيدًا أشفقت علي وسجنتني في برج نوتردام ، هذه شفقة أمثالك المزورة .

التفتُ نحو حارس الأمن ، وطلبت منه أن يغلق الباب ويلقي سلاحه من يده ، ونبهته إن قام بأي حركة سوف أقتل فورلو ، مشى

الحارس نحوي وألقى بالمسدس في سلة للمهملات كما طلبت منه . أمرت الموظفة التي تبولت على نفسها أن تضع كل ما لديها من مال في كيس بلاستيك ، صرخت بها حينما وجدتها تتباطأ :

- سأقتله ، ثم أقتلك .

أسرعتْ من حركتها إلى أن صار الجارور المعدني فارغًا ، فناولتني الكيس البلاستيكي ، حملته وتراجعتُ وفورلو بين يدي . في تلك الأثناء ، دخلت امرأة وحين رأتني أصوب المسدس إلى رأس فورلو صرخت وكادت تهرب لولا أني هددتها فابتعدت عن الباب وجلست أرضًا . عند الباب أطلقت سراح فورلو ودفعت الباب لأهرب فارتطمت بشاب كان ينظر إلي مشدوهًا ، دفعته بيدي فسقط أرضًا وهربتُ .

بسرعة سلكت زقاقًا يقع بجانب البنك ركضًا ، وأنا أخلع عني القناع ، وأخبئه في الكيس هو والمسدس ، وأخلع المعطف وألقيه جانبًا هو وقطعة القماش التي كنت قد صنعت بها الحدبة . وقفت في منتصف طريقي ، وخلعت البنطال الذي ارتديته على بنطال آخر وتخلصت منه . التف بي الزقاق إلى الشمال بعد عدة أمتار ، فتوقفت قليلاً ، ووضعت المسروقات في كيس آخر ، وألقيت الكيس الذي كنت قد خرجت به من البنك ، خلعت القفازات وعدت أجري والصوت يرافقني محفزًا :

- اركض يا إبراهيم ، لا تتراجع .

أصبح الزقاق مظلمًا فلا أدري أي مكان دخلتُ ، بعد مسافة رأيته سيفضي بي إلى الشارع فعاد الصوت ينبهني :

- عليك وأنت تخرج إلى الشارع أن تتقمص شخصية الأمير (ليون نيكولايفيتش ميشكين) . من المؤكد أنك لم تنس رواية الأبله

ولا مؤلفها دوستويفسكي ، أنت الآن ميشكين بسذاجته ، وبملامح وجهه التي تدل على الطيبة الزائدة ، إنه شكل فريد للبلاهة . ضع الصورة التي رسمتها له حينما قرأت الرواية نصب عينيك الآن ، تأملها جيدًا ، سيأخذ وجهك القسمات ذاتها لوجهه .

وكأنني هبطت من القطار للتو عائدًا من سويسرا إلى بطرسبرغ ، للقاء قريبتي الوحيدة من سلالة عائلته الجنرالة (اليزابيت بروكوفيفنا) خرجت إلى الشارع المزدحم . مضيت أمشي بهوادة أفكر (بأجلايا إيفانوفنا) الجميلة بنت الجنرال (إيبانتشين) التي طالما فكرت بها في تلك الليالي الجميلة . توقّف الباص العمومي ، فصعدته بترو ، بعكس الذين تدافعوا إليه ، وجلست وفي بالي تترد صورتان : واحدة لأجلايا ، وأخرى للسيدة نون . توقفت الحافلة وصعد شاب جلس بجانبي رأيته يتابع عبر هاتفه النقال بثًا مباشرًا على الفيس بوك لسطو على البنك ، لاحظ الشاب أنني أختلس النظر إلى هاتفه :

- يقولون إنه سرق ربع مليون دينار .

قال ذلك ، ثم عاد يحدق بالبث يبتسم مرة ، ومرة أخرى تعتري وجهه ملامح جادة :

- أقسم إنه رجل .

أغلق شاشة هاتفه ، ونظر نحوي بطرف عينيه :

- إنه المقنع ، لقد سطا على بنك قريب من الدوار الثالث قبل شهر تقريبًا ، ولم يجدوا له أثرًا .

ابتسمتُ بسذاجة أنظر إلى الجنرال إيبانتشين ، ثم نهضت من مكاني أتهيأ لمغادرة الحافلة التي تسلك طريقها إلى الدوار الثالث . حملت الكيس وضغطت على زر الجرس قبل الفتحة التي تؤدي إلى

الزقاق بعدة أمتار ونزلت . (هيا يا إبراهيم) دفعني الصوت لأسرع من خطواتي ، لم يكن أمام المحال من أحد يمكن أن يلاحظ دخولي عبر كوة الجدار ، ولا من مارة يسلكون الرصيف مشيًا ، فدخلت بهدوء ، وسلكت الزقاق مسرعًا . فتحت باب البيت بهدوء ، وتأكدت أن ما من أحد فيه ، فتعجلت بإزالة كتلة الطوب لمداراة ما معي تحت البلاطة :

– توقف ، عليك أن تتهيأ لمغادرة هذا المكان غدًا بعد أن تترك المال هنا ، أنت تمتلك الآن ما يقارب نصف المليون سلبتهما من بنكين في مكانين قريبين من بعضهما ، يجب أن تخرج وتفتش عن شقة بعيدة عن هنا ، حينما تستقر هناك سأخبرك بالشق الثاني مما عليك أن تفعله ، لا مزيد من السطو على البنوك الآن .

خبأتُ المبلغ بعد أن أخذت منه عشرين ألف دينار وداريتها في حقيبتي ، واستلقيتُ في الفراش أتنفس الصعداء . كانت الأصوات التي تأتي من الخارج اعتيادية ، ودرجات الحرارة معتدلة ، إذ طَرَدَتْ شيئًا من رطوبة البيت . إبراهيم الوراق ، ومن ثم ديوجين ، وها أنت الآن روبن هود ، ثلاثة لا تستطيع أن تكون واحدًا منهم بالكامل ، إلى أين تمضي؟ وما هي الخاتمة؟ وجدت النوم حلاً لطرد نوبة القلق التي داهمتني ، فنمت .

***

رغم أني لم أنم جيدًا جراء هجوم الكوابيس الشرس إلا أنني استفقت باكرًا ، أهش عن مخيلتي مشاهد غرائبية كثيرة ، وأطرد من حلقي مرارة عتيقة . البارحة سطوتُ على بنك ولذت بالفرار ، كيف يبيح وراق محشو رأسه بالكتب لنفسه ما فعل؟ أغمضت عيني فرأيتني في زمن الطفولة ، في القرية أمشي باتجاه قرص الشمس أحلم بأن أمسك به . كلما مشيت كان ينأى ، وكلما نأى هوى إلى الأسفل

إلى أن حل الليل وضيعتُ الجهات .

كان الشباب والشابات ما يزالون نيامًا عندما رفعت البطانية عن وجهي ، بدوا لي كمشهد رأيته في فيلم لنيام في المطار وقد أزف موعد إقلاع الطائرة . أيّ حدث ينتظرونه؟ وأي طائرة يأملون أن تبعدهم عن هذا البيت المهجور؟ كان الصوت يتجسس على ما أهجس به .

– ما ستفعله لأجلهم هو الطائرة التي ستبعدهم عن هذا الخراب.

نهضتُ من فراشي ورشقت وجهي بقليل من الماء ، وجففته بطرف قميصي ، واستطلعت عبر فتحة الباب ما لاح لي من عالم ليس من السهل أن يعطيك ما تريد . كان الطقس ما يزال دافئًا ، فخرجت واشتريت عددًا من الصحف . كان بودي أن أجلس في مقهى قريب تفوح منه رائحة القهوة يتبعها صوت فيروز تغني للصباح ، لكن الصوت منعني من ذلك ، فلا بد أن الأمن يفتشون كل الأمكنة . عدت وأشعلت الموقد ، وحضّرت الشاي ، وجلست أتصفح الجرائد ، وجدت خبرَ اللص المقنع يتصدر الصفحات الأولى ، وعدد من المقالات تتطرق إلى الحادثة . استفاقتْ ليلى وسكبت لنفسها كأس شاي ثم جلست بقربي تلف كتفيها ببطانية :

– اليوم سأرتحل إلى البيت الذي سأعمل فيه ، لكني مطمئنة لعيشي مع سيدة عجوز .

توقفتْ عن الكلام وبدا عليها الشرود ، ثم راحت تروي لي كيف اغتصبتها مشرفة في الملجأ تدعى رناد محمود . روتْ لي ذلك كأنها تحاول قبل الشروع بعملها الجديد كسر حاجز الخوف من الناس جراء تلك الحادثة ، كانت تتحدث وشفتاها ترتعشان ، ويدها تمسك بكأس الشاي بتوتر واضح :

بطاردني وجه تلك المرأة في مناماتي ، وفي صحوي ، أصابعها ..ان جسدي الذي كرهته منذ ذلك الحين .

قالتْ ذلك ، ثم بكتْ موجوعة ، ونظرتْ إلي كأنها تستغيثني أن اصها من آثار ما جرى .

حملتْ كيسًا ودخلتْ إلى غرفة مليئة بالحجارة والأوساخ ولا حلها أحد . بعد دقائق عادت ترتدي ملابسها النسائية :

-لا يعقل أن أذهب متخفية بلباس رجل .

افتعلتْ ابتسامة باهتة ، ثم فتشتْ عن حذائها وراحت ترتديه وهي جالسة بقربي :

- سأزوركم في إجازاتي ؛ لأطمئن عليكم .

كان نور ينظر من تحت البطانية نحو ليلى ، قال بصوت تشوبه وتيرة ..كاء :

- هل سيسمحون لك بزيارة مشردين مثلنا؟

- حتى لو لم يسمحوا سأزوركم رغمًا عنهم .

جثتْ عند فراش نور الذي غرق ببكاء أفاق الآخرين من نومهم ، وودّعوا ليلى باكين بمرارة لم أرها على وجه أحد ، عانقتْهم واحدًا واحدًا ، ثم وقفتْ قبالتي تمسح دموعها بكميْها :

- رغم أنك صامت في معظم الأحيان إلا أنني شعرت بأبوتك التي تمنيتها طوال سنين الملجأ ؛ لهذا لن أتوانى عن لقائك مهما حدث .

احتضنتني ، وغادرت تتنهنه بالبكاء . استلقيت في فراشي أقلب أوراق الجريدة ، أبحث عن إعلان لشقق مفروشة ، فوجدت إعلانًا لبناية قرب الدوار السابع ، قلت لهم : (سأذهب عند صديق وأعود) .

كيف لو يعرفون أن في هذا البيت المهجور كثيرًا من المال؟ فكرت با
أتأمل ما لاح لي من وجوههم خلال العتمة . كيف سأقول لهم إني
سأغادر بعد أن وجدوا بي ملاذًا من أحزانهم الكثيرة؟ هل أعطيهم
شيئًا من المال؟ احتج الصوت على ما كنت سأفعله ، نبهني لخطأ ا
ذاك يمكن أن يكشف ما قمت به . عجزت عن قول أي شيء فحملت
حقيبتي وخرجتُ ، عند الباب لحق بي نور ، بينما الآخرون ينظرون إلي
بصمت حزين :

- حتى أنت ستتركنا؟

لامستُ رأسه وأنا أنظر نحو عينيه الدامعتين :

- صدقني سأعود .

كابوس

أتجسس على هاتف إياد نبيل ، أقرأ قائمة ما طلبه من طعام ، أتأكد
من وقت وصول ما طلب ، أعيد قراءة رسائله عبر الفيس بوك لإحدى
عشيقاته ، أصل البيت قبل وصول موظف خدمة التوصيل الذي
سيحضر له قائمة طلباته ، أوهمه بأني أحد الموظفين لدى السيد إياد ،
أدفع للموظف ، وأحمل الطعام ، أتأكد من مغادرة الموظف ، أضع السم
في الطعام ، أقرع الباب فتنفتح لي امرأة أربعينية ، تأمرني أن أضع ما
معي في المطبخ ، أستلم منها ثمن ما طلبوا ، أغادر ، أنتظر قريبًا من
البيت ، أنصت لصوت ضحكات المرأة ، يتلاشى صوتها ، أكسر الباب
وأدخل البيت ، أنظر إلى إياد نبيل ملقى على الأرض وبقربه المرأة
ميتيْن ، أفتش عن الجهاز الذي ربطت به كاميرات المراقبة ، أحذف
التسجيل الذي ظهرتُ فيه ، وأغادر .

الفصل الخامس

«أي ثمن باهظ يدفعه الإنسان حتى تتضح له حقيقة نفسه وحقيقة الأشياء»

الطيب صالح

١
الصحافية
(حب لا مهرب منه)

كنت أحدق عبر نافذة الحافلة كأني أفتش عما يضرم النار بحقول كآبة غزت مساحتي الداخلية . لعمان لحظات تجعلك تقع في حبها مهما تكاثرت الأسباب التي يمكن أن تثير فيك السأم مثل صباحها المزدحم بالناس ، والعربات ، والحافلات ، صباح يثير فيك نوعًا من بهجة تمنحك شيئًا من التوازن . بهاتفي التقطت صورة للناس في الشارع ونشرتها في الفيس بوك وكتبت أعلاها : (زحام) . تفقدتُ الصفحة العامة فوجدت حسابات كثيرة تتحدث عن اللص المقنع ، رجل لفت انتباهي على نحو غريب لم أفهم له سببًا ، إذ دفعني في ذلك اليوم إلى أن أطرق باب مدير التحرير ، وأطلب منه أن أكتب سلسلة مقالات حول هذا الرجل فوافق . ثمة شعور أخذني إليه يشبه الإعجاب ، ويشبه حاجتي إلى رجل من هذا النوع . كم كان سيبدو غريبًا لو أخبرت أحدًا من زملائي بذلك الأمر! أي رغبات غامضة تتوارى في النفس تلك البئر المليئة بالأسرار؟ جلست إلى طاولتي أنظر من جديد في صفحات الفيس بوك . ثمة فنان رسم لِلّصِّ المقنع صورة غريبة : رجل بثياب بالية يرتدي قناعًا بلون أحمر فاقع كُتب أعلاه (الشنفرى) ، فصارت أيقونة رئيسية لمئات من حسابات المستخدمين الذين يمتدحونه ، ويمجدونه ، ويتعاطفون معه . لكن كيف يمتدح الناس

لصاً؟ ومن أين جاؤوا بكل هذه الحكايات التي تحكي سيرته وتفاصيل سرقاته؟ وكيف أجد بي ميلاً غريبًا إلى رجل ربما يكون وهمًا؟ كنـ.. أحدهم حوله : رجل سريع الخطى ، يقفز ليلاً من فوق البنايات بخفة ذئب صحراوي ، يزور بيوت الفقراء ويهدي إليهم الفرح .

أشغلني هذا الرجل واستحوذ على تفكيري ؛ حالة طريفة إن كانت كما تروى ، وربما أنها أكثر طرافة مما يعلم الناس عنها . في المساء فتشت عبر الانترنت عن كتب تتطرق إلى شخصيات اللصوص ، كيف يفكرون؟ لماذا يسرقون؟ ثم قرأت عن الشنفرى . أمضيت تلك الليلة أبحث في الكتب التي وجدتها عن أي معلومة تساعدني على فهم ما يجري . عند الحادية عشرة أويت إلى فراشي وصورة اللص والقناع على وجهه تخرج إلي من العتمة الجزئية للغرفة : (ليت بإمكاني أن أزيل هذا القناع لأرى من أنت) ، كنت أحدث نفسي حينما انتبهت أني أمد يدي في الهواء . تقلبت في سريري أحاول النوم ولم أنله ، من مكان سري أخذ صوت الدودوك يتهادى إلى مسمعي ، ورأيت الرجل يمشي في الشارع في مساء ماطر ييمم شطر جهة مجهولة ، رجلاً تركني وأوصد الباب عليّ . استلقيت في السرير ، فاقتحمتني صورة المقنع يمشي جنبًا إلى جنب مع رجل الليلة الماطرة ، وكأنه بات جزءاً من مشاهد المسلسل الذي أعمل عليه . أشعلت الضوء ، ووضعت حاسوبي على قدمي ، ومضيت أكتب المشهد كأني أخشى ضياعه ، رغم أني أمضيت ساعات في الكتابة إلا أن النوم نأى عني فأغلقتُ الحاسوب ، والتقطتُ الدفتر الذي كنت قد وضعته على طاولة بقرب السرير ، أقرأ ما أراد الرجل قوله :

(في مساء الخامس من شهر حزيران عام ١٩٦٧ كان جاد الله

t.me/qurssan

يصعد درج البناية إلى (تاماركا إيفانوفيتش) ، الفتاة التي أحبها منذ أول مرة التقاها في باحة جامعة لومونوسوف . كان جالسًا على مقعد في الباحة الخارجية يستغل سطوع الشمس ، وينهمك بنقل بعض المعلومات من كتاب بالروسية بين يديه لنيكولاي ستراخوف . في مقعد قبالته جلستْ فتاة متوسطة الطول ذات شعر أشقر متجعد ينسدل على عينين زرقاوين ، تضع ساقًا على ساق ، وتقلب صفحات كتاب وتبتسم جراء ما تقرأ . وضعت الكتاب جانبًا ، ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجائر وأشعلت واحدة ، ونفخت دخانها في الهواء . انتبهتْ إلى أن الرجل الذي يقابلها يحدق بها مبتسمًا فهزت رأسها ترد له الابتسامة ، وعادت تنظر في الكتاب ، لكنها كانت مع كل صفحة تقرؤها توجه نظرة إلى جاد الله الذي ما إن يفاجأ بعينيها تكتشفان تحديقه بها حتى يمعن بكتابه من غير تركيز فيه .

- هل أنت عربي؟

جاء صوتها ناعمًا إلى مسمعيه ، فأقفل الكتاب ، ورد عليها مكابدًا تدفق الدم الحار في وجهه :

- نعم ، من الأردن .

تأملت تاماركا ذلك الشاب الأسمر ذا العينين السوداوين وشعره الأسود يهبط أسفل أذنيه ، فبدا لها مرتبكًا يحك شاربه الخفيف :

- ماذا تدرس؟

- الفلسفة .

رغم أن صوت والده وهو يودعه في المطار في تلك السنة لم يفارق مخيلته يوصيه بأن يعود طبيبًا ماهرًا أفضل من نقولا ، إلا أن جاد الله درس الفلسفة التي أغرم بها منذ أول كتاب قرأه في المدرسة . لم يجد

نفسه طبيبًا حين كان يستلقي في القرية على ذلك السرير الذ... صنعه ، بل وجد نفسه فيلسوفًا وقد أغرم بكتب كانت قرب رأسه ... تلك السنين تؤنسه وتضيء له دروبًا جديدة . عاش صراعًا في أيا... الأولى للجامعة يتعلم اللغة الروسية ، لكنه حسم أمره بأن احـ... الفلسفة رغم معرفته بما يحتاج أبناء قريته الذين كانوا يسمون الطب... حكيمًا ، ولا يذهبون إليه إلا نادرًا ، فالخلاء صيدليتهم الدائمة الشيح ، والقيصوم ، والبعيثران للمغص ، (الحليلوان) والبراز الحولي للكلب دواءً للرمد ، و(الجدحة) علاجًا بالكي للمفاصل ، والطحـ... والبيض والقماش أدوات لتجبير الكسر . لكن لا غنى عن نقولا الذي كان يداوي أمراضًا تستعصي عليهم . لم يحب الطب رغم احتياج الناس له في تلك الأيام ، لم يخبر أحدًا بما يدرس ، اكتفى بأن ظل يرسل لهم صورًا مرفقة برسائل يرد فيها على استفسارات أبيه وإخوته

ومنذ ذلك اليوم الذي عرف فيه تاماركا وبات يناديها تامي أصبح أكثر قوة من الداخل ، قوة أقصت الضعف ، والشعور بتأنيب الضمير ... جراء عدم تحقيق رغبة والده ، وجعلته أقوى أمام ما يؤذيه من كوابيس ... ومشاعر غريبة . أحبته تامي ؛ أحبت فيه رقته ، وتهذيبه ، وجديته ، وإقباله على الحياة ، وأحبت عشقه العميق لها ، كانت تدرس الرسم في الجامعة التي ضمتهما ، كل يوم يذهب إلى كليتها ويطبع على خدها قبلة ويقدم لها وردة ، فتقول ضاحكة : (ستنفد ورود الجامعة وأنت تقطف كل يوم لي واحدة) . في المساء يلتقيان في شقتها التي تقع في شارع (بولشايا نيكيتسكايا) ، ويغادر عند منتصف الليل . تعلق جاد الله بتامي فليس لديه الكثير من الأصدقاء ، إذ إن له طبعًا حادًا جعله يخسر كثيرًا ممن عرفهم ؛ لهذا اكتفى بالقليل منهم مع بقائه

خائفًا من أن يتركوه . لكن علاقته بتامي جعلته يطمئن أكثر كأنه يريد شارنًا أكثر من ذي قبل من خلالها . في أحد اللقاءات قال لها إنه يريدها أكثر قربًا منه ، يريدها معه في كل الأوقات ؛ فسافرا إلى (روهورد) ، مدينة تقع في غرب أوكرانيا على الحدود مع سلوفاكيا ، وبالقرب من الحدود مع المجر حيث تقيم عائلة تامي . أمضى أسبوعًا مع عائلتها فأحبه والدها ، أحب فيه ثقافته ، وسعة اطلاعه ورؤيته الفلسفية العميقة ، وكذلك جاد الله وجد فيه أيضًا ما جعله يتعلق به . كتب رسالة لوالده يشرح فيها كيف عرفها وأحبها ، حكى له عن والدها ، وأمها ، وإخوتها ، ثم طلب منه إذنًا أن يتزوجها . أرفق بالرسالة بعض الصور له ، ولتامي ، ولعائلتها . بعد أسابيع جاءه الرد : (الفارس لا بد له من فرس) . ضحك جاد الله كثيرًا ، وفرح بهذا الرد رغم الغصة التي في حلقه ، كيف سيعود بلا شهادة الطب!

كان مساء الخامس من حزيران حينما انتهى جاد الله من آخر درجات السلم وقرع الباب ، أطلت تامي وهي منشغلة بتقرير تلفزيوني عن معركة ٦٧ ، ألقى من يده صحيفة وكتبًا ، ثم جلس ينصت إلى مذيع ينقل أخبار المعركة ، وتامي تقف قربه تمسك بملعقة حركت فيها طعامًا تطهوه .

أرخى جسده على الكنبة ينظر إلى التلفاز حيث انتهى المذيع من قراءة نشرة الأخبار ، ويد تامي تمسح على شعره . أمسك بالراديو وبالكاد التقط إذاعة صوت العرب ، فجاء صوت أحمد سعيد يأمر سمك البحر بأن يتجوع لجثث الأعداء ، أنصت إليه قليلاً ثم أقفله :

- يبدو أن المنطقة العربية ستدخل في مرحلة قاسية جدًا ، بعد هذه الحماسة .

بعد ساعات جاء أصدقاؤه : شاب كوبي يدعى باتيستا ماريا يدرس الرسم ، ونائل الفلسطيني الذي يدرس الطب ، وخالدة العراقية طالبة الكيمياء . أحضروا معهم زجاجة فودكا وبعض الخضار والفاكهة ، تناولوا العشاء ، وانخرطوا في حديث حول حرب كان جاد الله خائفا من نتائجها ، ويرى أن العرب غير مؤهلين لحرب مثل هذه . تعالى صراخهم وهم ينعتونه بالانهزاميّ ، وأنه يروج لفكرة يرددها العملاء .

بعد ستة أيام من تلك الليلة كان جاد الله خارجًا من الجامعة ، وفي طريقه إلى تامي ؛ ليعودا سويًا إلى البيت . أعطاه زميله صحيفة تضمنت ملحقًا زود بكثير من الصور : صورة لطائرة عسكرية مصرية محطمة في سيناء يقف قربها جنود إسرائيليون . صورة لطائرة ميغ ٢١ مصرية مدمرة على أرض المطار . صورة لمظليين إسرائيليين بالقرب من حائط البراق بعد سقوط القدس الشرقية . صورة لتحصينات سوريّة في الجولان بعد أن غادرها الجنود . صورة لجنود عرب أسرى يرفعون أيديهم مقابل فوهة بندقية لجندي إسرائيلي . قرأ المانشيت العريض وشهق بالبكاء رغم أنه توقع النتيجة مسبقًا : (إذن خسرنا المعركة) .

في ذلك اليوم عاد إلى البيت بمفرده ، لم يتحمل المشاهد التي كانت تعرض على شاشة التلفاز فأطفأه ، وجلس يشرب الفودكا ، حينما عادت تامي كان يغط بالنوم ويهلوس . عند منتصف الليل استفاق على صوت أصدقائه الذين أمضوا ليلتهم يتحدثون حول ما جرى ، وجاد الله صامت يدخن ويشرب ، نام بعمق بعد أن غادروا ، وتامي بقربه تصحو كلما سمعته يهذي . في الصباح خرجتْ وأتتْ بما يحتاجه البيت ، وبرسالة قادمة من الأردن حينما قرأها جاد الله غرق بالبكاء فقد استشهد شقيقه سليم .

منذ ذلك اليوم شعر بشرخ في داخله منحه الكآبة والعبوس الكثير في وجهه ، ما عاد يخرج كثيرًا ، يمضي جل وقته في القراءة لأجل حصصه الجامعي ، ثم يغرق بقراءة كتب في الفلسفة والسياسة . صار كائنًا منعزلاً ، لكنه حافظ على حبه لتامي التي عرفت كثيرًا عن حياته في الأردن ، وراحت تُهيِّئ نفسها للانتقال للعيش معه بعد انتهاء الدراسة ، لكن كل شيء تبدل ؛ إذ كان جاد الله عائدًا من لقاء بطلاب عرب سهروا حتى منتصف الليل يتحدثون في الأدب والسياسة ، حينما وصل باب الشقة وجد صديقه الكوبي باتيستا مانويل يجلس قربَ الباب ، كان وجهه حزينًا على غير العادة التي رآه عليها من قبل يتحدث عن الفن والرسم . اقترب من باتيستا :

- ما الذي حدث؟

لكن باتيستا بقي صامتًا وكتفاه تهتزان ؛ جراء بكائه بصوت خافت . حينها صرخ جاد الله ، فتردد صوته بين الجدران :

- ما الذي حدث؟

- ماتت تامي .

- كيف؟

صرخ جاد الله ، ثم جلس على درجات السلم التي تصعد إلى الطابق العلوي ، فأمسك باتيستا بيديه :

- كانت تعبر الشارع فدهستها سيارة ، لقد ماتت على الفور .

في تلك الليلة مُنِيَ جاد الله بانكسار جديد يضاف إلى انكساراته السابقة ، ماتت تاماركا التي أحبها كما تحب الشجرة مجاورتها للنهر . بكى بصمت في شقته ، وامتنع عن الذهاب إلى الجامعة ، ولم يستجب لطَرقات أصدقائه على الباب إلا بعد أسبوع . حينما فتح

الباب كانت لحيته كثة ، وعيناه غائرتان ، وجسده هزيل . لم يتمالك نفسه فسقط مغمى عليه .

***

لم يعد جاد الله إلى الأردن في إجازة ؛ لأنه كان يهرب من عيني أبيه اللتيْن تلاحقانه حتى في المنام ، وتنتظرانه طبيبًا ، وجراء حزنه على تاماركا . تعثرت حالته النفسية وبات يميل أكثر إلى العزلة واستحال إلى كائن صامت لا يجد متعة في شيء ، يمضي جل وقته في القراءة ، إلى أن تخرج من الجامعة في صيف ١٩٧١ ، لكنه لم يغادر إلى الأردن ، بل اعتقل . حدث ذلك في أحد مساءات آيار من ذلك العام ، حيث كان برفقة عدد من الطلاب العرب والسوفييت في مقهى الجامعة يتحدثون حول هزيمة ٦٧ ، صمت الجميع حينما انفعل جاد الله وشتم الاتحاد السوفييتي ، وشتم بريجينيف ، كان يتحدث بصوت مرتفع وينظر نحو أحد زملائه السوفييت :

- أنتم تخليتم عنا ، بل إنكم ضللتمونا حينما أرسلتم لمصر معلومات تزعمون عبرها أن تعزيزات عسكرية إسرائيلية على الحدود مع سوريا ، كنتم تدفعوننا إلى الحرب رغم أنكم تعرفون قدراتنا .

وضع باتيستا يده على فم جاد الله يحاول منعه مما كان يقول ، لكن جاد الله أبعد يده واستشاط غضبًا :

- بفعلتكم هذه عبرتم عن رغبتكم بأن توجه إسرائيل ضربة لنا .

نهض جاد الله ومشى عدة خطوات ، ثم التفتَ إلى الطاولة حيث كان الجميع ينظرون إليه صامتين :

- أمنا بكم ، لكنكم خذلتمونا .

في مساء ذلك اليوم قرع باب الشقة بقوة ، ما إن فتحه حتى وجّه

له رجل لكمة على وجهه أسقطته أرضًا ، فقيده الآخرون واقتادوه معصوب العينين وألقوه في عربة وساروا به مسرعين . وجد نفسه في زنزانة مظلمة ليس لها إلا نافذة صغيرة مرتفعة . حاول في البدء أن يستوعب ما حدث ، ومن هؤلاء الرجال الذين اعتقلوه . لكن وبعد ساعات تراءت له الجدران تزحف إليه ، وقاسى ثقل الوقت وتلك الظلمة التي غرق بها . استعاد حياته منذ سنين الشقاء في الطفولة ، إلى سنين المدرسة ، مرورًا بزمن الجامعة . أحس بقوته تلفظ أنفاسها الأخيرة فتملكته نوبة هستيرية ، إذ راح يطرق الباب بقوة ويصرخ شاتمًا من اقتادوه إلى تلك الزنزانة التي بقي فيها بلا ماء وطعام وحتى أي مكان أو إناء ؛ ليتبول فيه . لقد قضى حاجته في زاوية المكان ، بعد ثلاثة أيام أخرجوه وأخذوه إلى غرفة معتمة إلا من مصباح يسقط على طاولة ، أجلسوه إليها يقابل رجلاً وجه له سؤالاً مباشرًا :

- ما هو مصدرك في ما قلته حول المعلومات التي أرسلت إلى مصر؟

أدرك جاد الله أنه لدى المخابرات السوفييتية . قال يصر على إجابته :

- مجرد تحليل .

ضحك الضابط كاتمًا غيظه :

- هذا ليس تحليلاً إنما معلومة .

- هذا أكثر ما يمكنني قوله .

جروه نحو جدار وقيدوه ، ثم انهالوا عليه ضربًا ولم يجدوا منه الإجابة التي يريدونها ، جربوا معه كثيرًا من أساليب التعذيب إلى أن وجدوا حالته النفسية قد ساءت ؛ فقد أخذ جاد الله يحدّث نفسه : يضحك مرة ويبكي مرة أخرى ، فأعادوه إلى الزنزانة . بعد أسابيع

أخضعوه لجهاز كشف الكذب فأشار إلى صدق أقواله ، بعد أسبو
أطلقوا سراحه وغادر يتذكر أول لقاء بينه وبين تاماركا ، ويتحسس
شرخًا جديدًا في روحه من دون أن يدري ماذا ينتظره) .

٢

إبراهيم
(اختباء جديد)

خلال الأسابيع الفائتة حَفَرَ البيت المهجور مكانًا له في ذاكرتي ؛ إذ ألفتُ شقوقه ، وثقوبه ، ورائحة رطوبته ، وحتى برده . فالألفة حينما نبع القسوة تؤدي إلى حنين من ذلك النوع الذي يفضي إلى الوجع . في منتصف الزقاق اعترض الصوت خطواتي ، كنت أعتقد أنه أخبرني ما يريد ولن يعود إلا بعد أيام :

- عليك أن تذهب إلى أحد المولات وتشتري ملابس جديدة تشبه ملابس الدكتور زيفاكو ، بطل الرواية التي كنت تخشى من أن تحدث والدك عنها ؛ لأن (بوريس باسترناك) شنَّ هجمة عنيفة ضد النظام الشيوعي آنذاك ، أمر لم يتوافق مع تفكير والدك . ما زالت ذاكرتك تحتفظ بملامح وجه زيفاكو جيدًا ، وبطريقة تفكيره وحتى مشيته ، إلى درجة أنك كنت تردد وأنت تقرأ الرواية في كشك الوراق وضجيج وسط البلد لا يعنيك بشيء : (كم أنت عظيم يا باسترناك!) . هل تتذكر كم بكيت حينما دخلت لارا ووجدته مسجى؟

أسندت جسدي إلى الجدار ، وأرخيت الحقيبة أرضًا وبي شعور مبهم للبكاء :

- أتذكر جيدًا .
- إذن هيا زيفاكو .

في الطريق طلبت من السائق أن أربط هاتفي بشاحن السيارة ، ،
فتحته أفتش عن صفحة رناد محمود إلى أن وجدتها . امرأة أربعيـ
جل صديقاتها من النساء ، لا تكتب في صفحتها شيئًا ، إنما تنـ
أغانيَ ، وعددًا من الصور معظمها برفقة نساء أغلبهن صغيرات في
السن ، تسافر في العام أكثر من مرة . كتبتْ في خانة معلوماتها أنها
مطلقة ولا ترغب باستقبال الرسائل خاصة من الرجال الذين يتصيدون
النساء ، وقالت إنها لا تريد الزواج . كتبتْ في منشور قديم : (أنا أكثر
الناس سعادة بوحدتي) . انتبهتُ حين أقفلتُ الهاتف إلى أن السائق
طوال الطريق يتحدث من غير أن أنصت إليه ، فراح صوت والدي يتردد
في مسمعي : (احذر سائقي سيارات الأجرة ، فكثير منهم مخبرون)
كل ما قلته له هو اسم المول الذي يقع في عبدون .

حينما وصلتُ المول وجدتني محتارًا إلى أين سأذهب في مبنى كـ
مثل هذا ، حيرة رافقها دوار داهمني فجأة ، وجعلني ألتزم مكاني لدقائق
أنظر إلى وجوه غريبة علي ، ضبطتُ نفسي ، ثم تجولتُ مرتبكًا إلى أن
عثرت بمتجر يبيع ملابس فاخرة . قلت للفتاة إني أريد ملابس ذات طراز
كلاسيكي ، أطلعتني على عدة تصميمات اخترت منها كنزة ذات عنق
طويلة ، وبذلة ، ومعطفًا ، وحذاء جلديًا ، وارتديتها في غرفة تبديل الملابس
وخرجتُ . عثرت على صالون حلاقة ، ووصفت للحلاق شكل شعر
زيفاكو ، فقصّ شعري على غراره . دخلتُ محلاً للنظارات الشمسية
فاشتريت واحدة ، وعرجت على محل عطور ، واخترت عطرًا فاخرًا ،
وخرجت . كان الناس ما يزالون في حركتهم المستمرة يدخلون المتاجر
والمطاعم محدثين ضجيجًا لا يغادر الجدران . ما الذي أفعله هنا؟ قلت ذلك
ثم رحت أنظر إلى نفسي : لماذا أرتدي هذه الملابس؟ جاء الصوت آمرًا :

- لكي تنجو عليك أن تختبئ في شخصية زيفاكو ، ما عاد يمكنك التراجع ، لقد سرقت بنكين ولابد أن الشرطة تفتش عنك بكثب ؛ لهذا عليك أن تكون دقيقًا في تنفيذ ما أطلبه منك .

- ستفتش الشرطة عن كوازيمودو ، وسعيد مهران .

- لا بد أن نقصي أي احتمال مهما كان ضئيلاً .

أغمضتُ عيني وأنا أرى أوراق رواية الدكتور زيفاكو تتحرك سريعًا ، وصورته تتشكل شيئًا فشيئًا في مخيلتي ، إلى أن وصلتُ النقطة القصوى من التقمص ، فسمعتُ الصوت يأمرني بمغادرة المكان :

- هيا اذهب للقاء لارا .

اعتاد سائقو سيارات الأجرة في عمان أن يتحدثوا إلى زبائنهم ، لكن السائق الستيني في ذلك اليوم اكتفى - مستغربًا- بتحيات سريعة ونظرات خاطفة إلي ، ثم أخذ ينصت إلى نشرة الأخبار . كنت أسمع من مكان قصي في ذاكرتي صدى صوت المذيع يسرد أخبار الثورة في روسيا عام ١٩٠٥ التي كنت أعرف أنها ستكون مقدمة لثورة ١٩١٧ . لكنهم ظلموا باسترناك حينما كتبني في روايته ، قالوا إنه معاد للثورة ، من دون أن يدروا أنه ليس ستالينياً . بقيت السيارة تندفع متعرجة بين البنايات ، إلى أن وصلنا العمارة التي كان عنوانها مدونًا في جريدة أعطيتها للسائق . أخرجت رأسي من النافذة أستطلع شرفة تقف إليها امرأة ، تُرى في أي شقة تنتظرني لاريسا فيودوروفنا وقد أحبتني رغم حبها الأول بافلوفيتش؟ نظر السائق إلى رقم البناية ، ومن ثم في الجريدة ، وأشار إلى رقم معلق فوق بابها الرئيسي ، وأخذ يقرأ بصوت مسموع عنوانًا عريضًا في الصفحة الأولى للجريدة :

- الرجل المقنع يجبر البنوك على تغيير أنظمة الحماية فيها .

ضحك وهو يتناول أجرته مني ، ثم تنهد عميقًا :

- ربما لا يعنيك الأمر فهيئتك تدل على أنك ابن نعمة .

حدقت به بعينين صامتتين ، فقال ضاحكًا :

- قديمًا حينما كان الجوع يفتك بالناس ، لم تكن النساء يقبلن برجل للزواج إن لم يكن قد غزا وسلب .

تلاشت الضحكة من وجهه وجاء مكانها حزن فقد معه كثيرًا من طاقته . نظر إلي وعيناه ترمقانني بذبول واضح :

- قريبًا سأتجاوز عمر الستين ، وليس في الأفق من أمل يلوح سوى مزيد من ديون تتراكم بلا توقف .

قال حينما رآني أتهيأ للنزول من السيارة :

- أخبرت أولادي أن المقنع لص وعليكم أن لا تؤيدوه ، لكن صدقني أنني في سري فَرِحت بما فعل .

وقفت بباب البناية لا أدري إلى أين يمكنني الذهاب ؛ لاستئجار الشقة ، لكنني رأيت شابًا يخرج من جهة الكراج السفلي للبناية يسرع من خطواته نحوي :

- بماذا أخدمك يا سيدي؟

قلت بنبرة متواضعة يقف التعالي خلفها :

- أتمنى أن أجد لديك شقة ؛ لأستأجرها .

ابتسم الرجل :

- ستجد الكثير من الشقق ، لا تقلق ما عاد الإقبال كما كان .

طلب مني باحترام مبالغ فيه أن ألحق به ، فصعدنا إلى الطابق السابع ، فتح الرجل باب الشقة ودخل يطلعني على أرجائها . كانت شقة فاخرة ، فيها غرفتا نوم ، وصالة جلوس ، وغرفة ضيوف ،

وحمامان ، وزودت بأثاث فاخر . هنا سنتوارى أنا ولارا عن عيون من يلاحقوننا ويتهموننا بمعاداة الثورة ، سأكتب ما كان يحوم ببالي من أمارات أولى للقصائد ، لم أكن أدري أن الرجل يتحدث إلي إلا عندما نبهني ، فاعتذرتُ له ، وكافأته بعشرين دينارًا ، وطلبت منه العقد حتى أوقعه . غادر يؤكد على عودته بسرعة مرددًا كلمة سيدي كثيرًا . تجولت في الشقة ، ثم دخلت غرفة النوم : سرير وثير قبالته مرآة عريضة ، وجدتُ الدكتور زيفاكو يطل علي من زجاجها . الملامح ذاتها ، والحركات ذاتها . كيف لإنسان أن يتقمص شكل ووعي إنسان آخر؟ أي جنون للدماغ يحدث في لحظات مثل هذه!

عاد الرجل يحمل العقد ، دونت اسمي فيه ووقعت . نظر الرجل في الورقة وتساءل مستغربًا :

- اسمك يوري أندرييفيتش زيفاكو؟

صمت الرجل وعاد يتساءل :

- ولكنك تتحدث العربية!

كمن يصحو من شيء وجدت نفسي عاجزًا عن إجابة الرجل ، فأخذت الورقة من يده ومزقتها :

- عذرًا ، ضغوطات الحياة باتت تشوشنا .

وقعت عقدًا جديدًا لشهرين قابلة للتجديد ، وأعطيته الأجرة مُقدمًا بعد أن اخترت أوراقًا نقدية ليس لها رقم التسلسل نفسه ، وخاصة من تلك التي كانت تعود لي بعد أن تسوقت أكثر من مرة . أعطاني ورقة :

- هذا رقم هاتفي النقال ، اتصل بي إن احتجت شيئًا يا سيدي .

- هاتفك النقال؟

أخرج من جيبه هاتفًا ورفعه أمام عيني . فقلت مستدركًا :

- نعم نعم ، لكنني فقدت هاتفي من أين يمكنني شراء واحد جديد؟

- المحلات كثيرة ، وثمة (مول) بالقرب ستجد فيه ما تريد .

ما إن غادر الرجل وأغلقت الباب حتى جاء الصوت :

- عليك أن تبقى دكتور زيفاكو أمام كل من يراك .

استلقيت في أريكة طرية تقابل شاشة تلفاز عريضة في الصالة ، ورائحة العطر الذي خضبت به ملابسي تمنحني شيئًا من سكينة أفتقدها ، تذكرت البيت المهجور وقاطنيه . (إذن ها أنت الآن لص يتخفى بشخصية زيفاكو) .

خشيتُ من معاودة الصوت فوقفت قبالة النافذة ، شطر من عمان أمامي ببنايات ذات طوابق عديدة ، وفلل ، وسيارات فاخرة ، ونساء جميلات ، لكنني لا أريد إلا السيدة نون ، أحببتها كأي رجل يحب امرأة ، وما عثرت عليها كأي إنسان جعلت الدنيا بينه وبين ما يريد رداءة الحظ . تجولتُ في أرجاء الشقة التي كانت فارغة من أي شيء يؤكل أو يشرب ، هل أخرج مرة أخرى؟ تساءلت وقبالتي صمت جديد له إيقاع غير الذي عرفته : صمتُ قريتي تتخلله أصوات العصافير ، وثغاء الماعز ، ونداءات الرعاة . صمت الجوفة تخترقه أصوات صبية يلعبون في الزقاق ، وصوت امرأة تنادي جارتها عبر الشرفة القريبة حد تلاشي الأسرار . وصمت الشطر الغربي لعمان له أصوات أخرى لم أعتدها : أصوات سيارات تمر بسرعة ، أغنيات غربية صاخبة تجيء بين الحين والآخر ، أصوات سيارات إسعاف وسيارات شرطة .

تفقدت خانة الرسائل في هاتفي ، اطمأننت أني ما كتبت

للدكتور يوسف أية رسالة ، لكني وجدت واحدة منه :

- أعتذر عن تأخري في الرد عليك .

تفقدت خانة المرسلات من جديد ولم أجد شيئًا . فكتبت له :

- لم أرسل لك شيئًا .

وصلتني منه صورة لرسالة استقبلها من رقمي ، كيف يحدث هذا ، يبدو أنني في طريقي إلى الجنون؟

- سأجيبك . لقد عرف أبي أمي قديمًا أيام كانا شبابًا ، أحبته جدًا ، وأحبها ، لكن حين حملت بي تخلى عنها واختفى . عرفتُ بمحض الصدفة أن أبي ليس ميتًا كما روَّجوا ، بل أبي رجل آخر ، رجل شهير من أولئك الذي نراهم على شاشات التلفاز ، ثري ، وسيم ، أنيق ، صاحب كاريزما لافتة ، لكن بيني وبينه مسافة لا يمكن عبورها . كنت أعرف تلك الصعوبة مع ذلك ذهبت إليه ، قرعت باب قصره ، وجلست في الصالة أنتظره ، أخبرته بالقصة منذ البدء ، ذكرته باللحظة التي عرف فيها أمي ، وباللحظة التي تخلى عنها ، أكثر ما آلمني أنه نهض وقال باستهزاء : (لا وقت لدي لكل هذا الهراء) فكرهته ، بل إنني جنيت حقدًا كبيرًا نحوه خلصني من فكرة التوق إلى الانتماء له ولعائلته الكبيرة .

***

عند الباب وأنا أتهيأ للخروج نبهني الصوت كأب يُذكر ابنه بما عليه أن يفعل : (لا تنس أنك زيفاكو ، عليك أن تتجنب أي احتمال ؛ لافتضاح أمرك) ، وما نسيت ، كنت أمشي في الممر نحو المصعد كأني زيفاكو ذاهبًا للقاء لارا أنتيبوفا ، والزمن يعود بي إلى عام ١٩١٧ حيث عرفها زيفاكو ممرضة في زمن المعركة بين البلاشفة والجيش الإمبراطوري

الروسي . قال الرجل وأنا أقف بباب البناية : (هل أنت بحاجة إلى سيارة أجرة يا سيدي؟) هززت رأسي : (نعم) ، أجرى مكالمة هاتفية بعد انتهائها بدقائق قليلة أتت السيارة وأقلتني إلى (مول) يقع على مسافة قريبة من مكان سكناي . كان عالما جديدًا لا أعرف عنه شيئًا نساء رشيقات يتسوقن بمتعة ، فتيات وفتية يتجولون بين المتاجر التي تبيع بضائع غير التي أعرفها ، روائح عطور ، وأصوات موسيقى متداخلة . دخلت متجرًا للهواتف النقالة حيث فتاة كانت تبتسم رغم ما يلوح في وجهها من تعب ، قلت لها وأنا أتلفت بهدوء :

- أريد أكثر الهواتف حداثة لديكم .

كان الصوت قرب أذني يهمس لي ضاحكًا :

- أنت تبدع في التعامل يا زيفاكو .

جاءت لي الفتاة بهاتف حديث ، وضغطت على زر تشغيله ، وشرحت لي كيفية استخدامه ، ثم نظرت إلي تتفحص ملامحي بابتسامة فتاة تريد التقرب من رجل صامت :

- أنت تشبه شخصًا رأيته في فيلم سينمائي لكني لا أتذكر اسم الفيلم ولا اسم ذلك الشخص .

- ربما

قدمت لي الهاتف بكيس بلاستيكي أنيق ، وكررت ما قلت :

- ربما .

كانت الساعة تشارف على الرابعة بعد الظهر حينما اشتريت إضافة إلى الهاتف حاسوبًا جديدًا ، وما يمكن أن يكفيني من طعام لشهر ، وعدتُ .

***

حلّ أول مساء عليَّ في مكان جديد تحالف مع الصمت ضدي ، مولِدَ ضجرٌ حاولت أن أقصيه بأن طهوت قليلاً من اللحم ، وأعددت حساء الخضار وأكلت . ثمة أصوات من سُلّم البناية كانت تأتيني بين الحين والآخر تكسر رتابة عزلتي . استلقيت أمام التلفاز أتنقل ما بين المحطات بلا استمتاع ، بينما مشاهد من زمن القرية تقتحم مخيلتي إلى جانب أصوات لأبي ، وأخي عاهد ، وأمي . هاجمني قلق وشعور بالخطيئة مما أقدمت عليه . من أين أتت لوثة هذا الصوت وورطتني بما لا أؤمن به؟ سمعته يزجرني :

- لا داعي لهذا التفكير والتأنيب .

مسحتُ بإصبعي على شاشة هاتفي الجديد ، وضغطتُ أيقونة الفيس بوك ، أول ما قرأته خبر حول مقتل مديرة أحد الملاجئ رناد محمود ، كانت صفحتها تعج بعبارات التعزية والمواساة . بحثت عن اسمها في غوغل فوجدت تفاصيل الحادثة : (عثر على مديرة لإحدى دور الرعاية ميتة غرقًا في حوض الاستحمام في شقتها) . عدت إلى الفيس بوك فوجدتُ تسجيلاً مصورًا لأحد الناشطين يدعو إلى التعاطف مع قضية هذه المرأة المطلقة ، وراح يسرد تفاصيل الحادثة . رناد محمود امرأة سببت عطبًا نفسيًا لليلى حينما اغتصبتها في الملجأ ، وها هي تُقتل . لم يبهجني ذلك الخبر ، بل أصابني بشيء من الحزن والخوف .

مضت ساعتان أتنقل بين الصفحات فوجدت فيها منشورات تمجد اللص المقنع ، غرقتُ بسيل من الكتابات والردود أصابتني بالحيرة مما يحدث ، فقد رسموا صورة ليست لي ، وصنعوا أحداثًا لم أقم بها ، فعلوا كل ذلك وصدقوه .

في تلك الليلة أصابني الأرق ؛ فتقلبت في السرير كثيرًا والـ...
نون تطلع لي من عتمة الغرفة وسكونها ، حنونة تستلقي بقربي ، ونص...
رأسي إلى صدرها ، وتهمس لي بأن أهدأ . من وراء كتفيها تفر نوار...
ثم تهوي . تتصاعد موسيقى ، وتخفت . تهوي شهب ونيازك في سما...
ليلة صيفية . فتحت ذراعي لأضمها ولم يكن لي إلا الهواء .

أشعلت ضوء الغرفة ، وتلفتُ حولي فلم أجد إلا الصمت ، كان...
دفترها ملقى على طاولة السرير كمَخرج وحيد من قبو معتم ، ما إن...
فتحته حتى رأيتها تكمل لي ما تبقى من الحكاية :

(أخذتني كلماته إلى ما لا يعرفه أحد عنه ، هذا ما راودني حينما...
فرغت من قراءة دفتر صار أكثر من كونه رزمة ورق متراصة ، بل حياة ...
فيها الوجع ، والفرح ، وكثير من الخسارات . إذن ها أنت هنا رجل يخم...
في كل ذلك الهدوء والمشية المتمهلة والعينين اللتين لم تنفكا عن...
التأمل ، تاريخًا عريقًا من الحزن . ترى هل لك وطن تأوي إليه أيها
الوحيد؟ تسترد فيه شيئًا من عافية روحك التي سرقتها أحلامٌ مشروخة؟

خبأت الدفتر في حقيبتي بحرص شديد ، كأني أخبئ عالـمًا من
الفوضى ، يمكن له أنه يصير بديلاً عن رزانة وهمية يدعيها العالم .
غاب ذلك الرجل لأسبوع مر عليّ كما يمر وقت ثقيل على معتقل في
زنزانة انفرادية ، إنه ذلك النوع المباغت من التعلق من غير أسباب يمكن
شرحها ، أو تبريرات تثبت منطقية ما يحدث ، إنه الحب منذ الحزن
الأول . جلستُ إلى الكاونتر أنظر إلى الزبائن بعينين لا تريا سوى
هلامًا يلف كل شيء إلا مكانه الذي كان ما يزال على حاله فارغاً .
ثمة نشيج موسيقي يتبعثر في المكان ، كما يتبعثر حزن امرأة مثلي على
رجل لم تعرف عنه شيئًا إلا ما كتبه في دفتر اختبأ فيه خلف تلك

الحكاية . في البدء كنت أداري شغفي به ، لكن بعد أيام من غيابه ما عاد ذلك يجدي نفعًا ، إذ صرت أكرر على زميلتي سؤالي عنه ، هل عاد؟ رغم أني لم أسمع منها أي إجابة يمكن أن تطفئ نارًا تشتعل بي وتحولني إلى امرأة غير التي كنت عليها .

بعد أيام رأيته يعبر بتمهل بوابة المطعم ، كدت أصرخ فرحًا لكنني كتمتُ ما شعرت به ، تأملتُ وجهه الذي ألفته أيضًا عبر ما دونه في صفحات أمضيت ليلة كاملة أمشي عبر طرقاتها كمنْ يستكشف مدينة جديدة . تجاوز الباب ، وسار نحو طاولته ، فهرعتُ إليه أسأله بصوت لاهث كأني فرغت للتو من مشي لساعات طويلة :

- أنت بخير؟

حدق بي وشرع يفك أزرار معطفه الصوفي الطويل ، ثم أماط لفحته عن فمه مطلقًا تنهيدة طويلة من صدره :

- نعم بخير يا عزيزتي .

(يقول عزيزتي!) صرخت بسري مذهولة وأنا أتبعه إلى طاولته .

- مكانك شاغر .

التفتَ نحوي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لامست روحي برفق :

- إذن أوراقي بخير .

صمتُ لا أدري ماذا أقول ، لكنه أنقذني قائلاً بثقة دافئة :

- كنت متأكدًا من أنها بحوزتك ؛ لهذا لم أخش عليها .

- في الحقيقة . . .

كنت أنوي تبرير ما فعلت ، لكنه عاجلني كأنه يرد اعتذارًا ليس له داع :

- أريد فنجان قهوة .

أسرعت بتحضير ما أراده بمتعة تعرفها النساء ، وضعت الفنجان أمامه ، ثم غادرت أنهمك بخدمة باقي الطاولات ، وعيناه ترمقانني بنظرة خاطفة دفعتني إلى أنْ أعود إليه وأخبره عن دفتره :

- دفترك بحوزتي ، لكنه في بيتي .

بعد انتهاء عملي وجدته بانتظاري قريبًا من بوابة المطعم يتكىء على جدار ويتأمل وجوه المارة ، قال وهو يراني أعجّل من خطوتي إليه (لن أعطلك ، سآخذ الدفتر وأغادر) . اعترى الطقس دفء أضاف لهدوء الشوارع إيقاعًا جميلاً ، فصار المشي أكثر متعة من قبل . نظر في ساعته ، ثم قال كأنه يبتر حبل الصمت :

- إنها العاشرة مساء .

- ما زال الوقت باكرًا .

قلت ذلك وأنا إليه أنظر كيف يشعل سيجارته : وجه أسمر ، ذقن يختلط فيه الأبيض بالأسود ، عينان هادئتان اتسعتا حينما ابتسم :

- اعذريني هذه إحدى عاداتي السيئة .

- لا بأس .

كنت أود لو يخبرني بكل عاداته دفعة واحدة ، كم كنت عجولة لاختراق عالم رجلٍ من ذلك النوع! رجلٍ يشبه أولئك الكلاسيكيين المهذبين الخارجين من الكتب . كنا قد ابتعدنا عن المطعم عندما مر بقربنا شاب يركب دراجة من النوع الحديث ، فأصدرتْ ضجيجًا أجفلني ، ولم يؤثر به . قلت أحاول أن يحكي ؛ لأنْصِتَ له :

- يبدو أن عمان تتغير . أرأيت؟

اتجه إلى حاوية قمامة وألقى بعقب سيجارته فيها :

- العالم كله تبدل .
- وهل سنصبح بخير؟
صوب لي نظرة من فوق كتفيه ، وكأنه يستغرب سؤالي :
- يبدو أننا نسير إلى الهاوية ، كثرت الوحوش وكثرت ضحاياهم .
ضحك بصوت خفيض ثم عاد ينظر إلي :
- لكننا إثرها سنخرج وسنكون بخير ، هكذا هي الحياة لا تعطيك إلا بمقابل .

عند باب البيت وقف صامتًا ، ثم تلفت حوله ، وقال بصوت خفيض :
- سأنتظر هنا لتأتي لي بالدفتر .

كان أشبه بولد مؤدب لا يود أن يثير المشاكل ، قلت وأنا أدير المفتاح بالباب :
- وهل برأيك أني بخيلة إلى هذا الحد بحيث أتركك تغادر حتى بلا فنجان قهوة؟ لا تقلق أنا أسكن بمفردي .

تأمل البيت ومشى بتمهل نحو الصالة ، ثم جلس ينظر إلى لوحات علقت على الجدران . بدا لي خجولاً رغم ثقته وغروره الجميلين .
- بيتك هادئ .

قال ذلك ثم أشعل سيجارة يداري حيرته في ما سيقول . أعطيته دفتره ، فارتدى نظارته بعجالة وراح يقرأ . رأيته عبر باب المطبخ الذي يطل على صالة الجلوس يقلب صفحات الدفتر كأنه حظِي بكتاب ينتظره منذ زمن . لم يسمعني وأنا أقدم له القهوة ؛ كان مستغرقًا بالقراءة فناديت مرة أخرى ، اعتذر عن سهوه من دون أن يعلم أن

أجمل لحظات حياتي أن أجده حقيقة ماثلة أمام عيني .

لم يقل الكثير عن نفسه ، سوى أنه يعيش وحيدًا في بيت صغير لا يبعد كثيرًا عن بيتي ، وأنه متقاعد ولا يدري ما الذي يكتبه ؛ هل هو رواية ، أم مذكرات؟ قال إنّه اكتشف أن الشيء الوحيد الذي جعله يستريح هو الكتابة . خجلت من أن أسأله عما يتعبه ، فليس من اللائق أن أسأل رجلاً عن أسراره بعد دقائق من لقائي به ، كان ماهرًا في توجيه الأسئلة ، وفي الإنصات وأنا أخبره عني . ربما اختصرت لحظتها حتى أبعد احتمال الملل ، رغم أني كنت على استعداد أن أقول له كل شيء . منذ ذلك اليوم أصبحنا نلتقي باستمرار ، ينتظرني إلى أن ينتهي وقت عملي ثم نغادر . نمضي كثيرًا من الوقت نمشي في شوارع اللويبدة ، وحينما يتعب نجلس في مقهى يحدثني عما قرأ من كتب كأن لا شيء في حياته سواها . سألته ذات مرة :

- ألست متزوجًا؟

-كنتُ .

عاد يحدثني بأسلوبه المتمهل كما لو أنه يقف أمام طلبة ويشرح باهتمام درسًا مهمًا . وقعتُ في غرامه . هذا ما كان علي حينها أن أقرّ به لنفسي ؛ لأضعه في مكانه المناسب من حياتي . عرف أنني أكمل دراستي الجامعية فانقطعت لقاءاتنا . قال إنّه لا يود أن يكون سببًا في فشلي بها ، لكن الذي حدث أنني لم أستطع أن أدرس كما ينبغي ؛ لهذا بدت المفاجأة على وجهه واضحة عندما أطل عليٌّ من وراء باب بيته ، بعد أن قرعته في ساعة متأخرة من الليل . لم يكن بيتًا يليق برجل مثل هذا ، كانت غرفة مزودة بحمام ومطبخ ضيقين ، مكان رطب لا تدخله الشمس ، وجدرانه متعفنة لفرط الرطوبة ، فيه سرير

وقبالته كرسي ، وطاولة عليها بعض الكتب ، وعلبة فيها بعض الأدوية . بدا لي محرَجًا من المفاجأة . ولأول مرة أرى حزنًا لرجل على شكل ضحكة وهو يقول لي (كيف أتيتِ؟) . نهض وكأنه يهرب من حديث توقعه ، وقال بصوت مرتبك : (سأعد فنجانين من القهوة) . على الجدار كانت ملابسه معلقة بمسمار ، ومغطاة بكيس بلاستيكي ، وأسفلها وضع حذاءه اللامع . كانت رائحة عطره تقاوم رائحة الرطوبة في المكان ، وثمة مسجلة صغيرة تبث أغنية بلغة لم أعرفها ، لكنها أغنية شجية تدعو لتأمل يعقبه شكل هادئ من البكاء .

وضع فنجانيْ القهوة على طاولة صغيرة بيننا ، وأشعل سيجارة : (أهلاً بك) . قالها بصوت عاتب على شيء ما . في تلك الليلة روى لي حكايته كاملة كأنني أتيت في لحظة توفر فيها استعداده النفسي ليفرج عما يؤرقه ، كان يتحدث إليَّ وحالة غياب إلى الماضي تسيطر عليه . بكيت ، وابتسمت ، وصفنت إلى أن بكى ، وضعت رأسه على صدري ، ثم صار على مقربة من النعاس ، فنام . حين استفاق احتضنت رأسه بكفي أنظر إلى عينيه الحزينتين :

-هل تعرف كم أحبك؟

- أعرف .

قالها مبتسمًا . ليلتها نمت بحضنه ، رأسي على صدره العاري أنصت لدقات قلبه ، وأنفاسه كأنفاس طفل يخلد إلى سكينته .

٣
ليلى
(أسرار السيدة إيميلي)

نظرتُ إلى الورقة التي أعطتها لي سلام، وتأكدت من أني سألفظ ما هو مكتوب فيها بشكل صحيح، ثم قلت للسائق بثقة مصطنعة (إلى الرابية). استفسر قبل أن ينطلق عن العنوان أكثر، فأعطيته الورقة وصمتُ. ثمة أمل كان يضفي على قلبي شيئًا من بهجة أنتظرها، رغم أني شابة تيمم شطر بيت عجوز في أواخر عمرها، لكن لا بأس فأنا ذاهبة إلى بيت سأجد فيه سريرًا دافئًا، وطعامًا ساخنًا، والأهم من ذلك سأوهم نفسي أني ابنة العائلة، سأجرب أن أعيش خارج الحقيقة. في زمن الملجأ كنت أرى النزيلات والنزلاء إخوتي، أحس بهم عائلة تعوّض ما بي من نقص كبير، وعبر تلك السنين كانت بيننا مشرفة طيبة القلب لا تنجب، تعيرنا معظم وقتها فتزين الحياة في أعيننا، إلى أن ماتت، فقد وجدوها ذات صباح مصابة بأزمة قلبية. بعد رحيلها عدنا إلى ما كنا عليه من عذاب.

في (الرابية) توقفتُ عند باب فيلا بُنيت من الحجر الأبيض، واستدار حولها سور، ونَمَتْ قبالتها ورود وأشجار زينة، نظرت إلى الورقة، وتأكدت من صحة رقم البناية. (النساء الكبيرات طيبات القلب، لا بد أني سأجد لديها ما فقدته طوال عمري). قلت لنفسي أشجعني قبل أن أضغط جرس بيت لا أدري عنه شيئًا، لم أنتظر طويلاً

فأشْرع الباب ، استقبلتني المرأة التي حدثتني عنها سلام ، أومأتْ بيدها تدعوني إلى الداخل ، وعلى وجهها ابتسامة لم تظهر كاملة إثر تفحصها لملابسي الرثة . أغلقتِ الباب وقاطعتْ يداها أسفل نهديها الكبيرين ، وقالت ببشاشة فيها شيء من الاستعجال : (مهمتك ليست صعبة ، سأشرحها لك ، لكن عليكِ أولاً أن تستحمي وترتدي هذه الملابس) .

مشتْ نحو كرسيٍّ في صالة جلوس فيها مقاعد فاخرة ، وعلى جدرانها لوحات ، ومن سقفها تتدلى ثريات لها شكل عناقيد العنب ، والتقطت حقيبة صغيرة وقدمتها لي ، ثم دلتني نحو الحمام : (إنه هناك ، سأنتظرك) .

كنت أفكر بالمرأة وأنا أستحم ، لها ملامح غير مفهومة ، وبشيء ما يجعلها منفرة وغير مريحة ، لكنني تناسيت أمرها واستحممْتُ بعجالة ، ثم ارتديت الملابس الجديدة : غيارات داخلية ، بنطال جينز لا أعرف كيف كان على مقاس جسدي ، وبلوزة حمراء اللون بدا صدري نافرًا جراء ضيقها ، ثم حذاءً خفيفًا ضيقًا هو الآخر .

- تبدين أجمل .

قالت المرأة وهي تمشي أمامي نحو سلم يصعد إلى الأعلى ، ثم مضت تحدثني :

- من الآن فصاعدًا ستكونين مسؤولة عن امرأة كبيرة في السن ، تعاني من كثير من الأمراض أقلها الضغط والسكري . ثمة مواعيد للدواء عليك أن تتبعيها في أوقاتها ، أما الواجبات الأخرى فعليك أن تعاونيها فيها ، مثل : قضاء حاجاتها .

وقفتْ عند نهاية الدرج ، ووضعتْ يديها على خصرها :

- أنت تعرفين أن امرأة بهذا العمر من الصعب أن تذهب إلى

التواليت .

هززت رأسي أؤكد فهمي لما عليّ أن أفعله ، ثم تبعتها وقد مشـ

في ممر مفروش بالسجاد تتهادى إلى مسمعي منه صوت لموسيقى ناعـ

يتضح أكثر كلما اقتربنا :

- هناك ورقة ستكون بحوزتك ، مدون فيها ما هو مسموح لها مـ

الطعام .

توقفت المرأة قرب باب في نهاية الممر ، والتفتت نحوي بسرعة

كأنها تذكرت شيئًا :

- هل تجيدين الطبخ؟

- نعم يا سيدتي ؛ في الملجأ علمونا ذلك .

- حسنًا . هناك أمر آخر ، ثمة رجل سيجيء بحاجيات البيت كل

أسبوع ، وضع السيدة الصحي لا يسمح بأن تغيبي عنها .

همّت بالدخول لكنها تذكرت شيئًا :

- ستتقاضين أربعمئة دينار كل شهر .

- حسنًا سيدتي .

ما إن فتحت المرأة الباب بهدوء واضح ؛ حتى علا صوت الموسيقى ، ورأيت سيدة في منتصف الستينات من عمرها تجلس على كرسي متحرك ، وتنظر عبر زجاج عريض لشرفة فيها الكثير من الورود ، ونباتات الزينة ، وتطل على شجرة صفصاف تهتز قبالتها . على كتفها شال صوفي أبيض بثقوب دائرية ، شعرها الأبيض الخفيف مربوط خلف رأسها ، ويداها الصغيرتان ترتخيان على مقبضي الكرسي بسكينة متناهية . مشت المرأة خطوات قليلة ، ووقفت إلى جانب

السيدة العجوز ، ثم نظرت إليَّ وقالت بصوت خفيض :
- هذه غرفتها ، لم تخرج منها منذ أعوام .
كانت غرفة نوم واسعة فيها أناقة هائلة في كل شيء : الأثاث ، لون الجدران ، والهدوء ، أصابني في البدء شيء من الخوف ، لكنه انسحب سريعًا فحلت محله سكينة تعوزني ، أشارت المرأة إلى مسجلة من النوع الحديث ، تبث المقطوعة الموسيقية :
- هذه المقطوعة ستبقى مستمرة من تلقاء نفسها ، لا توقفيها إلا عند وقت نوم السيدة ، إن توقفت ستتدهور حالتها .
نظرت إلي مبتسمة :
- الدانوب الأزرق ، هذا هو اسم المقطوعة .
التقطتْ ريموت كونترول وعلمَتني كيف أشغل المسجلة وأغلقها ، ثم غادرت ولم أعرف اسمها ومن تكون ، بعد أن أخبرتني بتفاصيل ضرورية لم تقلها لي من قبل ، إذ دلتني إلى غرفة تقابل غرفة السيدة إيميلي ، والتي أصبحت غرفتي منذ تلك اللحظة . قالت مبتسمة : (غرفة أنيقة اخترناها لك لتكوني قريبة من السيدة) ، أعطتني ورقة مدونة فيها مواعيد الدواء ، والطعام ، وأوقات صحو ونوم السيدة إيميلي . وقدمت لي هاتفًا قالت إنه مزود بالإنترنت ، وإن رقمها مدون فيه يمكن استخدامه للضرورة القصوى . إيميلي اسم جميل ، كنت أتأمله وأنا أصعد الدرج ، وأتوقف في منتصفه أنظر إلى الصالة . صرت في بيت فخم ، لكنه هادئ إلى درجة تثير بي خوفًا يأتي ويتلاشى . قلت في سري إنَّ الأمر ليس صعبًا في أن أتعامل مع امرأة بالتأكيد لن تكون متطلبة . نظرتُ إلى الورقة ؛ كان ما يزال هناك وقت على موعد الغداء والدواء الذي بعده ستنام حتى الخامسة . قرعتُ الباب ودخلتُ ،

وجدتُ السيدة إيميلي ما تزال تتأمل شجرة الصفصاف، وكأنها دمية لا يلوح منها سوى حركة صدرها وهي تتنفس، ألم تحس بوجودي؟ هممت بالخروج ثم عدت ووقفت قربها.

- اسمي ليلى.

صمتُّ أنتظر ردها، لكنها ظلت ترمي بصرها إلى الجهة ذاتها، قرفصت بحيث صار وجهي يقابل وجهها:

- هل تسمعينني سيدة إيميلي؟

راحتْ تنظر إليَّ عبر سكونها الغريب، لها عينان لم تغير السنين جمالهما، وفم مستدير أعلاه وجنتان بارزتان، وأنف مرتفع، في وجهها هدوء عميق، كأنها تستعيد حدثًا يبعث على البهجة. هبطتُ إلى المطبخ أعد غداء السيدة بعد أن تفحصتُ تفاصيله أكثر من مرة، وتفقدتُ موجوداته؛ حتى لا أتأخر في المرات القادمة في إعداد الطعام. في ذلك اليوم أطعمتها وجبتها المكونة من الخضار، وعاونتها على شرب كوب عصير طازج، وقدمت لها دواءها. كانت صامتة، عيناها مثبتتان على النقطة ذاتها، حتى حينما حملت جسدها الضئيل، ووضعتها في السرير احتفظ وجهها بالابتسامة ذاتها، والنظرة المستمرة إلى شيء مجهول.

٤

إبراهيم
(لص شريف)

مرَّ شهر من العزلة ، فتراجعت الأحاديث في الفيس بوك عن الرجل المقنع ، وقد نُسجت أقاويل كثيرة حولي ، ورسمت صور شتى لي إلى درجة أنني بت على مقربة من تصديق ما قالوه :

(رجل يسطو على البنوك ببسالة وخفة استثنائيتين ، إنه كالزئبق ، يصعب الإمساك به . رجل لا قصور لديه ، ولا سيارات فارهة ، ولا حسابات بنكية ، له قلب حزين يوجعه الفقراء . يقال إنه في الليل يعدو بين الأحياء كالذئب ، يلقي بحاجات الناس في مغلف مرفق بوردة حمراء ويغادر) .

استلقيت على الأريكة أحدق بالسقف ، وشعور جميل متردد يخالجني للمرة الأولى .

- ها أنت صرت مخلِّصًا؟

جاء الصوت من السقف ، كنت سأنهض لولا أن أمرني بالبقاء في مكاني :

- لا أحد يقدر على ما تفعله ، عليهم أن يعرفوا قيمتك وقدراتك الخارقة ، ويعرفوا أن صمتك الذي دام سنين لم يكن إلا هدوءاً يسبق العاصفة ، لقد رأوك ؛ لأنك أكبر حتى من البنايات التي باتت تتناسل بكثرة في الأيام الأخيرة .

نهضتُ من مكاني ورحت أعد فنجان قهوة . قلت وهو ما يزال يتبعني :

– أنتَ مغرور .

– ابتكرتَ هذه المفردة ؛ لتفسد معنى القوة .

– عليك أن تعلم أن طاعتي لك مؤقتة .

– ليست مؤقتة ، ما قمت بتنفيذه مجرد مرحلة ستقود إلى مراحل أخرى ستحتاج فيها إلى معاونين .

عند الظهيرة عاد مرة أخرى ، كنت أفكر بالخروج حين بدا لي يدفعني إلى الوراء :

– من المؤكد أنكَ تجولتَ في صفحات الفيس بوك وعرفت الكثير عن مرتاديه ، هل رأيت ذلك الرجل الثري الذي يتفاخر بصوره كل يوم؟ تفحصتَ صوره جوالاً في أوروبا ، وتحسرت أنك لم تتجاوز حدود عمان الشرقية إلا بعد ما يقارب أربعين عامًا ، هل رأيت بيته كم هو فاخر! هل سألت نفسك لماذا رحت تبحث عنه في غوغل ووجدت خريطة موقعه؟ عد الآن إلى حاسوبك ، ودوّن في ورقة ما تجده قد يساعدك في نجاح مهمتك .

ذهبتُ إلى صفحة ذلك الرجل الثري ، وبقربي قلم وورقة . كان الصوت يحدثني وكأنه يقف خلف كتفي وأنا أنظر إلى شاشة الحاسوب :

– هذا الرجل غير متعلم ، وغير مثقف ، طريقته في الكتابة لا تدل على أنه يحمل البكالوريوس في الإدارة كما هو مدرج في خانة معلوماته ، أسلوبه في التعبير سخيف وغبي ، يبدو أنه دفع لأجل هذه الشهادة . دقّقْ بهذا الفيديو الذي يدافع فيه عن وزير شُنت عليه حملة

في الأيام الأخيرة . انظر إلى عينيه كيف تروحان يمينًا وشمالاً ، وكيف يرطب شفتيه بلسانه كل حين ، ويحك أرنبة أنفه ، ومؤخرة رأسه ، من الواضح أنه يكذب ، وأنه عشوائي ، وليس من النوع المنظم ، وأن لديه الكثير من سمات التهور . يمتلك شركة ليس لها صيت ذائع ، هذا يدلّ على أنه ربما من أولئك الذين أقاموا شركات ؛ لتغطي على أنشطتهم المشبوهة . من الواضح أنه يرتاد الملاهي الليلية ، تأمّلْ هذا التعليق المرفق فيه رابط لفيديو له ، وكيف يلقي بالمال على راقصة صعدت طاولته ؛ لهذا من المؤكد أنه يحتفظ بمبلغ كبير في بيته . دققْ في هذا المنشور الذي يسترضي فيه زوجته ؛ ليغطي على سلوكاته . تعال لنعود إلى آخر منشور له : عدد من الصور مرفق بها موقعه في أوروبا في رحلة سياحية مع العائلة ، إذن هو خارج الأردن الآن ، هذه المرة ستسطو على ذلك البيت ، لا بد أنك ستجد فيه إما مالاً ، وإمّا مجوهرات .

في ذلك اليوم أمضيتُ كثيرًا من الساعات أتجول في صفحة ذلك الرجل في الفيس بوك ، قرأت كل شيء ، ودققت في كل الصور ، والتسجيلات المصورة . توقفت عند كل ما وجدته حتى تعليقات أصدقائه على ما ينشر ، جمعتُ عددًا من المعلومات عن بيته وأبعاده ، ومن صفحة زوجته التي بدت لي أكثر تفاخرًا . عرفت جانبًا من سلوكياته هو وعائلته ، وجمعت معلومات إضافية ، وباقي المعلومات تركتها للحدس . في اليوم التالي عاينت البيت ، ثم عدتُ ، كيف تجرأت على كل ما فعلت وما كنت مقدمًا عليه؟

استعدت والسيارة تمضي بي وسائقها يدندن بأغنية حزينة أبعاد البيت : بيت من طابقين بني من الحجر ، سطحه قرميدي مائل ، قبالته حديقة يلتف حوله سور منخفض تتوسطه بوابة معدنية ، ليس هنالك

من كاميرات مراقبة في واجهته الأمامية ، غير مزود بحراسة ، والبيو..
التي حوله وقبالته مغلقة نوافذها وأبوابها ، كأن ليس فيها أحد .

تأملت صوره ورحت أتخيل لحظة دخولي إليه ، كان الصو..
يدلني إلى كل خطوة أقوم بها ، كل ما فعلته هو من دلني إليه ، كل ما
فعلته جاء من الجهة الغامضة التي يعيش فيها ، أعرف كيف تحما
النساء ، لكن لا أدري كيف تخلق هذا الكائن بي؟ من الذي ضاجع
روحي لأبتلى بغريب يدفعني لما لا أريد؟

ما إن دخلت شقتي حتى خلعت -وبعصبية- عن روحي قناعها
(أنا إبراهيم الوراق ولست زيفاكو) . قال الصوت كأنه قد سبقني إلى
الشقة وانتظرني وراء الباب :

- حتى لا يفتضح أمرك أنت الآن زيفاكو ، وفي المراحل القادمه
ستكون شخصًا آخر . في هذه الحياة عليك أن تكون ألف شخص
لتعيش ، حينما تضع رأسك على وسادتك ؛ كن أنتَ ؛ لأنك في
المساحة التي لن تحتاج فيها لأحد غيرك .

خلعت السترة ، وربطة العنق ، وألقيتها على الأريكة ، ثم جلست
إلى الطاولة ، وأرخيت رأسي على يدي :

- أرجوك يكفي ، أنا تعبت .

شعرت به يطوّق عنقي ويهمس لي :

- بيننا اتفاق عليك أن تلتزم به ، وإلا نفذتُ ما لا يعجبك
بالقائمة التي ما زلتُ أحتفظ بها .

صمت قليلاً من الوقت ؛ إذ بدا يتجول في الغرفة :

- عليك أن تراجع كل ما جمعته من معلومات حول بيت الرجل
الثري ، تأملْ طريقك إليه جيدًا ، هذه الليلة نفذ ما اتفقنا عليه .

شارفتِ الساعة على الثانية عشرة ظهرًا، تناولت سندويشة ونمت بحتلني التعب حتى السادسة مساء، واستفقت يلم بي صداع قوي، أعددت فنجان قهوة وجلست أنظر إلى أضواء عمان، وأفكر بما أنا مقدم عليه .

- هل تعرف في أي الشخصيات تتنكر هذه المرة؟

جاءني الصوت مفاجئًا، تخيلته يقرفص أمامي، يداه تلامسان ذقني :

- مصطفى سعيد، بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال .

***

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل نزلت من سيارة الأجرة، والسائق ينظر إلي مستغربًا هيأتي، ألم يرَ سودانيًا من قبل؟ حينما مضى علي عامان في لندن عرفت أن الإنجليز لا يعرفون عن العرب إلا البشرة السمراء وركوب الجمال وشبقهم للنساء . كان ضربًا من العبث لو رحت أحاول تبديل تلك الصورة . كيف سأبدل صورة نقشها الجلاد للضحية؟ أكملت المسافة مشيًا نحو بيت الرجل الثري، أرتدي بذلة ذات طراز إنجليزي وحذاء وساعة كلاسيكية بسلسلة فضية، تذكرت اللقاء الأول بيني وبين آن هاموند، وكيف أمضيت وقتًا أعلمها على النطق الصحيح لاسمي (مصطفى سعيد) .

ثمة اضطراب ألمّ بي أبعده الصوت بكلمات آمرة، بدا الشارع خاليًا، والبيوت التي حوله لا يلوح منها أحد، فقفزت من على السور، وسلكت طريقًا من بين شجيرات في الحديقة، ووقفت أنظر إلى باب البيت : باب خشبي كبير يصعب فتحه . ماذا لو رآك أحد ممن عرفوك

في ليالي المساجلات الثقافية في مقاهي لندن يا مصطفى ، ا
سيصدقون أنك الآن بصدد السطو على هذا البيت؟ أكملتُ طريقي
إلى الجهة الخلفية للبيت حيث باب آخر من الألمنيوم ، توقفت فلم
أستطلع المكان ، لا أصوات تصدر من البيت ، ولا يجيء ضوء منه
(إذن لا خدم في داخله) ، اختبأتُ دقائق خلف طاولة قرب بركة
السباحة أطمئن على ما قدّرته في تلك المغامرة ، ثم تقدّمتُ نحو
الباب . كانت يدي ترتعش حينما أمسكتُ بيده مرتديًا قفازات ،
وأضع على وجهي القناع ، لكن الصوت زجرني :

- الخوف سيصور لك ما هو غير موجود ، ادخل كأنّك تدخل بيتًا
لك تشك أن فيه لصًا يا مصطفى .

دفعت الباب لكنه كان مغلقًا ، استعنت بفك ، وكما تعلمت
خلال الإنترنت حررت لسان الباب من مقره . أصابني لحظتها شكل
غريب من الزهو والصوت يمتدح ما فعل . أفْضَتْ بي البوابة إلى صالة
جلوس بنوافذ زجاجية عريضة تطل على البركة ، تمامًا كما رأيتها في
الصور التي نشرتها زوجة ذلك الرجل في الفيس بوك . لم يكن في
البيت إلا هسيس الفراغ ، ففتشتُ عن السلم الذي يصعد إلى الأعلى
وكان كما تصورته ؛ إذ قادني إلى الطابق العلوي حيث عدد من الغرف
دخلتها واحدة تلو الأخرى ، إلى أن وصلت غرفة نوم ذلك الرجل . كان
صوت أنفاسي يزيد من الرعب الذي بقي الصوت يهش دبابيره عني .
ألقيت نظرة سريعة على الغرفة ، ثم فتحت الخزانة وفتشت فيها بحذر ،
فعثرت على علبة تحتوي على عدد لا بأس به من المجوهرات غالية
الثمن ، ومبلغ مالي يقدر بألفي دينار ، تأملت المجوهرات ، هذا العقد
يليق بأن هاموند ليطوق عنقها الأبيض ، وينحدر إلى مفرق نهديها

الصغيرين . ستفرح كثيرًا وستهمس بأذني : (أحبك يا حصاني الأسمر) .

فتشت باقي أماكن الغرفة وخرجت ؛ إذ كنت أبحث عن غرفة المكتب التي رأيتها في صورة الرجل فوجدتها ، كانت غرفة واسعة ، زودت بأثاث مكتبي فاخر ؛ طاولة وراءها مكتبة ، فيها عدد قليل من الكتب التي بدت جديدة لم يحركها أحد من مكانها . ليس هناك من أوراق على الطاولة تدل على أن صاحب المكتب يعكف على شيء ، ما وجدت إلا علبة سيجار من النوع الفاخر ، وأقلامًا ذات ماركات عالمية . لامست الكتب وفي بالي تتردد كلمات قصيدة من قصائد الحرب العالمية :

(هؤلاء نساء فلاندرز ينتظرن الضائعين ،
ينتظرن الضائعين الذين أبدًا لن يغادروا الميناء ،
ينتظرن الضائعين الذين أبدًا لن يجيء بهم القطار ،
إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ،
الذين يرقدون موتى في الخندق والحاجز والطين في ظلام الليل)

فتحت درج الطاولة فعثرت على مغلف فيه عشرون ألف دينار ، وساعة من النوع غالي الثمن ، وسلسلة ذهبية ، وضعتُ كل ما جنيته في حقيبة وغادرتُ بالحذر والتروي ذاتهما . كان الشارع خاليًا ، ولو مشيت فيه بالتأكيد سأصادف دورية شرطة وستكون نهايتي ، كيف سأقول لهم : إني مصطفى سعيد عاد من لندن للتو وفعل ذلك؟ تواريت بشجرة أفكر بما يمكن أن أفعل ؛ فلا مكان في ذلك الحي يحميني ، لم يكن أمامي إلا أن أعود إلى البيت الذي سطوت عليه والساعة تشارف

على الثالثة صباحًا . قلت في نفسي أمامي ساعتان ؛ لأستطيع الخروج ؛ إذ ستكون الشمس على مقربة من الشروق . أي كوميديا هذه التي دفعتني إلى أن أعود إلى بيت استعجلت نفسي للخروج منه خوفًا من أن يفتضح أمري! دخلت من الباب الخلفي محتارًا ، أي الأماكن آمنة لي في هذا البيت لو أن أحدًا شك بوجودي فيه وداهمه؟ كنت أفكر وأنا ما أزال واقفًا في منتصف الصالة والقناع على وجهي ، كدت أخلعه لولا أن نهاني الصوت عن ذلك . جلست على مقعد هزاز يقابل حديقة خلفية تتوسطها بركة سباحة ، واحتضنت الحقيبة ، ودفعت بدني إلى الوراء أحدق بما سمحت به العتمة لأراه .

حاصرني صمت كثير تدفق من كل ثنايا ذلك البيت الواسع حد الوحشة ، تأملتُ ما لاح لي من الأثاث ، وكل ما كانت تقع عليه عيناي خلال العتمة . كان بيتنا في القرية مجرد غرفتين قبالتهما غرفة صغيرة تستخدم كمطبخ ، بيوت فقيرة لكنها دافئة وهنيئة .

تراجع التوتر وما تبقى إلا القليل منه ، وأصابني الاطمئنان ؛ فلا أحد في البيت ، ولن يدخل إليه أحد ، شعرت بشيء من الجوع فدلفت إلى المطبخ الواسع . ثمة ثلاجة كبيرة فتحتها فوجدت فيها الكثير من الطعام والفاكهة . لكن كيف آكل من بيت سطوت عليه! أغلقت باب الثلاجة ، وعدت . يبدو أنني لست لصًا كما ينبغي ، أو أن اللصوص هم في الأصل أناس شرفاء دفعهم حدث بعينه ؛ ليصبحوا على هذه الشاكلة؟ أم ترى إنهم مثلي؟ في دواخلهم كائن كهذا الذي دفعني إلى أن أصبح سارق بنوك ومن ثم سارق بيوت ، ولا أدري إلى أين يمكن أن يسير بي .

عدت إلى الكرسي يلاحقني برد لم أتجهز له جيدًا ، ثمة شال

صوفي نسائي ملقى على صوفة بقربي وضعته على كتفي ، فمنحني شيئًا من الدفء . أثارت بي رائحة عطر نسائية عالقة بذلك الشال مشاعر حميمة ، فأغمضت عيني ؛ إذ رأيت امرأة مرة أخالها آن هاموند ومرة السيدة نون . فتحتِ الباب ، ومشتْ نحوي بتمهل ، وقفتُ منفاجئًا ، ففرجتْ ذراعاها وضمتني إلى صدرها . كان شعرها يغطي الجانب الأيمن من وجهي ، وثمة قرط في أذنها يحتك برقبتي وهي تهمس لي ، وعطرها يطوف حولي : (لم أنت جالس في العتمة؟) أمسكت بيدي ثم سارت نحو بيانو في صالة عريضة ، وراحت تعزف . رأيتُني أركض على سحاب شاسع بلا جاذبية ، كانت الأرض من تحتي تلوح بين الفينة والأخرى خضراء مرة ورمادية مرة أخرى ، السحاب طري ، والهواء طري ، وروحي طائر يحلق بخفة غير مسبوقة إلى أن هوت قدمي في بقعة لا سحاب فيها فهويت فاستفقت .

كانت الساعة السادسة ، كيف نمت بكل تلك السهولة؟ رحت أحاول أن أتمالك نفسي ، وأطرد ما حل بي من توتر . لم تكن هناك حركة في الشارع رغم أن الضياء بدأ يجلي شيئًا من العتمة ، خلعت القناع وسلكت دربًا من بين الشجيرات ، وقفزت من فوق السور مبتعدًا عن البيت ، متجاوزًا الشارع إلى واحد آخر ؛ إذ ابتعدت عن الحي فدبت الحركة في المكان ؛ سيارات ، وبضعة مشاة ، ومحال أشرعت أبواب بعضها ، كنت سأعود إلى الشقة لولا أن الصوت أمرني أن أذهب إلى البيت المهجور .

كانوا نيامًا حينما تسللت خلسة ، ووضعت ما معي من مال في الحفرة . (أي جنون هذا الذي يحدث يا إبراهيم؟) قلت بسري وأنا أجلس على كتلة الطوب الكبيرة وقد أعدتها بحذر إلى مكانها . كان

بودي أن أمكث معهم ولو ليوم واحد ، لكن الصوت نهاني عن أمر مثل
ذلك ؛ فهو يضع اعتبارًا لكل الاحتمالات ، مشيت على رؤوس
أصابعي ، وتركت مبلغًا من المال قرب فراش سلام ، أنوي المغادرة إلا أن
الصوت نبهني :

- لا تخرج يا إبراهيم ، زيفاكو منْ يُسمح له بالخروج .

٥

إبراهيم

(من هي السيدة نون)

بعد أسبوع من سطوي على ذلك البيت عادت الأخبار لتنتشر من جديد حول اللص المقنع، وتداول الكثير في الفيس بوك تسجيلاً مصورًا لي. صعقت في بادئ الأمر؛ إذ تبين أن البيت مزود بكاميرات سجلت تحركاتي، فقام الرجل بنشره. تسلّلَ الخوف إليَّ من كل الجهات، رغم أن وجهي لم يظهر في التسجيل، لكن ربما أكون قد تركت ورائي دليلاً، أو أن أحدًا شك بي. لكن الذي رأيته في التسجيل كان مصطفى سعيد يرتدي قناعًا، استلقيت على الصوفة، ثم نهضت أمشي مرتبكًا. (يجب أن لا أخرج، تجنبًا لأي احتمال في إلقاء القبض علي)

جاءني الصوت جادًا:

- نعم عليك ألا تخرج، لكن ليس لوقت طويل، فربما تصبح عزلتك مثار شك.

أعددت فنجانًا من الشاي، وألقيت فيه شريحة ليمون ورحت أتصفح الفيس بوك، أخباري تتصدره، يتحدثون عن لص نبيل يسرق لأجل الفقراء، حتى إنهم رسموا لي صورة كاريكاتورية غريبة، استفزني منشور منقول من إحدى الصفحات:

(أيها المقنع، يرونكَ كذئب تعدو في ليل المدينة، تغير وتسلب،

وتتسلل إلى منازل الفقراء وتلقي لهم حصتهم مما يفتقدون ، يرونك مبضعًا يجترح دمامل توجع أرواحهم ، ومنجلاً يحصد شوكًا أمام أقدامهم العارية ، هم يرونك هكذا ، فهل أنت وهم ، أم حقيقة؟)

ضغطت على الرابط فأخذني إلى صفحة صورة غلافها كتاب (كائن لا تحتمل خفته) ، والصورة الشخصية سلسلة فيها حرف N حينما تصفحت الصور وإذا بي أمام السيدة نون ، ناردا ، اسمها ناردا أي صدفة هذه التي تحدث أيها الوراق ، تأملت صورتها وقد التقطت في حفل عيد ميلاد أحدهم ، صورة لأشخاص يضحكون بملء أفواههم ، وهي الوحيدة التي ترسم على وجهها ابتسامة وراءها حزن رأيته حينما كانت تقف قبالة البحر تحدق بشيء غامض . ناردا! يا الله كيف يحدث هذا! امرأة فتشت عنها كما يفتش مدان عن دليله الوحيد على أنه يستحق الحياة ، وها أنا الآن أجدها هنا في صندوق إلكتروني .

ذهبت إلى خانة الرسائل ، وكتبت وبي بهجة كبيرة :

- سألت وأنا أبحث عنك حتى حجارة المنازل التي مررت بها .

قرأت الرسالة ، وبعد دقيقتين أجابت :

- من أنت؟

- أنا الذي عثر على دفترك ، فتخلى عن مصباحه ، ومنذ ذلك الحين يفتش عنك .

- دفتري؟ هل تقصد دفتر يومياتي؟

- نعم .

- إنها لمعجزة أن أعثر عليه .

- هو الذي عثر علي .

- أرجوكَ . أرجوكَ . أنتَ لا تعرف ماذا تعني لي هذه الأوراق .

- وأنتِ لا تعرفين ماذا تعني لي أيضًا .

جاءني منها طلب صداقة ، فقبلته على الفور ، ثم ما هي إلا لحظات حتى اتصلت بي عبر (مسنجر) ، كان إصبعي قاب قوسين أو أدنى من الرد ، وكنت أكثر سكان هذا الكوكب حاجة لسماع صوتها ؛ لكن دافعًا مبهمًا جعلني أتراجع عن ذلك . عاودتِ الاتصال لأكثر من مرة ولم أرد .

- أنت لا تعرف ماذا فعلت بي برسالتك هذه .

قرأت الرسالة ولم أقل شيئًا ؛ لأن هذيانًا محمومًا أصابني وأنا أحدق بصورتها الوحيدة ، كل شيء بات في جهة ولا قيمة له ، وهي في جهة . هل أفصح لها عمن أكون؟ تجمعت كل احتمالات الكون قبالتي تحدق بي ككائنات فضائية ترى إنسانًا . لا يمكنني أن أتحمل خسارتها ؛ لهذا يجب أن أكون دقيقًا في أي خطوة أقوم بها . هل يمكن لرجل أحبَّ بكل هذا الجنون أن يكون دقيقًا!

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً بقليل ، استلقيت في سريري أتأمل خطواتي نحو امرأة حَضَرَتْ معها الحياة من جديد . فكرت بما فعلت ؛ سطوت على بنكين ، وبيت . تحولت إلى لص بين ليلة وضحاها ، وكأني فعلت ذلك جراء يقين وهمي من أن ناردا حلم رأيته لبرهة وانتهى . انتفخت بطني ، وجاءني الصوت أكثر غضبًا :

- يبدو أن تبدلاً جديدًا سيجعلك تخرق اتفاقنا .

- إني أحبها ، هذه المرأة التي منعتني من أن ألجأ إلى قتلنا أنا وأنت .

قلت ذلك وقد جلست بطرف السرير أنظر إلى بطني وقد ازدادت انتفاخًا :

- لا أمانع من أن تحب ، ولكنك تحب بضعف لديك منه الكثير

قفزتُ عن السرير واتجهت نحو الحمام . فتبعني :

- لا داعي لأن تستحم في هذا الوقت المتأخر من الليل ا
لتتخلص مني ، أكمل ما طلبته منك وسوف أتركك وشأنك لتفعل ما
تريد .

كابوس

أحلق ذقني جيدًا ، أضع على وجهي مساحيق نسائية ، أرتدي باروكة ، وملابس امرأة ، أقف أمام المرآة ، أتأكد من مطابقة هيأتي مع الصورة التي كنت قد أرسلتها لرناد محمود كسحاقية ، أخرج متسللاً ، أستقل سيارة ، أصل بيت رناد محمود ، أنظر إلى الساعة ، أتأكد من وصولي في الموعد ، أجهد نفسي في تقمص دور المرأة ، أقرع الباب ، تستقبلني بحرارة ، تطوق خصري بيدها ، أعبر معها إلى الصالة ، تقدم لي زجاجة بيرة ، تشعل سيجارة وتجلس بقربي ، أطلب منها أن تملأ حوض الاستحمام بالماء الدافئ ، ندخل سويًا ، تخلع ملابسها ، تهبط في الحوض ، أدفعها إلى الأسفل ، تحاول الإفلات ، تموت .

الفصل السادس

وسوف يأخذونني ، ويشنقونني
ويغمرونني بالثرى المبارك
وتنبت الحشائش المسمومة
فوق قلبي الجميل . . .!
أتيلا يوجيف

١
ناردا
(حب آخر)

هبط الليل فتراجع الضجيج ، وتسلل الصمت إلى البيت ، جلست قبالة النافذة أنظر إلى البيوت والأضواء تشتعل فيها معلنة عن شق جديد لما تبقى من اليوم . ثمة إحساس باللاجدوى يجتاحني ؛ إذ تبدل كل شيء بي ، فلم أعد أرى الليل على نحو هادئ يمنح الطمأنينة ، بل بت أراه مثيرًا للوحشة ، وبابًا لأوجاع يمكنها أن تخرج حتى من ثقوب الجدران . أنا امرأة بلا شيء فما أصعب أن يتحول الواحد منا إلى مجرد شيء فارغ بعد أن كان ممتلئًا بالآمال ، خطأ بسيط في لعبة الشطرنج يمكن أن يهزمك ، وحركة بسيطة يمكن أن تعيد إليك الأمل بالنصر .

احتل اللص المقنع تفكيري طيلة الشهور الفائتة ، فالأمر ليس سرقة عادية ، وهذا الرجل ليس مجرد لص عابر ؛ إنه يشبه أولئك الطالعين من الوجع والعائدين إلى شجرته ليجتثها . لص حالم لا يدري أن جذور تلك الشجرة ضاربة في الأرض منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل ، كنت أراه يمشي في بياض الصفحة وأنا أكتب عنه ، وأسعى إلى درب تصلني بأقبيته السرية . يمشي وقناعه على وجهه ، كأنه لا يريد للعالم أن يرى حزنه العتيق ، وخجله مما يفعل . كتبت عددًا من المقالات ، إلى درجة أن صار البعض يعتبروني متخصصة بحوادثه . لكن الجهات الأمنية أصدرت أمرًا بضرورة توقفي عن ذلك ، اتصل بي

ضابط أمن وقال لي بنبرة معاتبة : (أنت يا عزيزتي تؤسطرين لصًا ، وتحفزين الناس على اقتباس طرائقه في السطو) . في ذلك اليوم وصل أمر خطي إلى رئيس التحرير بإيقافي من الكتابة عنه ، ثم أصدروا في اليوم نفسه أمرًا آخر بمنع رواد التواصل الاجتماعي من تمجيده . ترى هل كنت أتسلى ، أو أتناسى عجزي عن أن أفرغ خزانتي الداخلية من محتواها في انحيازي إلى المقنع؟ أم أن تقاطعًا غامضًا بين ما بي وما به قادني إلى ذلك؟

أدرت التلفاز وراقبت شاشته دقائق ثم أغلقته ، يبدو أنني فقدت الشغف بكل شيء ، وما عاد لأي حدث طعمٌ ، حملت حاسوبي المتنقل واستلقيت في السرير ، تفقدت خانة الرسائل في الفيس بوك ، ثمة رسالة من ديوجين :

(لا أدري كيف تولد أحاسيسنا وتصبح كعشب ينمو على حجر مهمل؟ وكيف تهرع نحو شخص بعينه على ذلك النحو من الاستلاب اللذيذ؟ كأن الجهات اختفت ، وما تبقى إلا واحدة ترنو إليها البوصلة . أيقنت منذ ذلك اليوم حينما تنبهت لنفسي ، وأنا أبحث عنك بشغف غريب حارق ، أنني وقعت في الحب ، حب لا أصلح له ، ولا يناسب كئيبا وبائسا مثلي . لم ترقني الروايات التي تفيض هيامًا عندما وجدتها ذات يوم وسيلة ؛ لتزيل تكلسًا يطمر قلبي ، اخترت روايات وجدت أن كثيرًا من القراء أخذوا بها وراحوا ينشرون مقاطع منها في صفحاتهم على فيس بوك : جين إير ، آنا كارينا ، قصة حب مجوسية ، تحت ظلال الزيزفون . حينما قرأتها كتبت في صفحتي : «الحالة الوحيدة التي لن تلوم نفسك فيها على الضعف هو الحب» ، ومن يومها صرت حتى أتجنب نصح زبائني بروايات أو كتب على تلك الشاكلة ،

مع أني أدرك أن الخلل بي لكنها حالة من الاستسلام أمام عنّة في المشاعر اعتقدت أن لا خلاص منها .

كيف يمكن فهم حب رجل لامرأة لا يعرف حتى اسمها ، مشاعر قلت في البدء إنها مرضية ، لكنني لم أستطع التخلص منها ، الأمر يشبه مريضًا ينتظر لحظة الموت وفجأة علم أن خطأ ما حدث فعاد يتشبث بالحياة) .

منْ هذا الرجل الذي عثر على أوراقي ، وتوسلته أن يعيدها إلي ، وما استجاب؟ يكتب لي باستمرار ، يحكي لي عن شكل فريد من الحب أستبعد أن الأرض ما تزال تشهده بعد كل ما حدث لها . مع الأيام أحدثت رسائله تغييرًا مفاجئًا ؛ صرت أعمد إلى فتح خانة الرسائل لأقرأ ما كتب لي ، يكتب عن الحب ، والفلسفة ، والوجع ، والضياع ، والأمل . بت أراه يحمل مصباحًا ، ويسير حافيًا في وضح نهارات عمان في يوم ماطر ، يسير جنبًا إلى جنب مع الرجل الذي يرتدي معطفًا ويضع يديه في جيبيْه . من جهة الباب جاءني صوت الدودوك حزينًا وجارحًا ، فهرعت إليه ؛ لأغلقه من دون أنتبه إلى أنه موصد ، حاصرني نشيج الدودوك ينفرني من الموسيقى التي راحت في الأيام الأخيرة تغرقني بالحزن ، وتذيبني ككتلة تراب تتلاشى تحت صنبور الماء . أغلقت الحاسوب ، وغمرت رأسي ؛ لأنام ، لكن ذلك كان ضربًا من الحفر بالهواء .

قال الطبيب علي أن أداوي الكآبة بالكتابة ، استعدت ذلك وأنا مستلقية في الصوفة أتأمل مشهدًا للص المقنع ينضم إلى مشاهد المسلسل التي كتبتها . قال المنتج الذي أخبرته بجانب من الحكاية : (سيكون مسلسلاً عظيمًا إن كتبتهِ بإخلاص) ، لكنه لا يدري أن ما من شيء يجعلنا مخلصين في الكتابة أكثر من الوجع . رأيت برقًا يلعج

في السماء ، تبعه رعد ثم هطل المطر ، وقفت أنظر إلى الأشجار كيف تستسلم للماء ، وخلف السور رأيت ذلك الرجل يمشي ويداه في جيبيْ معطفه ، فجاءني نشيج الدودوك يحاصر روحي . هربت إلى غرفتي أتوسل النوم أن يطير بي إلى عوالم لا حزن فيها ، لكنه لم يفعل ، قلت إن الهروب من الأسى فرصة له لتكبر كرته وهو يتدحرج ورائي ؛ لذا علي أن أركض نحوه ولا بأس لو ارتطمت به ، فتحت دفتر ذلك الرجل أسعى إليه ليخلصني من حزن حقنه بأوردتي :

(كانت الكهرباء لم تصل القرية بعد عندما عاد جاد الله في ليل أحد أيام صيف عام ١٩٧١ . لم يخبر أحدًا أنه قادم إلى البلاد ، كان يتوقع أن يلقى القبض عليه ؛ جراء ممارسته لأنشطة سياسية خلال سنينه في موسكو ، كل ما حدث أن استجوبه ضابط في مطار ماركا نصف ساعة ، ثم مضى في طريقه نحو مادبا . توقفت السيارة قبالة البيت الذي لم يتغير فيه شيء ، سوى غرفتيْن بنيتا في غيابه . تلفت حوله ؛ الحصان في مكانه ، والحمار في مربطه ، والأغنام في حظيرتها ، والدجاج في أقنانه ، نبح الكلب عدة مرات ، ثم صمت بعد أن اقترب من السيارة ، فجثا جاد الله على ركبتيه ، ومسح على رأسه بحنو ، من وراء السور أتى صوت الشموسي ، ثم تبعته جلبة من الداخل :

– من أنت؟

– جاد الله .

كانت الساعة تشارف على الحادية عشرة ليلاً ، يحيط بالقرية سكون لا يكسر حدته إلا صوت صرصار الليل ، لا أضواء تقف بوجه العتمة سوى إنارات شحيحة لفوانيس قليلة من بعض بيوت الشعر ، ومن عدد يسير من بيوت حجرية بنيت في غياب جاد الله . هبط

الشموسي عدة درجات منخفضة من (البرندة) ؛ فهرع جاد الله ، إليه يقبّل يده ، ويحتضنه وهما يغرقان بالبكاء . استفاقت العائلة : أمه ، وأشقاؤه بادي وعلي ، وشقيقتاه جوازي وشريفة . علت الزغاريد فأطلق بادي عدة رصاصات في الهواء ابتهاجًا وردد :

- أهلا بالحكيم .

ما هي إلا دقائق حتى اجتمع سكان القرية في مضافة الشموسي الذي كان يتجول بينهم ، وعلى وجهه ابتسامة بهجة كبيرة ، بينما جاد الله يجلس على فرشتين صوفيتين في صدر المضافة ، والعيون مصوبة نحوه تتأمل ملامحه ، وكأن شيئًا جديدًا طرأ عليه .

- ألم تتزوج إفرنجية يا حكيم؟

قال رجل كبير في السن يمد ساقه النحيلة الملساء ، ويثني ساقه الأخرى تحته ، ويداه تتكئان على عصًا فيها كثير من الاعوجاج ، رن صوت تاماركا في أذنيه حينما قالت له ذات ليلة ، وهو يحكي لها عن عادات القرية وتقاليدها ، إنها ستدخل مضافة الرجال ، وتسلم عليهم واحدًا واحدًا ، تذكر ضحكتها ببهجة قصيرة ، تبعها نيزك حزن هوى في سماء روحه المعتمة :

- تزوجتُ ، لكنها ماتت .

- الرجل يتزوج مرة وأربعًا .

من زاوية المضافة مد رجل رأسه من وراء رجل بدين ، وقال بصوت نحيل :

- لكننا سمعنا أنها نصرانية .

جاء صوت آخر شبه مبحوح :

- لا . لا نصرانية ولا مسلمة . يقال إنهم بلا دين .

هبط الشموسي بهوادة على الفراش ، ثم قال بنبرة آمرة :

- وحدوا الله . كلنا أبناء آدم .

ثم نظر إلى الرجل مبحوح الصوت بعينين مبتسمتين :

- حينما يباشر الحكيم عمله سيداوي لك هذه البحة في صوتك ؛ لئلا يتيه أولادك بين صوتك وصوت نعجتك المريضة .

ضحك الجميع وغادروا واحدًا واحدًا ، إلى أن خلا المكان إلا من جاد الله ، ووالده . اقترب منه يتبين ملامح وجهه :

- أعرف أنك حزين على زوجتك ، كنت أتمنى أن تأتي برفقتك ، لكنه أمر الله يا ولدي .

لم يكن الشموسي يعرف أن الشرخ الذي سببه موت تاماركا كان واحدًا من شروخ اجتاحت روح ولده ، وأنه ما عاد ذلك الفتى الذي خبره من قبل . ليلتها عصفت بجاد الله جملة أحزان أكبرها كيف سيخبر والده بالحقيقة؟ تقلب في فراشه ثم نهض وسار خارج البيت . رأى علي يجلس بقرب أبيه عند عتبة حوش الدار ، ويتحدث غاضبًا :

- إن فعلها إسكندر سأقتله .

ما إن وجداه اقترب منهما حتى صمتا ، رأى الشموسي أن أمرًا مثل هذا يجب أن يبقى سرًا عن جاد الله ، ثمة أضواء شحيحة كانت تميز مادبا عن تلك العتمة الممتدة أمامهم في تلك الليلة ، وثلاثتهم يجلسون على عتبة الحوش وينظرون إليها بصمت ، قال جاد الله وهو يعقد يديه ببعضهما وينظر إلى السماء وقد خلت من النجوم :

- هل رهنتم أرضًا لإسكندر؟

أشعل الشموسي سيجارة وبدا محتارًا في ما يمكن أن يقال . نظر إليه جاد الله :

- أمضيتم يا أبي سنين رعاة عند أبي جريس ، في الشتاء يسكن بيتًا ونحن نعيش في الكهوف . في الصيف تمضون نهاراتكم جريًا تتبعون الأغنام ، وهو مستلق في بيته ، وفي آخر العام يلقي لكم بالقليل . فرحت كثيرًا عندما صار لنا بيت ، وأغنام ، وأشجار وحياة لا علاقة لأبي جريس بها ، فكيف تغامرون بالشيء الوحيد الذي نمتلكه؟

لم يقل الشموسي شيئًا ، بل ظلت عيناه مصوبتين نحو العتمة وقد تدفقت من الهضبة التي تفصل بين مادبا والقرية . أخذت أنفاس علي تتسارع وبدا غير قادر على كتم غضبه :

- فعلنا ذلك لأجلك يا حكيم .

نظر جاد الله إلى عليٍّ متفاجئًا ، وظلت عيناه تتبعانه حينما نهض وسار في العتمة ، ثم عاد والغضب يمنعه من أن يستقر في مكانه :

- ألم يخطر ببالك من أين أتينا بما كنا نرسله لك من مال طوال سنين دراستك؟ حينما أخبرتنا أن ما تدفعه البعثة لك لا يكفي؟

نهره الشموسي ، ثم أمره بأن يصمت ، وقال يحاول أن يخفف من وطأة ما حدث :

- كل ذلك ليس مهمًا يا ولدي ، المهم أنك عدت حكيمًا ، سأتدبر أمر إسكندر لا تقلق .

أصابت جاد الله خيبة كبيرة ، ليس فقط لأنه لم يعد إليهم طبيبًا بل لأنه اكتشف أنه عبر ما مضى من سنين لم يكن يفكر بأهله . كان يعتقد أن ما تجنيه عائلته من وراء الزراعة ، وما لديهم من ماشية ، وما منحته الدولة من راتب شهري ، بعد استشهاد شقيقه خازر يكفي ؛ ليقتطعوا منه مبلغًا ويرسلونه له . أحس بألم جراء سوء تقديره ، وأحس بأنانية كبيرة ها هي ستفقدهم بيتهم . بدا له الهواء ينحسر من رئتيه

وبات على مقربة من أن يغمى عليه ، فانفجر بالبكاء . احتضنه أبوه وظل ينهاه عن ذلك إلى أن لاذ بالصمت ، أمسك الشموسي بوجه جاد الله :

- اسمعني ، حتى لو فقدنا البيت لن يكون ذلك خسارة مقابل أنك صرت طبيبًا في زمن يحتاجك فيه الناس ، عدد كبير منهم يموتون ولا نعرف لماذا ماتوا ، كل ما يعرفه الناس من الدواء بعض الأعشاب ، والوصفات التي لا تشفي المرضى إلا في مرات قليلة .

لم ينم جاد الله في تلك الليلة ، أدرك أنه على مقربة من خسران أبيه إذا علم بأنه لم يدرس الطب .

٢

إبراهيم
(صراع أخير)

صحوتُ من النوم عند الغروب أتصبب عرقًا ، وأقاسي ثقلاً في رأسي ، وعطشًا شديدًا ، شربت كأسيْ ماء ، وأعددت فنجان قهوة ، وجلست في الصوفة محاطًا بالصمت . الطقس حار ، كأن الصيف جاء بناكف الشتاء الذي مرت قسوة برده بصعوبة . أدرت جهاز التكييف ، واستلقيت في الصوفة ، خيل إلي أن جدران الغرفة تزحف نحوي ؛ وحدة من النوع الذي يخلق شعورًا لدي بأن لا قيمة لشيء في هذا العالم ، ويحذف مني أي رغبة في فعل شيء . تفقدت خانة الرسائل في هاتفي ، ثمة رسالة من الرقم المجهول ذاته وقد حفظته باسم الجارة : (ليتني ما رأيت الذي حدث في المطبخ) . تأملت الرسالة أكثر من مرة ، ورحت أقرأ رسالة أخرى من الرقم ذاته أصابتني بوجع إضافي وحيرة كبيرة ، ما المقصود بتلك الرسائل ، وما الذي عليّ فعله بما أني غير قادر على تجاهلها؟

نهضت إلى الحمام ، وتبولت وأنا أراقب وجهي في المرآة : شعر كث ، عينان بجفنين منتفخين لفرط النوم ، ذقن غير حليق ، وملامح بلهاء . كيف تبدل حالي إلى هذا النمط السوريالي؟ سرقت عددًا من بيوت الأثرياء ، كنت في الأيام الماضية أنعزل لشهر وأعكف على تخطيط دقيق للسرقة ، مستعينًا بالإنترنت الذي قدم لي كثيرًا من

المعلومات : تفاصيل البيوت ، خصائص سكانها ، توقيت دخولي إليها ، وكل ما يلزمني ؛ لأكون الشخصية التي أتقمصها . كلما سرقت بيتًا ازداد الحديث عن المقنع ، حتى السرقات التي لم أقم بها نُسبت إلي .

صدرت عن هاتفي النقال نغمة تشير إلى رسالة جديدة على المسنجر ، ليس من أحد يكتب لي إلا ناردا ، في الشهور الماضية تباطأ إلحاحها في طلبها للدفتر ، وصار الحديث بيننا يوميًا . أخذتْ في البدء تستدرجني ؛ لتستعيد دفترها ، لكن مع الأيام صارت تحدثني كصديق مقرب ، مقابل حبي الجارف لها ، تطورات أبهجتني جدًا . تحكي لي تفاصيل يومها ، ابتداء من خروجها من بيتها الذي تسكنه وحيدة ، ثم ذهابها إلى الصحيفة التي تعمل بها ، ثم عودتها قبيل الغروب تقتل ما تبقى من يومها بالقراءة والكتابة . قالت لي إنها كانت تقرأ الروايات كمدمنة ؛ إذ لا يمكنها أن تمضي يومًا إلا وتقرأ خمسين صفحة على الأقل ، ترى أن أفضل ما منحته الروايات لها هو قتل الوحدة ، وحدوث علاقة بشخوص لا يمكن أن يؤذوها . لا تثق ناردا بالناس خاصة الرجال الذين حاول كثر منهم استمالتها ، تعرف أن كل ما يبدونه من مجاملات وكلمات لطيفة ستنتهي في السرير الذي لم يكن خيارًا لها ؛ لذا أطلق عليها زملاؤها في العمل لقب (صاحبة الصمت الطويل) .

فتحتُ خانة الرسائل . كانت الرسالة منها :

- حين أخبرتني أن دفتري بحوزتك ؛ جن جنوني ، وصار همي لشهور من الكتابة لك هو أن أحصل عليه ، وأنت رفضت لسبب غامض ما عدت راغبة بمعرفته . سأقول لك شيئًا : لقد كسر تواصلك اليومي معي وحدة تطوقني باتت القراءة مؤخرًا تعجز عنها ، إذ أصبحت أصحو بوعي لم أكن لأصنفه لولا أنه صنف نفسه من تلقاء

نفسه ، إنها الألفة التي تحدث لنا مع أحد ما . ديوجين ، سأبقى أناديك بهذا الاسم حتى لو عرفت اسمك الحقيقي ، كنت تنسى نفسك وأنت تكتب لي ، فتتجرد من شخصية ديوجين ؛ لأجد رجلاً يحبني كما لم أحلم ، رجلاً جعلني أتذمر إن تأخرت رسائله . في البدء لم أكن ألقي بالاً لكل ما تتحدث فيه ، لكني اكتشفت مؤخرًا أن شيئًا ينقصني إن توقفتَ يومًا واحدًا عن الكتابة لي ، هل هو الاعتياد على حضورك اليومي؟ حضور أنسني طوال الشهور الماضية بخفة متناهية ، أم أنني أحببتك بكل هذه السوريالية التي تعتري ما بيننا؟ صدقني لا أدري .

قرأت الرسالة أكثر من مرة ثم كتبت لها :

- أنت من تملكين إجابة تعرفين كم أنتظرها .

لم تقرأ الرسالة ، إذ بدت لي قد أغلقت حاسوبها كالمعتاد لتذهب إلى السرير وتقرأ ، ثم تأوي إلى النوم كما كانت تخبرني ، فتحت حاسوبي ، وانتبذت مقطوعة موسيقة أنشد منها مزيدًا من الاسترخاء ، واستلقيت في الصوفة أنظر إلى شاشة التلفاز تعرض بصمت مشاهد لشبان يحتجون على ما يحدث في البلاد من ارتفاع في الأسعار ، في تلك الأثناء داهمني الصوت :

- لقد مكثت فترة مناسبة ؛ لنتجنب أي اشتباه بك ، علينا أن نعد للهدف القادم .

جلست على طرف الصوفة ، أحتضن رأسي بين يدي .

- أعرف أنك منشغل بناردا ، وأعرف حاجتك لحب يطرد من داخلك بردًا وعتمة تقاسيها منذ رحيلك من القرية .

نهضت من مكاني أحس به يتبعني ، وأنفاسه قريبة من أذني فاستدرت فجأة :

- ألا يكفي ما قمنا به؟

جاء صوته مشوبًا بالغضب :

- لا ، لا يكفي ، نحن بحاجة لسرقة أو اثنتين حتى يتسنى لك إنقاذ قاطني البيت المهجور ، حينها سأخلصك مني .

- لكنك حولتني إلى لص .

- اللص يختبئ في عقول الجميع .

قلت وأنا أمشي نحو الحمام وأرشق وجهي بشيء من الماء :

- لكنك أظهرته للعلن ، لست أنا من فعل كل ذلك ، لست أنا .

- لم آتِ إلا جراء شروخ وندوب وضعف يعتري روحك ، هذا العالم يراد له وحش يخرج في الليل ، ويقتنص طرائده ، وفي النهار يظهر للناس ما فيه من حمل وديع .

بقي الصوت يحوم حولي ، ويتحدث بوتيرة مُخدرة ضغطتُ جراءها على أيقونة الفيس بوك ، وبحثت عن صفحة باسم وهمي كنت قد رأيتها قبل أيام ، وبدأت أجمع المعلومات حول البيت الذي رأيته فيها ، وعرفت عنوانه من خلالها ، وبدأت أتجهز لسرقة جديدة . تأملت عند قراءتي خبرًا حول ثورة الاتصالات ، العبارة التي تقول إن العالم أصبح قرية واحدة . حينما أغرمت بعوالم الحواسيب والإنترنت ، وصرت متمكنًا منها أدركت كم صرنا مكشوفين! وكم تلاشت الأسرار! وما عدنا قادرين على أن نداري شيئًا . نعم ، العالم أصبح قرية واحدة لا أسرار فيها ، وسيتحول كل شيء فيها إلى إلكتروني ، سطحي ، تسهل السيطرة عليه ، عبودية بشكل جديد ، أنيق لكنه مرعب من الداخل .

وردتني رسالة من الدكتور يوسف ، تخوفت من قراءتها : هل أسأله

إن كنت كتبت له رسالة أم لا؟

- حينما يتحول التوق إلى قسوة الكراهية فهذا يقين بأن الخراب استشرى وما عاد من الممكن إيقافه ، حقيقة حينما أتأملها يلم بي أسى كبير ، صراع يفتك بي . امتنعت عن مشاهدة التلفاز ، وقراءة الصحف ؛ حتى لا أرى صورته ، ولا أعاني كوابيس ما توقفت عن تبديد نومي . البارحة رأيته في المنام يقترب مني ويحتضنني ، بكيت كثيرًا ، واحتضنته بشدة ، حينما استفقت لم أجد إلا زوجتي بقربي ، تمنيت ليلتها لو أستطيع الحديث لأمي بما يرهقني .

- هل يمكنك أن ترسل لي آخر ما كتبته لكَ؟

كنتُ متأكدًا من أني فعلتُ ذلك ، صدمتُ وأنا أقرأ الرسالة :

- عزيزي الدكتور يوسف يبدو أن علينا قتل آبائنا .

كتب لي مجددًا :

- البارحة رأيتني في المنام أقتل أبي ، صحوت متعرقًا ولاهثًا ، وعندما تأملت ما رأيت وجدت أنّ بي رغبة كامنة لذلك ، ليس فقط لما أضفاه علي من قسوته الكبيرة ، بل أيضًا لما فعل بأمي . منذ أن قابلته في بيته وأنا أضمر كرهًا شديدًا لكل أشكال الأبوية ، لكن السؤال الذي ما انفك يراودني ، هل نستريح ، وتزول عللنا إن قتلنا آباءنا؟ يبدو أننا مرهقون بالأبوية ، ربما يبدو قولي هذا أمرًا مَرضيًا لكن هذا ما بت أؤمن به في هذه اللحظة . البارحة كانت زوجتي تتابع نشرة الأخبار فرأيته يتحدث عن الوطن بكلمات يصعب اكتشاف الزيف الذي يكمن وراءها . كيف يمكن لرجل أن يؤمن بوطن لم يمنحه لابنه؟

***

استلقيت في سريري أفكر ؛ كم واحدًا مثلي ينام بهذه الصعوبة

التي تقف بيني وبين النوم؟ قلت لنفسي ويداي تتقاطعان على صدري أحاول أن أحتضنني : الوحدة شوكة في بؤبؤ العين ، كلما أطبقت جفني يستشيط ألمها ، والوحشة مهلة قبيل شعورنا بمرارة الفجيعة . كم أنتِ قريبة يا ناردا! وكم أنت بعيدة! يجرحني هذا الصمت في غيابك ، والعمر ريشة معلقة بعقرب الدقائق في ساعة الحائط ، يبهت لونها كلما أوغلت في الزمن . أشعلت الضوء ، وأخذت الدفتر ، وهمست قبل أن أفتحه : (إذن اسمك ناردا) . رأيت وجهها يطل علي حزينًا تروي لي الحكاية :

(لم يكن من السهل أن أقنعه بأن ينتقل للعيش في بيتي ؛ كان يسند جسده إلى الجدار وسيجارته بين يديه قد احترقت وتبقى رمادها عالقًا ، وعلى وشك السقوط . رأيته ساهمًا يفكر بشيء ما عندما سحبت السيجارة من بين أصابعه ، وألقيتها في المنفضة ، قلت له : «قبل أن أعرفك كنت متصالحة مع وحدتي ، أما الآن فهو ضرب من الوهم أن أحاول فعل ذلك ، أريد أن نعيش معًا ، ولا بأس إن بقيت معك هنا» .

لم نحمل ونحن نغادر غرفته سوى كتبه ، وأوراقه ، وملابسه ، وقف ببابها والتفت حزينًا : «لا تلوميني فالأماكن تعز علي ، لو أن جدرانها تنطق لأخبرتك لماذا ألقي عليها نظرة الوداع هذه؟» .

كان انتقاله إلى بيتي خطوة جديدة لم أتوقع أنني سأقدم عليها ، خطوة جلبت شمسًا إلى داخلي ، ومنحتني دفئًا احتجته منذ القدم ، وتزوجنا ؛ إذ قال لي ذات ليلة إنه يريدني زوجة . جثا على ركبتيه وأخرج من جيبه خاتمًا ، وألبسه إصبعي ، فبكيت كأنني لم أتوقع أني سأتزوج ذات يوم . في اليوم التالي ذهبنا إلى المحكمة ووثقنا زواجنا .

ومنذ ذلك اليوم عبرنا نحو حياة جديدة ، مع مضي كل يوم منها يكبر حبي لهذا الرجل الذي تملكني بشكل غريب وآسر ، كنت أصحو صباحًا أعد القهوة ونشربها في الشرفة ، فيحدثني عن الكتب ، والموسيقى ، ثم يخبرني عن طفولته وشبابه ، كأنه يقاوم بانتمائه إلى ماضيه زمنًا جديدًا يهدده . وبعد حين صار يتحدث بالسياسة ، كان يرى ما يحدث بغير ما يراه الكثير ، وكان يخشى ما هو قادم ، رأى مرة سيدة كبيرة في السن تحمل بضعة أكياس من الخضار والمؤونة ، ترك الفنجان من يده ، ثم راح يحدق بها ويردد بصوت خفيض : (آه يَمَّه) . قال لي إنها تشبه في الوجع أمه . استرخى مسندًا رأسه على يده ينظر إلى السماء وقد بدت صافية في ذلك الصباح ، ثم قال كأنه يحدث أحدًا غيري :

- العالم يسير على نحوٍ مجنون ومرعب . لكن ستأتي لحظة ينهار فيها كل شيء ، ويبدو الأمر بعدها مثل وردة تنمو من بين الركام ، وردة تطرح بذارًا ستحول المكان الذي حولها إلى حقل .

التفت إلي ثم لامس وجهي بيده الدافئة ، وقال كأنه يعتذر عن غموض ما تفوه به :

- هل ترين هذا التعب الذي يلوح في وجه الناس؟

هززت رأسي :

- وأحس به أيضًا يوجعني .

- هذا التعب سيفضي إلى زمن جديد .

في ذلك اليوم استلقى كعادته في الصوفة ، وارتدى نظارته ، وتجهز للقراءة قبل أن أغادر إلى الجامعة ، كنت أكثر الناس سعادة بحب رجل من هذا النوع ، في الصباح نجلس ساعة ، وبعد عودتي من الجامعة

نمضي ساعة أخرى ، وفي المساء إما نخرج ، وإمّا نمضي وقتنا نتحدث أو نشاهد فيلمًا . مضت ثلاثة شهور على نحو كان بإمكانه لو استمر أن يتوجني بما تبقى من السعادة في هذا الكون ، لكن الأمر تغير بطريقة مباغتة ، إذ صرت أصحو على صوته وهو نائم يهذي ويصرخ جراء كوابيس ، فهمت من خلالها الكثير مما يخبئه ذلك الرجل عني ، وبت أكثر حزنًا عليه . كنت سأتحدث إليه بأمر كوابيسه لكنني انتظرت فرصة سانحة . لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتد إلى ما هو أخطر ؛ فقد بدأ مزاجه يتبدل ، ففي مرات يبدو لي هادئًا صامتًا ، وفي مرات أخرى أراه متوترًا . لكن الأمر الذي حيرني هو ميله لضربي ونحن نتضاجع في السرير . في البدء كان ذلك النوع المقبول من الضرب في أوقات حميمة مثل هذه ، لكن مع الأيام صار ضربًا مبرحًا يجعله كالثور الهائج وهو يضاجعني ، والأكثر غرابة من ذلك أنه ما إن ينتشي حتى يغرق ببكاء يصيبني أيضًا عندما يتحول إلى طفل مهزوم بين يدي . سألته عن سبب ما يحدث له لكنه امتنع عن الإجابة واكتفى بأن قال بحزن مفرط : (ذاكرتي مثل إبرة تتحرك في أمعائي ، إن جعت ألمتني ، وإن شعبت ألمتني أكثر) . بعد مرور أشهر حدث ما لم يكن بالحسبان ، كنا قد فرغنا من تناول العشاء بعد عودتي من عملي ورحنا نتابع نشرة الأخبار لشخصين يستضيفهما مقدم برنامج ، ويتجادلان بصخب حول مصير العالم ، بعد أن فشلت كل الرؤى في إدارته . قلت حينها ألاّ سبيل سوى الحرية المطلقة ؛ لنتجنب ما ينتظره العالم من خراب ، نظر إلي بعينين غاضبتين ، ثم عاد يتابع البرنامج فكررت ما قلت :

– نعم الحرية المطلقة .

خلع نظارته والغضب يتفجر في وجهه :

- هذه طروحات مسمومة ، أي حرية والعالم ذاهب إلى الخراب ، الحرية وهم وكذبة جعلوها تنطلي عليكم .

حينما جادلته صفعني ، فتركته ولذت بغرفتي . قرع الباب كثيرًا إلى أن ملَّ ، لذت بصمتي طوال الليل ، أفكر بما جرى . في الصباح اعتذر بشدة ، بل بكى بمرارة مستغربًا كيف فعل ذلك ، سامحته لأني أعرف كم هو حر ، لكنني لم أفهم لماذا قال ذلك؟ ولماذا ضربني؟ ومع ذلك لم يتوقف عن ضربي ، إذ تبدل سلوكه ، وبت أسمعه يحلم أثناء نومه يحكي عن أيام مضت ، وعن أيام لم تأت ، لم أقل له إني أصحو على صوته ، وأبقى مستفيقة أنصت لما يقول ، لم ينقص من حبي له شيئًا ، لكني بت خائفة على هذا الرجل ، وعلى نفسي إلى أن جرى ما جرى .

***

قبالة الشرفة التي تطل على جبال عَمان ، جلس في كرسيه يسرح بصره في المدى الصباحي ، وقد حفل ببضعة أسراب من الحمام ، وطائرات ورقية تحلق في الهواء . لا يفعل شيئًا سوى حركة يده تمتد بارتعاش إلى المنفضة ، وتُسقط فيها رماد سجائر لا تنطفئ إلا لدقائق . عيناه تتسمران على الفراغ بعد أن فقد رغبته في مراقبة الأشياء في ساعات صباحية مثل تلك . من يراه يعتقد أنه يتلذذ بما ينظر إليه ، إلا أنه في الحقيقة يفتش ذاكرته كمنْ يقلب أوراق دفتر ذبلت صفحاته واصفرت . أطفأ سيجارته ، وحك ذقنه الأبيض برؤوس أصابعه ، ثم بتكاسل وارتعاش في يده التقط فنجان القهوة واحتسى منه ، ثم أعاده إلى الصحن ، وقد أحدث طقطقة ككل محاولة منه لإعادة الأشياء إلى

مكانها . أشعل سيجارة جديدة ، وعاد إلى شروده . كنت وأنا أعبر المم
الذي يفضي إلى غرفة الجلوس أحاول أن أكتم نقرات حذائي ؛ لئلا
تبتر انسياب صمته ، قلت له بصوت لم أستطع أن أداري فيه نبرة
الحزن :

- صباح الخير .

لم يلتفت إليَّ بل بقي ساكنًا وخيط دخان سيجارته يقف في الهواء ، رد التحية بصوت خفيض مشوب بحشرجة ، وعصبية خفية :

- صباح النور .

سمع الخطوات تبتعد مقتربة من الباب ، فالتفت قائلاً وقد ارتفعت حدة صوته ، وبان فيه توتر ما عاد له حيلة على كتمانه :

- إلى أين أنت ذاهبة؟

كنت يومها أرتدي بنطال جينز أسود ، وقميصًا أبيض بنقوش سوداء ، ربطتُ شعري بقطعة قماش بيضاء تدلت خلف ظهري .

- إلى الطبيب .

قلت ذلك وتفحصته بعينين متعبتين طفق أسفلهما سواد مفاجئ . أطفأ السيجارة بحركة نمت عن عصبية ما عادت تحتمل ، والتفت إلي :

- ألا تلاحظين أنك تخرجين ولا تخبرينني؟

هممت بالرد عليه ، لكنه رفع إصبعه قرب شفتيه ، وقد اكتسبت ملامح وجهه الإشارات الأولى لانفجاره :

- إششششش . لست محض شيء مهمل في هذا البيت ، لست عاديًا في هذا العالم القميء ، أنت تعرفين من أنا .

ألقيت حقيبتي على طرف الأريكة ، واقتربت منه بخطوات

متمهلة ، وأنا أرسم في وجهي ابتسامات مستجدية ، لامست وجهه فحك شعر ذقنه باطن يدي :

- حبيبي ، أرجوك لا تدع مجالاً لخلاف جديد ينشب بيننا ، أعلم من أنت ، وأعلم أهميتك ، البارحة تناسينا ما حدث ، واتفقنا أن نفتح صفحة جديدة .

نمت في وجهه ابتسامة ، ثم ذبلت عيناه ولمع فيهما حزن تبعه أنفاسه المتصاعدة ، وصدره يعلو وينخفض . اقتربتُ منه أكثر واحتضنتُ وجهه بيدي :

- حبيبي أنا متعبة ، بي أعراض صحية غريبة ، وعلي أن أذهب لطبيب زرته الأسبوع الفائت ، لم أشأ أن أقلقك .

أبعد يدي عن وجهه ، بعد أن انسحبت منه ملامحه الحانية :

- لا ، أنت ما عدت ترينني كما كنت سابقًا .

ابتعدت عنه خطوات ، مبدية امتعاضًا مما يحدث ، فسحبني من شعري ، ورفع يده ينوي ضربي . أمسكت بيده وألقيتها نحوه :

- كفى . أنت هشمت كل تاريخك حينما سمحت لجلاديك أن يسكنوك ، ورحت تعاقبني على ما فعلوه بك .

خلعت قميصي ، وأنا أرتعش لفرط الغضب والأسى ، فبانت آثارٌ لكدمات في جسدي :

- انظر ، هل يفعل رجل مثقف مثلك بامرأة مثلي أحبته كما يمكن للشرفاء أن يحبوا أوطانهم .

خلعت بنطالي وبدأت أدور وأقترب منه ، وأؤشر إلى ما تبقى في جسدي من آثار تعذيبه لي :

-أنت تمارس علي تعذيبًا تبرر من خلاله ضعفك الخفي ، أنت

مريض مريض قتلت بي حبًا ما عاد بالإمكان أن يعود . الأوطان لا يهدمها المحتلون فقط ؛ إنما يحدث أن يهدمها محبوها أيضًا .

ارتديت ملابسي بعجلة وتوتر ، وهو يقف في مكانه مذهولا وصامتًا ، وصفقت الباب ورائي ، ثم وقفت ألتقط أنفاسي وصوت بكائه يجيء إلي من داخل البيت موجعًا أكثر مما ينبغي) .

٣

ليلى

(خروج السيدة عن صمتها)

رغم الصمت الذي يملأ بيت السيدة إيميلي إلا أنني أخذت أعتاده ، وأشعر بأمان طالما انتظرته . كل أسبوع يجيء رجل يحمل معه دواء السيدة ، وما يحتاجه البيت من مواد تموينية ثم يغادر . أمضي شيئًا من الوقت في المطبخ ، وقليلاً منه في متابعة التلفاز والفيس بوك ، وباقي الوقت في غرفة السيدة . أقدم لها دواءها ، وطعامها ، ثم أجلس في كرسي قبالتها أتأملها كيف تحدق بشجرة الصفصاف ، ومن المسجلة تتهادى مقطوعة الدانوب الأزرق . حاولت كثيرًا أن أدفعها إلى الكلام ، لكن محاولاتي باءت بالفشل ، كنت أريد أن أكسر ما راح يتسلل إلي من ملل ، وشعور بالعزلة ، والوحدة . ومن ثم تخلق لدي إحساس بأن أعرف ولو قليلاً عن هذه المرأة ، وعن هذا البيت الكبير الفارغ ولماذا لا يزورها أحد؟ لذت بالصمت أنظر إلى الشجرة ، وأغرق بالموسيقى التي عبرها كنت أرى رجالاً ونساء يرقصون بكل بهجة . روتين يومي استمر على هذه الحال إلى أن حدثت انعطافة مفاجئة ، كنت قد ساعدتها في تناول طعامها ، وجلست بقربها أنظر إلى الشجرة ، وأنصت للموسيقى ، بعد دقائق سمعت أحدًا يتحدث :

– للذاكرة ندوب ظاهرة للعيان .

التفت مفزوعة أفتش عن مصدر الصوت ، نظرت إلى السيدة وقد

كانت على حالها : صامتة ، وساكنة حتى عيناها لا ترمشان . خرجت إلى الممر ، ومن ثم إلى غرفتي ، وهبطت إلى الطابق السفلي لكني لم أجد أحدًا ، هل كنت أحلم؟ تجاهلتُ الأمر وعدت إلى كرسيّي .

- عرفته في فينا عام ١٩٧٠ .

جاء الصوت مرة أخرى فالتفت إلى السيدة ، كانت عيناها ما تزالان مثبتتيْن على الشجرة ، لكن فيهما وهج جديد .

- كانت ليلة من أجمل ليالي فينا .

يا إلهي إن السيدة إيميلي هي التي تتحدث ، اقتربت منها ولامست يديها المنزلقتين على فخذيها النحيلتين .

- ها أنا أنصت لك سيدتي ، أرجوك أكملي .

- كان قد مضى عليَّ عامان في فينا أدرس الطب ، طالبة مرفقةً بكثير من الوصايا التي يركز جلها على الحفاظ على الشرف ، مرَّ العام الأول وخط مسيري يمتد فقط بين الجامعة والسكن الطلابي الذي أقطن فيه . لا أعرف عن الناس والأمكنة إلا ما كنت أراه عبر نافذة الحافلة ، وما اكتسبته من أحاديث قصيرة مع الطلبة النمساويين ، وآخرين من جنسيات أخرى . لكن مع مضي تلك السنة بتّ أكثر جرأة ورغبة في اكتشاف كل شيء في مدينة أغرمت بها ، إلى درجة أني أكتب عبر رسائلي إلى عمان عنها أكثر مما أكتب عن نفسي . صرت في الأوقات التي أجدني متحررة من ضغوط الدراسة أخرج بمفردي إلى دور السينما ، والمكتبات ، والحدائق العامة ، وأعود وبي شعور كبير من المتعة ، إلى أن حدث ما لم أتوقعه .

عادت السيدة إيميلي إلى صمتها تحدق بشجرة الصفصاف ، وترخي أذنيها للموسيقى ، تركتها ؛ لأعد طعامها قبل أن تأوي إلى نوم

ما بعد الظهيرة ، وأنا أفكر ما الذي حدث لهذه السيدة التي تلوذ بكل ذلك الصمت . حين رأيتها للمرة الأولى اعتقدت أني أمام امرأة مسنة يرهقها المرض ، لكن ها أنا أمام امرأة تبدو لي مرهقة وموجوعة بذاكرتها . قبيل غروب الشمس استفاقت من نومها ، فحملتها ووضعتها في الكرسي ، وحركته إلى موقعه اليومي ، وأدرت المسجلة ، جلستُ أمامها أنظر إلى عينيها المتأملتين بشيء بعيد ، لامستُ ظاهر يديها بحنو :

- أكملي يا سيدتي ما كنت تتحدثين به في النهار .

لم تقل شيئًا ، بل ظلت صامتة تنظر إلى النقطة ذاتها . فعدتُ إلى صمتي اليومي برفقتها ، لكنها فجأة عادت تحدثني :

- تعرفت بشاب أردني يكبرني بخمسة أعوام ، التقيته في (متنزه جزيرة الدانوب) ، كنت جالسة في مقعد يقابل النهر والسماء من ورائه زرقاء صافية تتقاطع بلونه ، أستمتع بلحظات يصفو فيها قلب فتاة مثلي ليس فيه ما يؤلمها ، وأتلذذ بسخاء الطبيعة كيف تثير بي أغاني تجيء من روحي ، وقد كانت في أشد توقها للحياة . كانت لحظة تأمل تخللها مرور شاب من أمامي ، فتعثر وسقط أرضًا ، ثم نهض وراح ينظر إلي وأنا غارقة بضحك عفوي . حدق بي مغتاظًا من ردة فعلي ، ثم أصلح من هيأته . اعتذرتُ له بلغة ألمانية فيها شيء من الضعف ، فرد علي بلغة أكثر قوة وعيناه الجميلتان تلمعان بكلمات لم يقو على قولها :

- ليس من اللائق أن تضحكي .

- أعتذر ، لقد ضحكت رغمًا عني .

قال وكأنه انتبه لأمر ما بعد أن اكتسحت وجهه ابتسامة تشبه إشراقة شمس ربيعية :

- أنت لست من هذه البلاد .

- أنا من الأردن .

- الأردن ، عرفت الآن سبب تعثر خطواتي ، وما عدتُ محرجًا .

قالها بالعربية وكتفاه تميلان يمينًا وشمالاً كأن مغنيًا يردد أغنية ويتلذذ بكلماتها . وقفتُ وبي شيء دفعني إليه حين رأيته يزيل شعره الطويل عن عينيه وينفرج فمه عن ضحكة طرية . تداركتُ نفسي فعدت إلى المقعد أراقب نظرته المستدرجة بعد أن حمل عن الأرض ما سقط من كتب ودفاتر .

- وما علاقة تعثرك بكوني أردنية؟

- هناك بذار لا تنبت إلا في تربة معينة حتى لو جرّوا إليها كل الماء .

هزني وصفه ، بل أثار بجسدي تلك القشعريرة التي بحاجة إلى معطف دافئ لتغادر ،كانت لحظة رأيت عبرها أني أمام رجل يمكن أن يكون لي معطفًا أبديًا دافئًا ، لا أدري أي جرأة في ذلك اليوم قد تفجرت بي؟ فأفسحتُ له مجالاً في الكرسي ودعوته أن يجلس :

- تعال إذن واجلس بجانبي .

بدا لي خجولاً رغم جرأته الأولى ، ينظر إلي بطرف عينيه ثم يتأمل الأفق ، ويلامس كتابًا وضعه على فخذيه :

- ترى هل وجودي بقربك الآن والدانوب أغنية صامتة ترعى هاتين العينين الجميلتين ، صدفة؟

- لا شيء يحدث صدفة .

في ذلك اليوم عرفني بنفسه كأنه ينتظرني منذ زمن ، طالب يحضر للماجستير في الهندسة بعد أن نال البكالوريوس من تلك البلاد

التي بدا لي يحبها كثيرًا . أمضينا ساعات نتجول في المتنزه نتحدث كما لو أننا أصدقاء منذ زمن إلى أن حلّ المساء ، فعدت ونمت وأنا على يقين أنه بات خـيـاري الوحـيـد . حب انتظرته منذ أن عـرفت لذة الأغنيات ، ومشاهد الحب في القصص الرومنسية التي قرأتها في أيام المدرسة . في اليوم التالي التقينا ، أمسك بيدي واقتادني إلى مقهى يطل على ليل فينا الحميمي ، كما لو أنه يغني أخذ يتحدث في كل شيء : الموسيقى ، الرسم ، الهندسة ، الحب . وكانت عيناي لا تفارقان وجهه أجمع كلماته ، وألظمها في خيط ، وأعلقها في روحي ، فأكثر ما يحيي في الحب هي لحظاته البكر ، تمامًا كمزارع يحتفي بنشوته وهو يزرع شجرة ويفكر بثمارها القادمة .

مضت الأيام وصار ضوءًا لا يمكن الاستغناء عنه ، نخرج سويًا ، ونعود سويًا ، وكل منا يضمر في قلبه حبًا للآخر لم نصرح عنه إلا في ليلة أقيمت فيها أمسية موسيقية بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاة شتراوس ، وعزفت فيها مقطوعة الدانوب الأزرق . كان يعرف هيامي بالموسيقى لهذا اشترى تذكرتين لنا واتفقنا على أن نلتقي في المساء . ليلتها تأنقت كثيرًا ، وانتظرته على ناصية الشارع أعيش أجمل لحظات الانتظار . حينما هبط من الحافلة كان كقوسٍ كمنجة يعرف كيف يلامس أوتاري ، فـيـفـرّ لحني المخبـوء في قلبي الذي أقلعتُ عن أن أحاصره بضوابط امرأة شرقية عليها أن تبقى بمنأى عن الرجال . أمسك بيدي ومضى بي في الطريق إلى الأمسية :

- كل يوم تزدادين جمالاً .

قـال ذلك وراح ينظر إلي كـأنه يراني للمـرة الأولى ، ثم أخـذ يتحدث وفي عينيه أمارات للتفكير بشيء بعيد ، تمنيت أن يقف في

منتصف الطريق ، ويبوح بالكلمة التي أنتظرها ، لكنه ظل يدارِ
ارتباكه إلى أن وصلنا ، حيث عجَّت القاعة بالناس وابتدأت الأمسيه
كانت يده دافئة في يدي ، وأنفاسه مضطربة ؛ كدت بسببها ألقي
بنفسي في حضنه . وجدت الموسيقى محض طيور تحلق حولي ،
والدانوب غير مجراه وراح يصب في قلبي حينما نظر إلي بعينين
ناعستين واعترف بحبه . قالها بصدق لم أجد له مثيلاً ، فاعترفت له
بحب حدث لي منذ أول يوم رأيته فيه ، حب عرّفني بأنوثتي ، ومكنني
من فكرة المرأة عن جمالها .

عادت السيدة إيميلي إلى صمتها من جديد تحدق بشجرة
الصفصاف ، وموسيقى الدانوب الأزرق تحوم في الغرفة ، وقد صار لها
إيقاع لذيذ على قلبي . قبل أن أنام قرأت عبر الإنترنت معظم ما كتب
حول المقطوعة ، وحول يوهان شتراوس وأنا أحاول رسم صورة لذلك
الرجل الذي وقعت السيدة إيميلي بحبه .

***

مضى أسبوع ولم تقل السيدة إيميلي شيئًا . في الحقيقة لم أكن
أدري ما الذي دفعها للخروج عن صمتها في ذلك اليوم ، فعلت كل
شيء قمت به من قبل لعلها تخبرني بباقي الحكاية : ارتديت الملابس
ذاتها ، وجلست في المكان ذاته ، لكنها ظلت على صمتها المعهود . في
أحد الصباحات وقد كان يوم أحد عادت تتحدث إلي ، كنت قد
حممتها ، وبدلت ملابسها ، وأطعمتها إفطارها ، وجلست قبالتها أنظر
إليها وبي إحساس جديد أضفاه عليَّ شعوري بأمومتها لي ، وبأنني في
بيتي ، وأنتمي إلى هذه المرأة الوحيدة . لأول مرة منذ أن أتيت إلى ذلك
البيت تنظر السيدة إيميلي إليَّ مباشرة ، وفي عينيها طيف لكلمة حانية

جعلتني أضع رأسي على ركبتيها . كان إحساسًا مليئًا بالسكينة ، ازداد عندما وضعت يدها على رأسي ، وراحت أصابعها تمسد شعري ، بكيت لحظتها بهدوء جراء ما خلفته عليَّ سنيني الماضية ، وما شرعت ترويه لي :

- ذات ليلة كنا عائديْن من مطعم أمضينا فيه ساعات يحكي لي عن الأيام التي سيضمنا فيها بيت واحد ، كنت أحلم بأن أصبح طبيبة ، وصرت أحلم حينما عرفته بالزواج ، لم أجد أيامها قيمة لأي شيء في غيابه ، لقد استحوذ علي وبت رهينة له ، قلت له ذلك ونحن نقف قبالة البناية التي تقع فيها شقته في مقاطعة (إنيري ستادت) وقد دعاني إلى فنجان قهوة ، لم أكن أدري أن الذي سيحدث ليلتها سيبدل كل شيء .

صمتت السيدة إيميلي بعض الوقت ، فرفعت رأسي وإذا بها تحدق بشجرة الصفصاف حزينة :

- لا أدري كيف سحبني إلى حضنه مدفوعة بكل ذلك الحب ، إذ صحوت على نفسي عارية بين ذراعيه ، ومن ذاكرتي تأتي وصايا العائلة بالحفاظ علي كفتاة عارض الكثير فكرة سفرها إلى بلاد بعيدة . حينما رآني أبكي ضمني وقال يطمئنني : (لا تقلقي سنتزوج) . لكن ذلك لم يحدث ؛ إذ بَهَتَ الذي بيننا ، وفقد بريقه مع الأيام ، وبطني يكبر شيئًا فشيئًا ، وما عاد عندي طاقة حتى على الدراسة التي كذبت بشأنها على عائلتي . اختفى ذلك الرجل كأنه لم يكن ، سألت عنه فقالوا إنه عاد إلى الأردن ، فكتبتُ رسالة إلى أبي ، وأخبرته بالذي حدث ، ووضعتهم أمام خيارين : إما أن أعود ونجد حلاً لما أنا فيه ، وإمّا أن أبقى في فينا إلى الأبد .

t.me/qurssan

عدت متخلية عن حلمي بالطب، وأراني أبي في البيت لأشهر كتب خلالها كثيرًا من الرسائل لذلك الرجل ولم يتلق أي جواب عرفت من أحد زملاء الجامعة أنه سافر إلى أمريكا لأجل الدكتوراة. ما كان من عائلتي إلا أن زوجوني برجل، واتفقوا معه أن يطلقني بعد أسبوع لنتجنب ما يمكن أن يقوله الناس، ومع ذلك انتشرت كثير من الحكايات حولي دفعت أبي لتغيير مكان سكنانا. اعتزلت سنين في البيت، وابني يوسف يكبر بلا أب. قلت له حينما سألني: (أبوك مات)، لكنه سمع والدتي التي لم تسامحني على ما فعلتُ تصرخ بأبي، وتتهمه بقلة الشرف، تعايره بما حدث لي، فأخبرتُه أن إياد نبيل هو والده.

حينما سمعت ذلك الاسم تذكرت ما قرأته عن رجل مهم يدعى إياد نبيل وجد مقتولاً في بيت ثان له، وبدا لي أن السيدة إيميلي لا تعرف عما جرى.

- قبل أن يموت والدي وزع ما يملكه علينا أنا وأختي، وبعد رحيله بأشهر انتقلتُ إلى بيت جديد، وعملت في التجارة إلى أن حصدت ثروة كبيرة. صار عندي شركة بسبب أنشطتها جعلتني ألتقي بإياد نبيل، كنت في تلك الأيام قد تصالحت مع جزء مما حدث لي، بمجرد أن رأيته يدخل مكتبي عاد الزمن بي يجرني إلى الوجع، يومها طلبت منه أن يعلن أبوته ليوسف، أشعل سيجاره، ونظر إلي بعينين غير اللتين رأيتهما في متنزه جزيرة الدانوب، وقال متعجرفًا:

- وما يدريني أنه ابني؟

فضربته بمنفضة سجائر شجت رأسه، وسجنت بسببها شهرين بعدهما حارب أنشطة عملي إلى أن أعلنت الإفلاس. في تلك الليلة

حدثتني السيدة إيميلي عن يوسف، وكيف نشأ في ظروف نفسية صعبة، وأن أكثر ما يؤرقه هو شعوره بأنه ابن حرام لا ينتمي إلى عائلة، أخبرتني بأسى أنها لم ترَ يوسف يضحك إلا وهو طفل، وأنه أمضى عمره بلا أصدقاء، درس الطب النفسي، وتفوّق به .

٤

إبراهيم
(ناردا وديوجين)

أزلتُ البخار عن مرآة الحمام ونظرت إلى وجهي وقد ألقت العزلة بآثارها عليه . العزلة سجن اختياري تذبل فيه أرواحنا ، ونصير مثل الأشجار التي تُسقى بماء مالح . خرجت أحس بالجدران تتحرك من أماكنها ، بل إن كل شيء كان يتمايل : التلفاز ، الحاسوب ، فنجان القهوة ، زجاجة الماء ، حتى دفتر ناردا . ثمة شكل مريع من الاختناق أخذ يعتريني بما لا يمكنني احتماله . ارتديت ملابسي ، وخرجت متنصلاً من كل الشخصيات التي تقمصتها ، (أنا إبراهيم ، ولا أحد سواه) ، قلت ذلك لنفسي وأنا أتجاوز الدوار السابع أمشي على الرصيف ، لا أدري إلى أين سأذهب؟ سألني سائق السيارة عن وجهتي ، فاستغرب حيرتي وضحك : (ألا تعرف وجهتك؟) اخترت الذهاب إلى وسط البلد ، ولذت بصمت أستعيد ما قالته ناردا في رسالتها الأخيرة ، فتأملت كلماتها بمتعة استجديتها أن تخرجني مما أنا فيه ، كتبتُ لها رسالة : (أما آن الأوان أن نلتقي؟) جاء ردها سريعًا : (غادرت عملي وما وجدت عندي رغبة بالعودة إلى البيت) ، كانت إشارة منها لنلتقي ، فاخترنا وسط البلد . قالت لي : (سأنتظرك عند كشك الوراق) ثم استدركت (أقصد عند المكان الذي كان فيه كشك الوراق) . مرة واحدة صار للأشياء معنى جديد ، وباتت الرؤية أكثر

وضوحًا ، أي معجزة يصنعها الحب؟ وأي حياة يدبها بجسد كان يذهب بلا حسرة إلى النهاية؟ هل ستتذكرني؟ ذلك الرجل المحبط كطائر مبتور الجناحين يقف على شاطئ البحر ، يفكر بآخر مشهد ستحتفظ به شبكيته قبل أن يأوي إلى العدم . ثم فجأة ومن دون أن تعطيه الحياة اي أمارة يقع بالحب ، فيركل ثعلبَ الموت بقدمه ويتبعها باحثًا عنها ، بنهم أعمى رأى الضوء . وإن تذكرتني أي كلمة ستردد في سرها ، أو على شفتيها السمراوين؟ كنت سأقول لها علينا أن نلتقي بعيدًا عن الكشك ؛ فبعض الذكريات سكاكين تحز عنق اللحظة ، خاصة لواحد مثلي احترف الهروب وصادقه سنين طويلة ، لم أفعل ذلك فقد خشيت من أن أخسر أجمل فرصة ؛ لأفعل شيئًا بمحض رغبتي .

نزلتُ من السيارة في أول شارع الملك حسين ، كان المساء أجمل مما رأيته على مدار سنين أمضيتها في الكشك ، ليل يؤدي إلى فرح طازج يعانق قلبي بسخاء الفرسان العائدين من معركة رابحة . وقفت على الرصيف الآخر للشارع أنظر كيف احتل متجرٌ كشك الوراق ، متجرٌ انتشرت مثله العشرات في عمّان ، سمعت أنها لإياد نبيل ، أمر حيرني ، فما حاجة رجل لديه العديد من الاستثمارات بمتاجر مثل هذه .

وجاءت ناردا ، نزلت من سيارة أجرة ترتدي بنطال جينز ، وقميصًا أبيض ، شعرها أقصر مما كان عليه ، مشت بخطوات رشيقة هادئة ، كأنها تمشي على وتر في قلبي فدب به الغناء ، عيناي لا تفارقانها إلى أن وصلت مكان الكشك ، وراحت تتلفت حولها ، فعبرت الشارع مسرعًا كأسير حرب يصل الشاطئ ويقفز في الماء يستعجل الوصول إلى اليابسة .

- ناردا .

ما إن سمعتني أنطق باسمها لاهثًا وفرحًا أكثر مما ينبغي حتى نظرت إلي متفاجئة ، رأيت الملامح ذاتها في وجهها يوم وقفتْ تنظر إلي وتتفحصني بغرابة شديدة . خطت إلى الوراء ، تضع يدها على فمها وهو يرتعش ، ثم أخذت تحاول مداراة ما ألمّ بها . مدت يدها نحوي بتردد ، وصافحتني :

- أنتَ؟

- ديوجين ، نعم ديوجين؟

تلعثمت ونظرت إلى المتجر ، ومن ثم إلى الشارع وقد عج بالناس والعربات ، ثم قالت بكلمات ملتبسة :

- كيف يحدث هذا؟

أشرت بيدي لنمشي ، كان ملمس كتفها دافئًا وهي ترتطم بكتفي في زحام المشاة . توقفتْ تحدثني من فوق أكتاف المارة بصوت مختنق تشارف على البكاء :

- هل هذه صدفة ، أم قدر ، أم أمر رتبتَ له؟

لم أفهم ما كانت تقصده ، رغم ذلك لم أقل شيئًا ؛ فكل ما أردته لحظتها هو أن لا أخسر أعظم فرصة حدثت لي . قلت متوسلاً :

- ثمة مقهى قريب من هنا .

- أريد أن أغادر ، اعذرني .

كادت أن تبكي حينما تحدثت إلي . دارت حول نفسها تضع يدها على جبينها تارة وأخرى على فمها . اعتقدت أن سر انزعاجها يكمن في اختبائي باسم ديوجين فرحت أبرر لها ما جرى ، لكن بدا الأمر لي أبعد مما تصورت . توسلتها أن نجلس ولو دقائق ، فعلتُ ذلك مرات

فوافقت ، ياه كم كنت سعيدًا ، وحزينًا في الآن ذاته! كيف يأتي رغيف الفرح مقضومًا بهذا الشكل . جلسنا قرب واجهة زجاجية في الطابق الثاني لمقهى يطل على الشارع . طلبتْ فنجان قهوة ، وأخذت تدخن وتهز قدمها مدفوعة بتوتر غريب ، وأنا أخبرها بقصة ذهابي للانتحار . قلت لها كل شيء منذ البداية التي ما عادت تساوي شيئًا أمام بدايتي بها . شيئًا فشيئًا مالت إلى الهدوء ، صارت ملامح وجهها متأملة ومتعاطفة ، تتفحصني كأنها تقارن بين الصورة التي رسمتها في خيالها لديوجين ، وبين صورتي الماثلة أمامها .كلما أوغلت في الحديث ، ترتخي عيناها وتكتسبان طيفًا حانيًا . كدت أعترف لها بما طرأ عليَّ بعد عودتي من العقبة ، لولا أن الصوت جاءني غاضبًا ينبهني لخطورة ما كنت مقدمًا عليه ، توقفتُ عن الكلام وصمت كمن ينتظر براءة القاضي بعد أن أنفق وقتًا في الدفاع عن نفسه . ابتسمتْ ، ثم قالت وعيناها على الشارع :

- أين دفتري؟
- في المرة القادمة سأحضره لك .
- المرة القادمة؟

قالتها بضحكة خفيضة خلقت لدي يقينًا بأن المسافة صارت أقرب بيننا ، ثم غرقت بسهو قصير :

- إذن أنت الآن تعرف كل شيء عني .
- أعرف ما كتبتيه .

قلت أحاول أن أزيل من دربي إليها عوائق خفية :

- تمنيت أن أجد الحميمية التي تبدّت في رسائلك الأخيرة لي .

أشعلت سيجارة جديدة ، وطلبت فنجان قهوة آخر ، ثم قالت

تحاول أن تجد عبارة مناسبة تعبّر عما يدور بخلدها :

- إنني أشبه مسافرًا وجد نفسه عند مفترق يؤدي إلى طريقيْن .

في تلك الليلة حدثتها عن بعض الكتب ، كنت أسعى إلى أن أجعلها تمضي بمعيتي أكثر وقت ممكن ، أخبرتها عن قدرتي على تقليد الناس ، وتقمص شخصياتهم ، وأني لا أستطيع تقمص شخصية لا أحبها ، ضحكت وهي ترخي ذقنها على يدها فبدت أجمل مما خبرت :

- دعني أرى هذه الموهبة .

هل كانت تختبر حبي لها ، أم أن الفضول هو الذي جعلها تطلب مني ذلك؟ وقفتُ على مقربة من الطاولة أنظر إليها ، إلى أن بدأت عضلات وجهي تتحرك ، فصارت على هيئة وجهها ، ورحت أقلد مشيتها . نهضتْ مستغربة ومندهشة ، وصدرت عنها صرخة لفتت انتباه رواد المقهى الذين تفاجأ بعضهم بما رأوه . حملتْ حقيبتها وغادرتْ ، فلحقتُ بها مسرّعا وبقيت أمشي خلفها إلى أن صرنا في الشارع ، فمشيتُ بقربها وهي صامتة ، وقد تراجع الزحام الليلي في وسط البلد ، وبدا أكثر هدوءاً . توقفتْ فجأة وقالتْ مستغربة :

- كيف فعلت ذلك؟

- موهبة لا تفسيرَ لدي حولها .

ضحكت مندهشة :

- هذا جنون .

نظرتْ في ساعتها وصافحتني :

- علي أن أغادر ؛ فقد تأخر الوقت .

بقيت أرقبها ، إلى أن توارت عني ، محتارًا بسر تفاجؤها بي ، ولماذا بدت على ذلك النحو القاسي؟

الفصل السابع

«ما أشد حيرتي بين ما أريد وما أستطيع»
نجيب محفوظ

١

ناردا

(اعترافات جديدة)

كان أسبوعًا قاسيًا عانيت فيه مشاعر مختلطة ، إذ وجدتني وسط زوبعة من الحواس . كيف دخل إبراهيم حياتي؟ فصارت كلماته تتربص بي وتأخذني إلى منطقة ما زلت أخشاها . في البدء قلت إنه سيخلّص قلبي من وجع خلّفه غياب رجل أحببته بانصياع تام ، ولكني عندما التقيته وجدت أني أمام حب عاقر لم أستطع أن أخبره بحقيقته بعد لقائنا ، وهو لا يتوقف عن الكتابة لي كأنه يهزم بالكلمات أي احتمال لخسارتي . بقي وجهه حينما قام بتقليدي يرافقني حتى في مناماتي . هواية غريبة أثارت حيرتي واستغرابي . كلما كتبت له أحذف ما كتبت ، فتفاقمت حالتي النفسية وأنا في مصيدة علي الخروج منها ، قلت للطبيب إني عانيت مشهد ذلك الرجل الذي يمشي في ليال ماطرة ، ثم بت أرى الرجل المقنع بمعيته ييممان شطر جهة مجهولة ، ومجددًا صار مشهد إبراهيم جزءاً منه .كدت أخبره بالسر الذي أعادني إلى بؤرة الألم وتراجعتُ ، ربما كان علي أن أفعل ذلك لعله يرشدني إلى الخلاص . سألني -بعد أن اطمأن على استمراري في تعاطي دوائي- عن الكتابة ، واقترح أن أضيف إبراهيم لشخوص المسلسل . يومها جلست إلى طاولتي وكتبت حتى مطلع الفجر ؛ فقد وافق المنتج على المسلسل بعد أن أرسلت له ملخصًا حوله ، فأخبرني أنه بانتظار الحلقات .

لم أستطع النوم ليلتها ؛ كنت أراهم يقفون إلى النافذة يحدقون بي ، فغمرت رأسي بغطاء النوم ، لكنهم تسللوا إلي يهدمون أقل احتمالاتي بالعيش خارج الحزن ، نهضت من سريري ورحت أتجول في البيت . حينما تتفاقم الأحزان تهرب ذاكراتنا إلى الوجه الأول في حياتنا ، كأننا نصنع حلم يقظة نُوهم فيه أنفسنا بالعودة إلى أول الدرب ؛ لتفادي كل ما حدث من أخطاء . على الطاولة كان دفتره ملقى كوردة يابسة بين دفتيْ كتاب ، أعددت فنجان قهوة ثم حملت الدفتر معي وعدت إلى عالمه :

(بعد أيام من عودة جاد الله من موسكو أقام الشموسي وليمة دعا إليها أهل القرية ، ووجهاء مادبا ، بنى بيوت شعر ، وذبح نصف ما لديه من أغنام . عند الظهيرة ارتدى ما لديه من ثياب جديدة ، وأسدل عليه عباءته السوداء التي تقاطعت بلون شاربه وقد صبغه بالأسود ، وجلس ينتظر ضيوفًا ما إن توافدوا حتى أمر جاد الله أن يقف بقربه ويصافحهم . امتلأ بيت الشعر بالرجال ، وجاء رفاقه بالحزب . همس له واحد منهم : (كيف ستخبره بالحقيقة؟) لم يجب جاد الله ؛ بل مشى بين الرجال يفكر بورطته الكبيرة . بعد الغداء سأله أحد وجهاء مادبا وهو يمسد شاربه الذي كان لونه يميل إلى الاحمرار : (هل دراسة الطب خمس سنوات في موسكو؟) سمع الشموسي بما قال الرجل ، فأحس بأن جاد الله يخفي عنه شيئًا . بعد أن غادر الجميع مشى هو وجاد الله يبتعدان عن البيت وجلسا قرب شجرة الزيتون ذاتها التي جلسا قربها قبل أن يسافر :

- قل يا ولد ، ما الأمر؟

في ذلك اليوم أخبره جاد الله ، كان يحكي ويبكي في الآن ذاته ، والشموسي يحدق بالفراغ صامتًا لا تلوح في وجهه أية أمارة ، كل ما

فعله عندما سمع الحقيقة أن نهض من مكانه ، ومشى مترنح الخطوات ودخل المضافة وأغلق الباب عليه . بينما جاد الله جالسٌ تحت الشجرة وقد امتد ظلها شرقًا وسقطت أشعة الشمس على وجهه ينظر إلى عصفور علقت بجناحه خيوط فأربكت حركته . حاول العصفور أكثر من مرة أن يحلّق لكنه فشل في الطيران ، فعلق بأغصان الشجرة المتشابكة ، وعيناه تتوسلان وهو يتخبط في حركته ، تأمله جاد الله مليًا وفكّر بشكل إحساسه الموجع بعيدًا عن سمائه . نهض وراح بتمهل يفك الخيوط إلى أن فرّ العصفور محلقًا في السماء ، اللحظة التي انطلقت فيها رصاصة من بندقية الشموسي وفوهتها تطل من نافذة البيت ، وأصابت كتف جاد الله فسقط أرضًا يحس بدفء الدم وهو يتدفق على الأرض ، وعيناه تتبعان العصفور إلى أن أعتمت شيئًا فشيئًا فأغمي عليه .

استفاق في المستشفى وحوله عدد من الأشخاص ، لم يعرفهم في البدء فقد كانت رؤيته مشوشة ، لكنه ميزهم حينما سأله الطبيب ، كانوا إخوته وعددا من أقاربه . اقترب علي من أذن جاد الله وهمس له بصوت حزين ومتوسل :

- قل للشرطة إن أخي عليًا كان ينظف البندقية فانطلقت منها رصاصة بالخطأ .

- أين أبي؟

لامس علي رأس جاد الله حانيًا عليه :

- في البيت حزينٌ بسبب ما فعل .

- قل له إن وجدت أن بندقيتك تريحك من شعورك بالخذلان صوبها إلى رأسي هذه المرة .

انتشر الخبر في القرية سريعًا ، فجاء بعضهم يواسون الشموسي الذي لم يظهر حزنه مما جرى بل بقي متماسكًا ، إلى أن عاد جاد الله إلى البيت فبكى غير مكترث بمن هرع من سكان القرية يهنئون جاد الله بسلامته . في ذلك اليوم استلم الشموسي بلاغًا ليراجع المحكمة ؛ إذ رفع إسكندر ضده دعوة مدعيًا فيها ملكيته للبيت والأرض ، مشى الشموسي في البستان وأمسك بغصن شجرة وراح ينظر إلى البعيد . كان يفكر بالخسارات التي مُنِيَ بها ، خسر ولديه في الحرب ، وحلمه في أن يعود ابنه طبيبًا ، وها هو على مقربة من أن يخسر بيته . بقي حتى الغروب جالسًا تحت الشجرة ثم حين حلّ الليل نام باكرًا يهرب من شعور بالعجز أمام كل ما حدث . في الصباح استفاقت العائلة على صوت أمينة تولول بعد أن رأت شرطيين يلقيان القبض على عليّ متهمًا بمحاولة قتل إسكندر ؛ إذ خرج قبيل الغروب بعد أن رأى والده حزينًا وترصد لإسكندر وتبعه بعد أن أغلق دكانه وسار في الشارع ، ثم في إحدى الزقاق وجه له طعنة من خنجره وفرّ هاربًا من دون أن يدري أن اسكندر لم يمت ، فعرف من اعتدى عليه .

في ذلك العام سجن علي جراء اعتدائه على إسكندر ، وتزوجت شريفة بعد أن تزوجت جوازي قبلها بسنين ، وعمل بادي مستخدمًا مدنيًا في الجيش . كانت سنة صعبة تبدل فيها حال العائلة وحال الشموسي الذي ما عاد يتحدث كثيرًا ، بل يمضي جل وقته صامتًا بعد أن توسط لدى العديد من معارفه ، فقبل إسكندر أن يتلقى ما له من دين على دفعات تكفل بها بادي .

***

مع الأيام ما عاد أحد يتحدث بما فعل جاد الله ، حتى الشموسي أظهر أنه نسي الأمر رغم غصة سكنت قلبه ، لكن الناس بقوا ينادون جاد الله بالحكيم ؛ يعودون إليه في أمور كثيرة حتى إذا مرض أحدهم . وثقوا به كثيرًا ، وأحبوه أكثر من ذي قبل ، حتى إنّه بات يفصل بين من يختلفون . في النهار يمضي جزءاً من وقته في مادبا مع أصدقائه ورفاقه في الحزب ، حيث يمارس نشاطه فيه بشكل سري مفرط ، وفي الليل يأوي إلى الغرفة ذاتها التي أمضى آخر سنوات المدرسة فيها ، يقرأ ويكتب . بعد عامين من عودته عُيِّن جاد الله أستاذًا في المدرسة ، وراح يدفع هو وبادي معظم ما يتلقياه من أجر لإسكندر إلى أن سددا الدين .

في تلك الأيام رأى جاد الله كيف أخذ حال القرية يتبدل ، بُنِيَ فيها عددٌ جديدٌ من البيوت ، ورفعت على أسطح بعضها هوائيات التلفاز ، وصار فيها دكاكين . عُيِّن بعض سكان القرية في وظائف حكومية ، وتراجع إقبال الناس على الزراعة . راح جاد الله يحثهم على زراعة الحبوب وكثير من المحاصيل التي تنمو في أراضي مادبا ذات التربة الحمراء ، وأخذ يحث القليل ممن يعملون رعاة عند أصحاب المواشي بألاّ يقبلوا بأجور زهيدة . كان يلتقي بكل واحد منهم على حدة ويحدثهم بطريقة تبدو لهم حديثًا عابرًا . أحبه طلبة المدرسة وهو يحدثهم عن البلاد التي درس فيها ، وعن حياة الناس هناك . كان حينما ينهي شرح الدروس لهم يحكي لهم عن كتب قرأها . سأله ذات مرة أحد الطلبة :

– لماذا درست الفلسفة رغم أنك سافرت ؛ لتعود طبيبًا؟

أسند جسده على الطاولة ، وبدت عيناه تشيران إلى سهو بأشياء بعيدة :

- لن يقدر الإنسان على صنع حياته إن لم يستخدم عقله في فهم كل شيء حوله ؛ لهذا درست الفلسفة .

نظر بوجوه الطلبة فأدرك أنهم لم يفهموا ما رمى إليه ، قال وهو يمشي بين المقاعد :

- عندما نظر الناس قديمًا إلى الكواكب البعيدة خافوا منها فقدسوها ؛ لأنهم لم يعرفوا ما هي ، كانوا كلما عجزوا عن فهم شيء عبدوه .

نظر إليهم ثم قال مبتسمًا :

- ليس هناك شيء غير العقل له أن يَفْهَمَ الحياة .

في ذلك اليوم حدثهم عما هو صائب في حياة الناس في القرية ، وعما هو خاطئ ، تحدث إليهم بجرأة حينما وجدهم ينصتون باهتمام .

في المساء دخل الشموسي إلى غرفة جاد الله ، وجلس بطرف السرير فوجده يقرأ ، فألقى جاد الله الكتاب من يده ، وأبدى احترامًا كبيرًا له ، وتخوفًا من صمته ؛ إذ أدرك أن في فم أبيه بعض الكلام ، نظر إليه الشموسي :

- إلى متى ستبقى على هذه الحال يا ولد؟ لا بد أن نزوجك .

لم يمانع جاد الله ، كان ينتظر أي طلب لينفذه لأبيه ؛ لعله ينسى ما سببه له من حزن . بنى الشموسي له غرفتين ، وتزوج جاد الله من مريم الشموسي ، إحدى قريباته ، رغم أن تاماركا لم تتوان عن زيارته في المنام ، حتى وهو يقرأ يراها تتأرجح بين السطور ، وتمد له لسانها ممازحة كما كانت تفعل في شقتهما في موسكو .

***

ليلة زواجه جلست مريم على حافة السرير خائفة تنظر إلى الأسفل تفرك يديها ببعضهما البعض وأنفاسها تتوالى مضطربة ، وقف جاد الله أمامها يفكر بما يمكن أن يقوله لامرأة لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه قريبها ، جلس بقربها وأمسك بيدها :

- أدرك أنك تنتظرين مني أن أضربك كما يفعل الرجال في هذه القرية ، وأعرف أنك خائفة مما سمعتيه من وحشية البعض في فضّ بكارة المرأة ، لكني لست مثلهم ، هل تتوقعين أن أقبل بأن يؤذيني أحد ما؟ بالطبع لا ؛ لهذا عليك أن تفهمي ألاّ فرق بيني وبينك .

نظرت مريم إليه مستنكرة ، وقالت بصوت خفيض وخجول :

- لا ، نحن لسنا واحدًا ، أنا امرأة وأنت رجل .

- مع الأيام ستفهمين ما أقصده ، بدلي ملابسك وتعالي لنتحدث .

نهضت مريم وبدلت ملابسها على استحياء وجاد الله ينظر جانبًا ، في تلك الليلة حدثها عن النساء في موسكو . كانت تنصت له من غير حتى أن ترمش عيناها ، لم يقل ما يجب أن تكون عليه بل ترك لها أن ترى صورة أخرى لا تعلم عنها ، عند طلوع الفجر أخبرها أنه لن يفض بكارتها حتى تتخلص من خوفها ، لكن ما إن استلقيا في السرير حتى اقتربت منه وعانقته فراحا في لذة لا تعرف شيئًا عنها وهو يطرد تماركا من مخيلته .

مع الأيام تصالح جاد الله مع فكرة رحيل تاماركا ، وراح ينظر إلى ما كان جميلاً بينهما ، فيستثمره ؛ لينمو احترامه لمريم أكثر من ذي قبل ، لكنه لم يستطع أن يتخلص من نوبات الكآبة التي ما إن تهاجمه حتى ينعزل ، أو يغادر البيت . طالما فكر أن يشكو لأحد مما يحس به ،

لكنه كتم ما يداهمه من مشاعر غريبة توجعه وتدفعه إلى العزلة . لم تذهب مريم إلى المدرسة في طفولتها ، لكنه حدثها عما قرأ من كتب ، وروايات وقصص . كانت مستمعة جيدة لما يروي ، فتحفظ كل ما قاله ، ثم ترويه لجاراتها وتزيد على ما سمعته منه ، فتخبرهن بأنه يعكف على الكتابة ، والقراءة طوال الليل ، وأنه من أولئك الذين لا يرون فرقًا بين الرجل والمرأة ، وأن بعض الناس يفهمون دينهم بشكل خاطئ ، قالت لهن : (حتى إنه قال لي ذات مرة إن أردتِ أن تسيري في الشارع بلا غطاء رأس فهذا شيء يسعدني) . في اليوم التالي سمعت مريم بعض النسوة يتحدثن بسوء عن جاد الله ، قالت له وهو يجلس إلى طاولته ويقرأ :

- النساء يقلن إنك (شوعي) .

فأدرك أنها تقصد (شيوعي) . أنصت لها متفاجئًا :

- يقلن إنك صرت كافرًا على غرار الذين أمضيت معهم تلك السنين ، فهم لا يعترفون بالله ، وأنهم حتى ينامون مع شقيقاتهم .

أنهى جاد الله الحديث ، وجلس قبالة البيت يدخن ، وينظر إلى القرية التي تنام على صمت ، وعتمة . بقي ليلتها يفكر بأسباب ما حدث إلى أن قرر الامتناع عن قول أي شيء لمريم ، واكتفى بأن يحدثها في أمور عادية فقط . أنجبت مريم ولدًا أسماه جده إبراهيم ، ثم بعد عام جاء عاهد . تبدلت القرية ؛ إذ وصلتها الكهرباء ، وشقت فيها الشوارع ، وبني فيها مسجد ، وتبدلت صورة الحكيم جاد الله ، فما عاد ذلك الذي يلجؤون إليه ، ويثقون برأيه ؛ بل صار بعض ممن أطلقوا الحاهم يتجنبونه في المناسبات ، ويتهامسون هم وآخرون بشأنه . لاحظت عائلة جاد الله أنه بات يمضي كثيرًا من وقته خارج المنزل ، لكنهم لم يكونوا

على علم بما يشغله ؛ فقد كان يلتقي كثيرا برفاقه ، يخرج متخفيًا حيث ازدادت الاعتقالات في السنة التي زار فيها أنور السادات إسرائيل . انخرط جاد الله بصفوف المتظاهرين ، وأخذ يمضي ساعات الليل بكتابة وتحرير مواد لصحيفة الحزب . كان غاضبًا مما حدث ، إذ ازدادت حالته النفسية سوءاً وبدا كمهزوم أمام من يراه ، خرج ذات ليلة يحمل بيانًا ليسلمه إلى أحد رفاقه فيوزّع في مادبا في الليلة نفسها . اعتاد جاد الله أن يسلك طرقًا مختلفة لكن ليلتها لم يكن حذرًا كما ينبغي ، ألقي القبض عليه في زقاق يؤدي إلى بيت صديقه ، فقد تعرف عليه أحد رجال الأمن . حاول أن يهرب حينما رأى رجال الدورية يقتربون منه لكن ضربة على رأسه وجهها له أحدهم جعلته يسقط مغمى عليه . في طريقهم إلى المخفر أوسعوه ضربًا ذكّره بالضرب الذي تلقاه في موسكو . لم تمضِ سوى دقائق حتى جاء رجل وأخذ يستجوب جاد الله ؛ ليعرف عمن معه ، لكنه لم يقل شيئًا . بدا صلبًا غير مبال فأخذه الجنود وأمروه بخلع حذائه ، وراحوا يتناوبون على ضربه إلى أنْ سالت الدماء من قدميه . جاء ضابط آخر وراح يستوجبه من جديد لكنهم لم يجنوا أي فائدة . في تلك الليلة تلقى كثيرًا من الضرب والشتائم إلى أن اعتقدوا أنه شارف على الموت ، فألقوه في الزنزانة يئن ويهلوس مرة بالروسية وأخرى بالعربية .

في الصباح وضعوه في القسم الخلفي المظلم لعربة عسكرية ، قدّر أنهم نقلوه إلى عمان وأدرك ما يواجهه . ما إن وصل حتى اقتاده رجلان وبقيا يضربانه ثم ألقياه في زنزانة مظلمة . بدت له العتمة أكثر وجعًا مما خلفته الركلات ، والعصي التي ضربه بها الرجلان . تلبسته مشاعر سوداوية ، وتنازعه شعور بضرورة أن يصمد إلى جانب شعور آخر

غامض يتخلله الخوف . بعد ساعات اقتادوه إلى مكتب فيه محقق مبتسم نهض من كرسيّه وصافح جاد الله :

- يا رجل ما لك وهذه الأنشطة المشبوهة ، أنت ابن عائلة محترمة .

أشار المحقق إلى كرسي فجلس جاد الله . ما هي إلا ثوان حتى دخل أحدهم ووضع فنجان قهوة أمامه . تفرس المحقق بوجهه :

- اشرب قهوتك أستاذ .

صمت قليلاً ثم قال بلطف مبالغ فيه :

- أستاذ جاد الله لديك عائلة من المستحسن أن تلتفت لها ، ولديك عمل لو ركزت فيه سيصبح لك شأن ، كل ما عليك هو أن تستنكر لتعود إلى بيتك .

لم يقل جاد الله شيئًا ، حتى إنه لم ينظر بوجه المحقق الذي عاود طرح عرضه مرة أخرى بنزق خفي :

- أستاذ جاد الله ما رأيك؟

- بماذا؟

- باستنكارك .

- لا .

في ذلك اليوم استخدم المحقق كثيرًا من أساليب الترهيب والترغيب لكنها لم تجد نفعًا مع جاد الله ؛ فأعادوه إلى الزنزانة وأوسعوه ضربًا ، وبعد أسبوع حاولوا معه من جديد لكنه بقي عند موقفه ، فحُول إلى المحكمة العسكرية وحكم ثلاث سنوات . نقلوه إلى سجن المحطة وأودعوه في زنزانة بقي فيها حتى الحادية عشرة ليلاً ، ثم أخرجوه إلى باب السجن حيث الجنود المدججون بالسلاح ، وحيث شاحنات رأى

عددًا من رفاقه يصعدون فيها ، فتبعهم وأحد الجنود يأمره بالصعود ، بينما قدماه متورمتان فنقل إلى معتقل الجفر الصحراوي .

كانت تلك المرة الثانية التي يعتقل فيها جاد الله ، حتى إنه لم يُطلب للتحقيق من قبل ، وصلت الشاحنة عند الرابعة صباحًا ، أمرهم الجنود ، بعد أن خرجوا إلى باحة واسعة ، أن يجلسوا القرفصاء ، اللحظة التي كان يفكر فيها بأهله وبزوجته وابنيه الصغيرين . تذكر مرة أخرى اليوم الذي ألقت فيه المخابرات السوفييتية القبض عليه ، تذكر أشياء كثيرة في حياته . لم يكن خائفًا إنما كان مكتئبًا . أمضى سنين عمله الحزبي متخفيًا ومحافظًا على أن يبقى في الظل ، وظل حذرًا من أي تصرف يمكن أن يدل عليه ، لكنه لا يعرف كيف افتضح أمره ، لم يندمج مع المعتقلين الذين عرف بعضهم ، بل ظل منزويًا لا يشارك لا في الأحاديث ، ولا في أي نشاط يقومون به . شعر بضعف مباغت منذ أن وطأت قدماه أرض المعتقل ، ضعف لا يعرف أسبابه رغم حماسته التي بقي عليها قبل اعتقاله ، كان بحاجة دائمة للصمت والعزلة . كل ما كان يفعله هو قراءة ما توفر من كتب . حاول بعض المعتقلين أن يخرجوه مما هو فيه لكنهم لم ينجحوا بذلك . عام ١٩٨٠ استدعوه هو وبعض المعتقلين إلى عمان ، أدخلوه مكتبًا يجلس فيه رجلان : واحد أجنبي والثاني أردني أخذ يترجم ما يقوله الآخر :

– لا تعتقد أن صمتك الطويل يمكن أن يخفي أهميتك في الحزب .

نظر جاد الله إلى الرجل الأجنبي ولم يقل شيئًا :

– نعرف خطورة أفكارك وطبيعة الدور الذي تقوم به .

نهض الأجنبي ومشى في الغرفة الواسعة وصوت نقرات حذائه

تأتي كأنها إيقاع تهديد مسبق ، اقترب من جاد الله ثم تحدث بالإنجليزية ، بينما المترجم ينقل ما يقول :

- كنتَ تتحدث مع المتدينين بلغتهم التي يفهمونها ، ومع البدو بما يمكن أن تحولهم إلى شيوعيين ، ومع النساء بالمفردات التي تناسبهن . نعلم ما الذي كنت تنويه من وراء ما حدّثت به الطلبة ، وكل من تلتقيهم . اعتقدت أنك متخفٍ ، لكنك مكشوف لنا منذ زمن . حتى التقارير والتحقيقات التي كانت تنشر في صحيفتكم كنا نعرف أنك خلف عدد كبير منها ، لغة الفليسوف واضحة في ما تقول ، والخطورة في دورك هذا أكبر من خطورة الذين كانوا يعملون باندفاع .

مشى الرجل نحو منتصف الغرفة ثم قال بلهجة لينة :

- يمكنك أن تغادر هذا المكتب إلى بيتك ، وتعود إلى عملك وستتبوأ فيه مناصب مهمة .

عاد الرجل يجلس إلى الطاولة :

- هذا مقابل استنكارك والإدلاء ببعض المعلومات .

في ذلك اليوم تلقى جاد الله العديد من التهديدات ، والوعود بمستقبل أفضل ، بقي صامتًا إلى أن أعلن تخليه عن الحزب وأفشى ببعض الأسرار ، وغادر كما وعدوه يحتله الخذلان وجرح جديد أضيف إلى ما مُنِيَ به سابقًا .

٢

إبراهيم
(ما قبل المكيدة)

استفقتُ باكرًا ، فتشت خانة الرسائل في الفيس بوك فلم أجد رسائل من ناردا ، اتصلتُ بها في الأيام الفائتة لأكثر من مرة ، لكنها لم تجب . وجدت رسالة من الدكتور يوسف :

- إياد نبيل بات يغدقني بكوابيسه ، هل تتذكر يوم أتيتني تريد أن أعاونك على ارتكاب جريمة قتل؟ الآن أكتب لك لعلك تعينني على التخلص من كوابيس أبي ، أصبحتْ حياتي تمشي نحو الهاوية بسرعة عبثية ، حتى أمي إيملي لا أستطيع لقاءها وهي تعيش تلك الحالة المزرية ، إذ إنها ستذكرني به ، تجلس صامتة وتتأمل الصفحات البيضاء من كتابه الأسود .

ترى ماذا كتبت للدكتور يوسف ، حتى يبدو الحديث على هذه الشاكلة؟ تناولت إفطاري من دون شهية ، ورحت أتابع التلفاز ، وجدت برنامجًا تبثه محطة فضائية يحكي عن أكثر المواضيع تداولاً في الفيس بوك ، أخذ مقدم البرنامج يتحدث عن اللص المقنع ، وأورد كثيرًا مما قاله المستخدمون حوله ؛ إذ رسم الناس لي صورة مغايرة ، هذا ليس أنا . قلت ذلك ، وقذفت شاشة التلفاز بفنجان القهوة ، ثم نهضت أدور حول نفسي ، وأردد : (هذا ليس أنا) . تضخمت بطني ، فأتى الصوت غاضبًا وزاجرًا :

- بل هذا أنت .

- لا ، لست أنا .

بدا لي كأب يشرح أمرًا لابنه :

- الناس يرسمون صورة لما يتمنونه .

وقفت أمام المرآة ووجهي فيها ممتلئ بالأسى :

- كيف يتمنى الناس لصًا؟

اعترى الصوتَ شيءٌ من الهدوء :

-يرى العطشان في الصحراء السراب ماءً ، وأنت تعرف أن الناس عطاشى .

- يكفي . يكفي . لن أرتكب أية سرقة بعد هذه اللحظة .

اعتراني ألم شديد في بطني ، ركضت مرعوبًا في الشقة من غرفة إلى غرفة ، وصوت دوي يصم أذني فسقطت لاهثًا ، وصوته يستقر بأذني مهددًا بوتيرة مرعبة :

- أمام تعنتك هذا سأفعل ما حدثتك عنه .

اشتد الألم في بطني ، وازداد انتفاخها ، فصرخت مصابًا بالهلع :

- حسنًا ، فلتكن السرقة الأخيرة .

لا أدري هل أغمى علي ، أم أنني إثر تلك اللحظات القاسية نمت بلا وعي على الأرض؟ استفقت عند الظهيرة وإذا ببطني على طبيعتها ، ولا صوت يرافقني . دخلت الحمام ، وأمطرت جسدي بالماء وخرجت ، ثم استلقيت أحدق بالسقف أفكر بناردا . احتجتها لتوقف بندولاً كان يهتز في رأسي ، لكنها ما عادت تجيب عن رسائلي ولا محاولاتي الاتصال بها . لقد ابتعدتْ لسبب غامض كأنها سراب أغراني بملاحقته كل تلك المسافة وتركني صريعًا للوهم . هل يمكن

لقلب مهشم أن يحب؟ ربما وجدت بي مهربًا من ذاكرتها ، ودواء لأوجاعها الكثيرة ، أشرعتُ دفترها أكمل ما تبقى من صفحاته :

(قبل أن أصل مكتب الطبيب ، تفحصت وجهي في المرآة فأزلت آثار البكاء ، قرعت الباب ودخلت بعد أن تنفست عميقًا ؛ أسعى للخلاص من إحساسي بالفوضى ، تأملني الطبيب وأنا أجلس حزينة رغم ابتسامتي المصطنعة ، ونظر في ملف أمامه أقفله ثم قاطع يديه على صدره :

- تعمدت أن أنصت إليك في الجلسة السابقة ولا أقول شيئًا .

أوحيت له بأني متماسكة بخلاف ما طفق في صدري من اضطراب مفاجئ ، وهززت رأسي مدركة أني لن أقوى على النطق ؛ لارتباكي . ترك كرسيه وجلس أمامي :

- أنت مصابة بالاكتئاب .

داهمني سكون غريب ، وكأنه أخبرني بأني مصابة بانفلونزا سأشفى منها بعد أيام قليلة ، استغرب هدوئي وقد رآني كمن يسهو بشيء لا قيمة له :

- عليك أن تتعاوني معي لتتجاوزي هذا المرض .

قلت بصوت من يدخل بيتًا ويتفقد كم تبقى من الأثاث فيه :

- سأحاول؟

عاد الطبيب إلى طاولته وتفحص ملفًا ، وكتب في ورقة منفصلة :

- عليك أن تلتزمي بالدواء .

شرب شيئًا من الماء ، ثم سألني باهتمام :

- أعرف أن عائلتك قد ارتحلت ، لكني أريد مقابلة صديقة أو صديق لك .

- لا أصدقاء لي .

قلت ذلك وخرجت بخطوات هادئة ، بينما جدران الممر الطويل للمستشفى تتلقف صدى نقرات حذائي إلى أن خرجت . في الطريق كنت ساهمة عبر نافذة السيارة لا أفكر بشيء ، أنظر إلى وجوه المارة الذين يمشون على رصيف الشارع المحاذي للبناية حيث تقع عيادة الطبيب ، وفي كل وجه أمارة لا تشبه الأخرى : وجوه هادئة ، وجوه حزينة ، وجوه فرحة ، وجوه محايدة . لم أكن أسمع شيئًا رغم ضجيج السيارات وهي تعبر الشارع بسرعات متفاوتة ، كأن كل ما أراه قد تحول إلى مشهد صامت . ثمة امرأة كانت تدفع عربة تجلس بها طفلة تراقب المارة بدهشة تتخللها ضحكة صامتة نمت في وجه أبيض مستدير ، وعينين واسعتين تبرقان بملامح الطفولة . أرخيت رأسي على الكرسي أراقب الطفلة ، وكأني أتلصص على شيء لا يباح النظر إليه . رأيتني ، وسمعت من ذاكرتي كركرات تجيء من زمن الطفولة البعيد الذي تفصلني عنه سنين كثيرة لم أحظ فيها بقدر كاف من سعادة كان عليها أن تدوم ، وتتحول إلى ذكرى جميلة . بقيت أراقب الطفلة كيف تلَوح بيدها للمارة ، إلى أن غابت في منحنى الشارع ، تركت السيارة ومكثت دقائقَ أحدق بباب بيتي كيف سيفضي بي إلى زمن جديد ، صعدت الدرج بهدوء ، ودخلت ، ثم مضيت إلى غرفتي بعد أن مررت بقربه وهو شارد الذهن كعادته . استلقيت في سريري أراقب السقف بعينين هادئتين ، فكرت بحقيقة مرضي ، كيف أصبت به ، ومتى كانت البداية ، وقفت قبالة المرآة العريضة وخلعت ملابسي ، لامست جسدي أفتش عن بقايا كدمات سببها لي رجل ما زلت أحبه رغم ما جناه علي . ارتديت بيجامتي ، وأقفلت باب الغرفة ، وغرقت في النوم . ثمت

اثنتي عشرة ساعة متواصلة ، استفقت بعدها على قرعاته المتتالية على الباب ، لم أستجب لزعيقه وسؤاله عن سر نومي الطويل ، خرجت وأعددت كوبًا من القهوة ، وجلست قبالة التلفاز الذي كان يبث أغنية تلتف فيها نساء راقصات حول شاب يغني عن الحياة . نهض من كرسيه ، وجلس بقربي ورائحة السجائر تفوح منه . بدا متلكئًا في ما سوف يقوله ، لامس شعري بيديه المرتعشتين ، فجفلت كأن بداية لتيار كهربائي سرى بجسدي ، ابتعد قليلاً عني ، وفي وجهه علامات الاستغراب :

– ما بك؟

قال ذلك ثم عاد يجلس بقربي ، وأنفاسه تتصاعد كأنه عاد للتو من مسير في طريق مرتفعة ، لم أجبه ، بل رحت أراقب التلفاز . نهض عائدًا إلى كرسيه فجلس صامتًا ، قلت وعيناي تنظران في الفراغ :

– لي عندك طلب .

التفت باهتمام من يريد أن يعتذر عن أخطائه :

– اطلبي ما تشائين .

– طلقني .

صمت يستعيد الكلمة التي سمعها للتو ، ثم غاب دقائقَ في الداخل وعاد يحمل حقيبة ، قال وهو يجاهد أن يحافظ على ابتسامة افتعلها :

– أنتِ طالق .

عند الباب التفت نحوي ، وقد تلاشت ابتسامته وحل محلها أسى لم أرَ مثله ، وغادر . كنت سألحق به وأثنيه عن غياب ارتكبه بطلب مني ، لكن صوتيْن بي كانا يتنازعان إرادتي ، فثمة مراحل في

الحياة عليها أن تنتهي لنحتفظ بالجهة المشرقة من الصورة ، أمر متعلق بحق الذاكرة ببهجة تقاتل الأسى الذي مُنينا به . أخذتني خطوتي تلك إلى درب اعتقدت أن من الصعب العودة منها ، فالاكتئاب استبد بي وبات ينهش كل محاولاتي للعيش بعيدًا عن رجل أخذت أراه في كل جهة أنظر إليها ، حزينًا يمشي في يوم ماطر ، مشهد آذاني كثيرًا ، وتيقنت من عجزي عن الخلاص منه في ظل وحدة قاسية تؤدي إلى شعور مفرط بالهزيمة ، إذ إن أقسى مراحل المرض هي تلك التي تأتي وأنت وحيد تترنح ولا تجد من يسندك . وصف لي طبيبي مزيدًا من عقاقير كانت تخدرني وتحيلني إلى بدن لا طاقة فيه . مثلما انقطعت عن دراستي الجامعية انقطعت عن عملي ، وبت على مقربة من خسارته فاقدة لأي قدرة على الإفصاح عما أعاني منه ، فزيارة واحدة للطبيب النفسي تعني لدى الكثير أني جننت ، حينها ستزداد المسافة بيني وبينهم فتتفاقم حالتي أكثر . في أول يوم عمل لي بعد إجازة طويلة رأى مدير التحرير في وجهي ما حاولت إخفاءه ، طلب مني أن ألحق به إلى مكتبه ، ثم حين دخلت أغلق الباب وجلس قبالتي مبتسمًا يستدرجني للبوح :

– ما بك؟

– لا شيء ، قليل من التعب وسيزول .

– بل إني أرى الكثير منه .

صمت أمام سكوتي وعدم رغبتي في أن أخبره بأي شيء ، ثم قال وعيناه تروحان يمينًا وشمالاً كأنه أدرك ما بي :

– أنتِ في إجازة لأسبوعين ، أتمنى أن تعودي بعدها كما عهدتك .

ربما لمس مدير التحرير ما فعل بي الحزن منذ أن تركت المطعم وعملت في الصحيفة ، كأني أضع المقدمات الأولى للنجاة من حب رجل يهدي إلي وردة بيد وجمرة بيد أخرى . غادرت في ذلك اليوم ومدير التحرير يلوح لي بيده . لم أكن أدري كيف سأهرب من أساي ومن مخالب الاكتئاب في مدينة تحولتُ فيها إلى امرأة قصيرة النفس ، أبدل أمكنتي ، ومقتنياتي ، ومعارفي ، إلا رجلاً عصيًا على أن أستبدله بأي شيء ، لم أعد إلى بيتي ، بل اقتادتني قدماي إلى جبل الجوفة أفتش عن الصورة التي كنت عليها وأريدها أن تنقذني من كآبتي ، وأبحث عن رجل حينما روى لي أنه يقطن الحي ذاته الذي ولدت فيه ، صرخت مندهشة أمام سنين لم أعرفه فيها ، وكيف لم أقابله حتى من باب الصدفة؟ قلت للسيدة التي تستأجر بيت عائلتي : إن الحنين اقتادني إلى هذا البيت ، ثم بكيت إلى درجة جعلت المرأة تجهش بالبكاء وتعانقني غير مدركة ما الذي يداريه كل ذلك الحنين ، فالأحزان أوراق في قلوب الناس بحاجة إلى نسمة أسى خفيفة ؛ لتقلبها من جديد . أمر فهمته عندما ذهبت قديمًا بمعية أمي إلى مأتم رأيت فيه النساء يبكين وينحن بلا توقف ، في طريق العودة إلى البيت أخبرتني أمي عن جروح نساء كثيرات كن هناك ، منهن من فقدت ابنًا ، ومنهن من فقدت زوجًا ، ومنهن من فقدت وطنًا .

أفسحت لي السيدة يومها مجالاً ؛ لأتجول بمفردي في البيت أستعيد سنين مضت ، ومن دون قدرة على أن أتوقف عن البكاء ، خاصة في الغرفة التي شهدت كل ما تهشم من أحلام قبالة حياة اعتقدت أنها سهلة ، على نحو يمكن أن تستجيب لكل ما أريد . لا أدري لماذا سألت السيدة يومها عن أخبار الحي ، ربما كانت استكمالاً

لمحاولتي استعادة حياتي الأولى رغم ما فيها من ألم ، وليتني لم أسأل ، إذ أخذت تسرد لي أخبار الحي من مات ، ومن ولد ، ومن تزوج ، ومن رحل ، ومن سجن إلى أن وجدتها تروي لي عن الرجل الذي كبدني حبه الكثير ، تروي كأنها تخبرني عن حكاية عثرت عليها في كتاب ، إلى أن قالت :

- وأنهى حياته منتحرًا في بيته .

غادرت بمجرد أن سمعتها تقول ذلك ، فتحت الباب ثم انطلقت نحو الشارع أركض ، وإحساس بالذنب وبالفجيعة يتبعانني ويدفعانني إلى بيته ، إذ كان وصفه ما يزال في ذاكرتي كما أودعته هو وأشياء كثيرة غير قابلة للنسيان . قرعت الباب بغضب كأني أنتظره أن يخرج إلي من الداخل ؛ لأثنيه عما فعل . استغرب شاب فتح لي الباب صراخي ، وأصيب بالذهول عندما دفعته أنوي الدخول إلى البيت لولا أن أغمي علي وصحوت ، وإذا بقربي امرأة منقبة تقطن في البناية المقابلة أخبرتني أن الشاب استعان بها ؛ لأنه وحده في البيت . اعتذرت المرأة للشاب واقتادتني ؛ لأغادر ، سألتها عما حدث ، في البدء أنكرت معرفتها بالحادثة ، ثم حين هممت بالمضي في طريقي قالت إنها سمعت بما جرى ، صوبت إلي نظرات غريبة ثم سألتني عن علاقتي بذلك الرجل لكنني ما قلت شيئًا . مضت إلى بيتها ووقفتُ في الشرفة تراقبني والشارع يبتلعني مثلما ابتلعني الحزن إلى غير عودة . لم أستطع أن أمكث في البيت أكثر من دقائق معدودة ؛ إذ كان صوته يحاصرني من كل الجهات ، ويحتلني شعور قاتل بالذنب وبالفقد ، هل قتلته بلا وعي؟ ليتني وقفت بينه وبين أحزانه أكثر مما فعلت . خسرت كل طاقتي التي كانت تعينني على أن أبقى وحيدة ، لهذا كتبت رسالة لصديقة

تقيم مع زوجها في العقبة وأخبرتها بأنني قادمة إليها .

***

الطريق إلى العقبة طويلة كحبال الحزن ، والرمال صفراء كالأسى ، والأغنيات التي تبثها مسجلة الباص تعيدني إلى البكاء كلما هممت بالخروج منه . أينما يممت وجهي أراه مرة بين ركاب الحافلة ، وأخرى بجانبي ، حتى إن نظرت عبر النافذة أجده يمضي في الطريق ذاتها التي أخذت تداهمني منذ أن رحل إلى غير عودة . أغمضتُ عيني ويد كونية تضغط على صدري وتحجب عني الهواء ، والمشهد ذاته يقتحمني كأنه يدعوني إلى الانضمام إليه عبر بوابة واحدة لا غير ، بوابة الموت . قبل أن أصل العقبة اتصلت بي صديقتي ، لم يكن صوتها مرتاحًا ، إذ شعرت أن هناك أمرًا يزعجها ربما يكون متعلقًا بزوجها الذي كثرت خلافاتها معه مؤخرًا . أخبرتني أنها بانتظاري فكتبت لها أعلمها أني حجزت غرفة في فندق وسأتصل بها ، لكني لم أهاتفها فكيف لُمتعب أن يتكئ على جدار ما يزال صامدًا بعد أن أنهكته الزلازل . مضت علي الليلة الأولى حبيسة الجدران في الفندق ، يعتريني قلق وخوف ومشاعر غامضة ما عادت العقاقير تفعل شيئًا إزاءها ، فألقيت في فتحة التواليت . كل شيء كان أسود قبالتي حتى الضوء ، يحتلني شعور باللاجدوى ، وعجز عن طرد صورة ذلك الرجل وصوته من ذاكرتي وهو ينتحر حزنًا واحتجاجًا . بقيت في سريري مستفيقة حتى الصباح وقد قررت أن أضع حدًا لحياتي بالموت .

***

ألقيت الدفتر جانبًا وجلست قبالة الحاسوب ، أنظر في صفحة الرجل الذي نشر معلومات وصورًا وجدتها يمكن أن تقودني إلى هدفي

الجديد . كان الصوت يدلني إلى التفاصيل ببراعة متناهية ، وكلما وجدني أفكر فيما أفعله يهمس بأذني ، ويدفعني إلى المضي بفعلتي الغريبة . تأملت كل التفاصيل ؛ كم شخصًا يقطن في البيت؟ متى يخرجون منه؟ ومتى يعودون؟ وكيف هي أقسامه الداخلية؟ عرفت مداخله ، وعنوانه ، ونوع الأبواب ، وعرفت من غوغل الطريقة التي تمكنني من اختراقها ، جمعت عددًا لا بأس به من المعلومات ، ثم وضعت رسمًا سددت فيه الفجوات التي لم أعثر على معلومات بشأنها ، واخترت ليلة أنفذ فيها آخر سرقاتي . أقفلت الحاسوب ، وجلست صامتًا أطرد مني إحساسًا كبيرًا بالتعب . جاءني الصوت ضاحكًا :

– هذه المرة عليك أن تتقمص شخصية أحمد عبد الجواد بطل ثلاثية محفوظ .

راقتني شخصية أحمد عبد الجواد رغم ازدواجيتها المقيتة ؛ رجل تقي وحازم في بيته ، ومنصاع إلى الرغبة في عوالمه السرية ، رآني أبي ذات يوم أرتدي جلبابًا وطاقية على رأسي وأتصرف في البيت على غرار سي السيد ، غضب حينها وقال يخفض من صوته ؛ لئلا يسمعه أحد : (إن تمدد هذا النمط من الرجال سيصبح شوكة في حلق الحرية ، ستبقى النساء أسيرات قمعه ، وبالتالي ليس هناك إلا مزيد من الظلمة) . حثني يومها على التخلي عن التقمص ، حتى إنه طلب على استحياء أن أقلع عن قراءة الروايات . كنت سأسأله : (هل يملأه الخوف مثلك ؛ الخوف من أن يكون ما يريد؟) كان يمكنني قول ذلك لكني لو فعلتها حتمًا ستزداد أعراض الاكتئاب لديه ، فصمتُّ .

كانت شمس العصاري ما تزال ممددة على بنايات وسط البلد ،

وتلقي بظلالها على أجساد المارة حين فرغت من الحصول على ملابس تشبه ملابس أحمد عبد الجواد . في ذلك اليوم تأنّقت كثيرًا ، لعلي أضفي على مزاجي شيئًا من التوازن ؛ مطلب أخذني إلى المقهى الذي التقيت فيه ناردا ، طلبت فنجان قهوة ، وجلست قريبًا من النافذة أنظر إلى المتجر الذي احتل مكان كشك الوراق ، اكتشفت أني عبر تلك السنين لم أنظر حولي كثيرًا ، لم أرَ الناس ، والحال جيدًا ، لم أرَ مكانًا مثل هذا ، وجدته كصورة مصغرة عن الحياة ، بل كنت أحدق بالكتب كأني أمارس شكلاً صامتًا من أشكال الهروب نحو سنين حولتني إلى لوحة نصفها أبيض ، والآخر أسود .

كتبت لناردا :

- يبدو أن الذي يحدث لي معك شبيه بعبارة في أولها قوس ، وآخرها مفتوح . مع هذا لن أضع لا فاصلة ، ولا حتى نقطة ؛ سأترك العبارة بلا أي علامة ترقيم .

ظهر لي أنها قرأت الرسالة ، ثم كتبت :

-لم أنم منذ ذلك اليوم .

- أنا في المقهى ذاته ، وأجلس إلى الطاولة ذاتها .

- انتظرني ، أنا قادمة .

ما إن قالت لي ذلك حتى تسمرت عيناي على الشارع أنصاع لشكل لذيذ من أشكال الانتظار ، وثمة يد تمتد إلى ذاكرتي وتحذف صورًا وأصواتًا ومشاهد موجعة . كنت ما أزال أفتش عنها بين الزحام عندما عبرت بوابة المقهى ينقر حذاؤها الأرض ، كأن ضابط إيقاع يهيئني إلى رقصة استثنائية :

- كأنك تقرأ الوجوه وأنت ساهم بهذا الشكل .

- كنت أنتظرك .

في ذلك اليوم ارتدت فستانًا أرجواني اللون ، ونشرت شعرها . كانت جميلة : عنق طويلة صافية يطوقها عقد فيه الحرف الأول من اسمها ، وعينان اشتد فيهما سواد البؤبؤ قبالة البياض ، بدت مبتهجة ، وغادر وجهها ذلك الحزن الذي أوقعني بحبها .

- حتى أنا لم أنم كما ينبغي .

قلت ذلك ثم نظرت إلى الشارع ، وعدت أراقب عينيها كيف تتسعان ثم تضيقان :

-أحبكِ .

عضت على شفتيها ، ثم أطلقت تنهيدة طويلة وأخذت تكابد رغبة بالبكاء :

- سأبوح لك بشيء أعرف أنه يؤلمني أكثر مما سيؤلمك .

أمسكتُ بيدها ، وأغمضت عيني ، ولثمتها ، وفي البال تفر عصافير ، وتصدح موسيقى . رأيت دمعتيْن تسحان على وجهها . قالت :

- طريقك إلي مغلقة .

- سأحفرها بيدي .

قلت ذلك وحركت الكرسي نحوها ، صارت المسافة بين وجهينا أقرب ما تكون إلى قبلة مفاجئة ، نظرتْ إلى السقف ، ثم طوحت بصرها فوق زحام عمان ، وفي حلقها كلمة عالقة كانت تحاول قولها .

٣

ليلى
(مآلات متشابهة)

منذ أن عادت السيدة إيميلي إلى صمتها وأنا أجلس بقربها أحدق مثلها بشجرة الصفصاف منتظرة أن تحكي من جديد ، ومقطوعة الدانوب الأزرق تزيد بمزاجي الحزين . أريد من يتحدث إلي ، ومن ينظر إلي مبرهنًا لي أنه يسمعني . أعددت طعام العشاء فأكلت من غير شهية ، وعاونت السيدة على تناول طعامها ، ودوائها ، ثم تجولت في كل أرجاء البيت ، بيت واسع لكن له صمتًا يشعرني كل يوم بالوحشة ، جلست على السلم أنظر إلى الباب ، والصالة العريضة ، وبكيت ، من عزلة إلى عزلة ، ومن تيه إلى تيه ، أريد أبًا ، وأمًا ، وإخوةً . أريد من ينزع عن جبيني تلك العبارة التي تشير إلى أنني بنت حرام ، عدت إلى السيدة إيميلي وجلست قبالتها :

– تكلمي أرجوك ، أو حتى انظري إليَّ .

كانت غارقة بصمتها الموجع ، فجلستُ على الأرض ، ووضعت رأسي على ركبتيها :

– ليس ذنبي أني ابنة لحظة نشوة محرمة . (يا بنت الحرام) عبارة يقولونها يوميًا ولم أستطع أن أتصالح معها ، أليسوا آباء؟ ألسن أمهات؟ كيف يصبح الإنسان وحشًا ، وحملاً وديعًا في الآن ذاته؟ كلما تذكرت كيف اغتصبتني رناد محمود أتذكر أن قلبي مشطور إلى قسمين ،

وأقاسي عذابًا شديدًا يفوق الذي ذقته حينما وجدت نفسي في الشارع بلا شيء .

رفعت رأسي عن ركبتيها ، كانت عيناها ما تزالان تحدقان بشجرة الصفصاف ، أو ربما في الفراغ . لا أدري ، ربما أنها تنظر إلى شيء لا أراه . حملتها إلى فراشها ، وعدت إلى غرفتي خائفة ، وبي كثير من الوحشة ، والألم ، والملل . شاهدت حلقة من مسلسل ، ثم تصفحت الفيس بوك . أخبار شتى عن اللص المقنع ، وأخرى عن ارتفاع الأسعار وضيق الحال الذي يلم بالكثيرين ، لم أكن أتوقع أن الحياة خارج الملجأ بهذه القسوة ، كانت الساعة تقارب الحادية عشرة مساء حينما استلقيت في السرير ، لا رغبة لي بالنوم ، لكنها وسيلة لقتل الوقت . غطت السيدة إيميلي بنومها وستصحو عند السادسة صباحًا . ليتها تستيقظ فتؤنسني ، أغمضت عيني ، حينها سمعت صوتًا لأحد يمشي في الممر ، ثم تناهى إلى مسمعي صوت باب يُفتح ، أصخت السمع لكنه تلاشى ، قلت في نفسي : ربما صمت البيت يهيء لي أمورًا غير واقعية . وضعت رأسي على الوسادة ، لكن خوفًا اعتراني ، وبت أتساءل : (ماذا لو أن رجلاً عرف بوجودي في بيت ليس فيه إلا امرأة غير قادرة على الحركة؟) ، جلست في منتصف السرير ألمّ جسدي على بعضه ، أقاسي خوفًا شديدًا ازداد عندما سمعت وقع خطوات قريبة من غرفة ابن السيدة إيميلي ، حاولت أن أهدئ من روعي ، لكن آلاف الاحتمالات كانت تفر من مخيلتي : إحداها أن السيدة قد نهضت من السرير وراحت تتحرك في البيت . كيف سيحدث هذا لسيدة عاجزة عن الحركة؟ تذكرت تلك المرأة التي استقبلتني في أول أيامي في هذا البيت ، وأنها زودتني برقم أتصل عليه في حالات مثل هذه ، اتصلت

بها ولم تجبني ، كتبت رسالة أبين فيها ما الذي يجري ، وتهيأت لأفتح باب الغرفة وأخرج ، كان علي أن أفعل ذلك ؛ خوفًا على السيدة ، أكثر مما هو خوف على نفسي . ما إن فتحت الباب وخرجت مسرعة حتى ارتطمت برجل يرتدي جلبابًا فضفاضًا وعلى وجهه قناع ، صرخت مذعورة ، لكنه تسمر في مكانه ينظر إلي ، كانت لحظة فيها كثير من الخوف الذي لا أدري كيف دفعني ؛ لأنزع عنه القناع ، وإذا بي أمام رجل لا أعرفه ثم ما هي إلا لحظات حتى أدركت أنه إبراهيم . (يا إلهي كيف يحدث هذا؟) صرختُ مذهولة من جديد ، غير مصدقة أن رجلاً مثل إبراهيم قد صار لصًا ، وتساءلت عن الملامح الأولى التي رأيت وجهه عليها ، وعن القناع ولباسه الغريب .

لم أفهم شيئًا مما كنت أراه ، لكنني تذكرت ما قرأته في الفيس بوك ، فأيقنت أني أمام اللص المقنع ، تبعته بعد أن فر هاربًا وهبط السلم ، ثم لاذ بالفرار عبر باب المطبخ . تلبسني حزن كبير ؛ فكيف يحدث هذا لرجل منحني من الأبوة ما لم يمنحه لي أحد آخر؟ كدت ألحق به لولا أن السيدة التي اتصلتُ بها كانت قد وصلت للتو . قالت وهي تصعد إلى الطابق الثاني :

- لقد أخبرت الشرطة ، لا تقلقي البيت مزود بالكاميرات .

لحقت بها وقد دخلت غرفة السيدة وأغلقتها حينما وجدتها نائمة ، ثم تفقدتْ عددًا من الغرف في الطابق الثاني للبيت ، توقفتْ في الممر تلهث ، وسألتني إن كنت قد رأيته ، فأخبرتها بهوية اللص من دون أن أكشف علاقتي به .

- إذن هذا هو اللص المقنع .

قالت المرأة وأكملت طريقها إلى الطابق السفليّ حيث توقفت

سيارة شرطة أمام باب البيت . دخلت غرفتي حزينة على ما فعلت . يبدو أن هناك خطأ ما ، إبراهيم ليس شريرًا ، ولا يمكن أن يكون لصًا ، كيف يمكن له أن يتجاوز ما في قلبه من حب شهدته تلك الليلة ويسرق؟ كيف أخبرت المرأة عنه؟ لكن الذي رأيته إبراهيم ، حينما أزلت القناع كان لوجهه ملامح لا أعرفها ، وفجأة وكأني في حلم تبدلت تلك الملامح وإذا بي أمام ذلك الذي حماني ليلة تشردي تحت الجسر . يبدو أنني ارتكبت خطأ كبيرًا ، ما كان علي أن أعترف على إبراهيم بل وجب علي أن أترك الأمر لهم ، ما الذي سيحل به بسببي وجراء ما اقترفه ، أذنبت بحق رجل دلني إلى الطريق الصحيح ، وها أنا أدلهم عليه ليسلك طريقه إلى السجن . قرع باب الغرفة وكانت تلك المرأة :

- الضابط يريد أن يستوجبك .

كان بودي أن أبقى في غرفتي ، أو أهرب ، أو أغير أقوالي لكن ما حدث حدث . وقفت قبالة الضابط غير قادرة على ضبط ارتعاش جسدي . قال :

- أخبريني ماذا رأيت؟

- رأيت رجلاً يرتدي جلبابًا يبدو لي مصريًا ، يضع عمامة على رأسه ، وقناعًا على وجهه . لا أدري كيف تجرأت وأزلت القناع كانت لحظة خوف قصوى .

قال الضابط حين رآني قد صمت :

- أكملي .

- الغريب يا سيدي أنني حينما أزلت القناع وجدت أن لوجهه ملامح غير التي تبدل إليها بسرعة .

قال الضابط مستغربًا :

- كيف؟

- في البدء لم أعرف الرجل ولكن فجأة عرفته .

- من هو؟

- إبراهيم الوراق .

٤

إبراهيم
(حقيقة صادمة)

استحال الليل إلى عباءة ممزقة غير قادرة على أن تداريني مما فعلت، فاستباحني الخوف وغزاني الندم، أي صدفة هذه التي أتت بي وجهًا لوجه مع ليلى، فخسرت صورة علَّقتها لي في جدار قلبها فمنحتها سعادة كبيرة. سلكت شارعًا فرعيًا، وخلعت عني الجلباب الذي ارتديت تحته بنطالاً وقميصًا، ومضيت لا أدري إلى أين أذهب، كنت أحس بأن خلف كل نافذة من نوافذ البيوت شخصًا يراقبني ويشير نحوي، وأسمع صوتًا جماعيًا يجيء من البيوت، والشوارع، والأزقة: (اللص، اللص، اللص). ومن بينها أخذ الصوت يخفض من وقع خطواتي، ويهدئ من روعي، ويحثني على أن أمشي ببطء حتى لا ألفت الانتباه لي، ليتني كنت قادرًا على قتله لأبرئ نفسي مما حدث، ليتني ألقيت بجسدي في الماء في تلك المرة التي ذهبت فيها مدفوعًا بخوف مني وعلي.

توقفت عن المشي أقاسي تيهًا شديدًا هل أعود إلى الشقة؟ أم أهيم على رأسي في الشوارع؟ هل أذهب إلى البيت المهجور؟ أم أذهب إلى جبل الجوفة؟ تيهًا عصف بي وأفقدني توازني فما عدت إبراهيم ولا الدكتور زيفاكو ولا أحمد عبد الجواد، كنت محض شيء لا قيمة له، فقدت قدرتي على الكلام وعلى الفهم، لكن اتصال ناردا جاءني

ليقصي كل الخيارات ، رن الهاتف أكثر من مرة وأنا أنظر إلى شاشته بكل بلاهة ، تنفست عميقًا ثم ضغطت على زر الاستقبال فجاءني صوتها كأنه دوي بعيد :

- مستيقظ؟

كان في تلك الكلمة كثير من الشفقة والخوف ، وقليل من ذلك الحب الذي حلمت به .

- وأكابد بالملل .

ضحكت كمن يخفف من وجع طفل أفلتت طائرته الورقية من يده ، وقالت تستدرجني ؛ لتخرجني من حقل عشبه يابس ويحترق على غفلة مني :

- ما رأيك بفنجان قهوة في بيتي؟

أرسلت لي رابطًا لموقع بيتها ثم أنهت المكالمة وكلماتها تحوم في مسمعي ، تجاوزت الشارع الفرعي ، وما إن رأيت سيارة أجرة حتى استقلّتها وأسرعت إلى الشقة ، وبدلت ملابسي ، وحملت دفترها معي وانطلقت ، نسيت ما حدث لي ؛ بل إني طلبت من السائق أكثر من مرة أن يزيد من سرعة السيارة ، مدفوعًا بشغف للقاء امرأة أعادتني من أقرب مسافة من فم الموت ، وها هي تنقذني من تيه قاس .

كانت تنظر إلي عبر النافذة حينما تجاوزت بوابة هابطة لشقتها التي تقع في الطابق الأول من البناية ، لم يتسن ليدي أن تصل لأقرع الباب ، بل فتحَته ترحب بي مبتسمة أمام محاولتي مداراة لهفتي الكثيرة ، تشاغلت بعد أن تجاوزت الباب بالنظر إلى لوحات علقت على جدران شقتها الصغيرة ، وبتحف تناثرت في أكثر من مكان .

في طريقها إلى المطبخ صوبت نحوي نظرة تحاول قراءة ملامحي :

- سأعد القهوة .

وقفت أمام طاولة عليها حاسوب ، وعدة كتب تصفحت أحدها : كتابًا يحكي عن الدوافع النفسية عند اللصوص لارتكاب السرقات . قالت وصوتها يأتيني من الداخل :

- اشتريته لاهتمامي كصحافية باللص المقنع .

أتت تحمل صينية عليها فنجانان ، وجلست تسترق إليَّ نظرات خاطفة ، تركتُ الكتاب ، وجلست بقربها أشرب القهوة ، وأتأملها كيف تتمثل الهدوء ، ماذا لو عرفتْ أن اللص المقنع يجلس أمامها الآن؟ وأن أمره افتضح! وراق يصبح لصًا ، هذا أبسط ما يمكن أن يقال ، ستنهار كل الحكايات التي نسجت حولي ، وتغدو تلك الأسطرة التي أسبغوها على مجرد حدث شعري وانتهى ، قالت تزيل خصلة شَعر عن عينها :

- في الطفولة اقتحم لص بيتنا ، رأيته ملثمًا يتجول في البيت ، والجميع نيام ، كانت ذاكرتي تحتفظ بصورة مرعبة عن اللصوص ، أتخيل أن لهم هيئات وحشية كالتي حكت والدتي لنا عنها في الليالي الماطرة ؛ لننام . ازدادت بشاعة هذه الصورة ، وازدادت خشيتي من أن يقتحم واحد منهم بيتي بعد مضي كل تلك السنين ، لكن اللص المقنع أزال هذا الخوف ، إنه لص نبيل يسرق ؛ لأجل الآخرين . ضَحِكَتْ :

- فكرت فيه كثيرًا إلى أن رأيته في المنام .

كدت أخبرها بالحقيقة لولا أن الصوت حذرني من مغبة ما كنت مقدمًا عليه . حدثتني كثيرًا حول المقنع وأنا أتأملها ، أتأمل امرأة عرفتُ ما لم يعرفه الآخرون عنها ، فالكلمة نافذة تطل على بيوتنا الداخلية ؛ لنرى ما خبأته الحياة .

- لم أجد هدية أفضل من أن أرد دفترك إليك .

طفقت على وجهها أمارات أحاسيس متقاطعة ببعضها ، ويدي ممدودة بالدفتر نحوها ، في البدء وجدتها على مقربة من البكاء ، ومن ثم رأيتها تبتسم كأنها ما عادت تبالي بتلك الأوراق . لامستْ الدفتر ، ثم التفتت صوب لوحة في الجدار . قلت :

- قرأتكِ بتمهل .

- لماذا كنت ستنتحر؟

جاء صوتها حزينًا تخالطه بهجة مترددة . لم أستطع أن أخبرها بكامل الحقيقة ، بل وجدتني أُشهر نصف دوافعي أمامها :

- أقسى أشكال الوجع أن يكتشف الواحد منا أن حياته تشكلت على نحو لم تكن لنا يد فيه ، كنت ترابًا نقيًا من الحصى فعجنه والدي بماء الخوف ، خوف لا أدري للآن كيف تلبسه حيال كل شيء ، إلى أن وصلت مرحلة ملأت العتمة فيها روحي ، فصار الموت فرصة للذهاب نحو البياض .

غابت في الداخل ، ثم عادت تحمل دفترًا ألقته قبالتي ، وصمتت كأنها لا تعرف ما ستقول :

- هذا دفتر أبيك ، ستجد فيه الإجابة .

- دفتر أبي؟

تساءلت بسري : ما علاقة ناردا بأبي؟

- نعم دفتر أبيك .

أطلقت تنهيدة طويلة :

- الرجل الذي قرأتَ عنه في دفتري هو والدك جاد الله الشموسي ، جاد الله الوراق ، حينما التقينا على الشاطئ عرفتك ،

لكنني داريت ذلك عنك . كـان يحـمل في حـافظة نقوده صـورًا لكم أطلعني عليها ، حدثني عنكم كثيرًا خلال عام أمضاه معي ، ثم غادر بعد حفلة ألم كبيرة ، والدك كان زوجي .

كيف أحـببت امرأة أحبـها والدي؟ أي طريق سـارت بي إلى هذه البقـعة الغرائبية؟ وأي مصير جمعني بهذه المرأة التي ترقد على قـمة روحها غـمامة مشبعة بحزن قدها أبي من روحه ، وأطلقها في سمائها؟ زج بي إلى الخـوف ، وزج بها إلى الحـزن . اسـتـعـدتُ كل مـا قـرأته في دفترها ، مر في ذاكرتي مرورًا سريعًا .

- إذن عاش والدي في غرفة مهملة في أطراف جبل اللويبدة!

قالت وهي تقترب مني وفي عينيها خوف الأمهات وشفقتهن :

- سمعك ذات يوم تتحدث أثناء نومك ممتعضًا من خوف طوقك به ؛ لهذا غادر البيت متذرعًا بعمل بعيد ، أراد أن يتخلص من خوفه ، وأن يجعلك تعيش بمعزل عنه ، لقد أحس بذنب كبير نحوك .

اقتربت مني أكثر وأمسكت بيدي :

- كان يأتي ليلاً وأنت نائم يراك ثم يمضي .

نهضت ؛ لأغادر ، أردت أن أقرأ مـا كتبـه بمفردي ، فـلا بد أني لم أعرف أبي كما ينبغي ، لكنها وقفت بيني وبين الباب باكية :

- لن أسمح لك أن تغادر وأنت بكل هذا الأسى .

أعدتْ لي فراشًا في صالة الجلوس ولاذت بغرفتها ، فأخذت أقرأ ما كتبه ، أقف عند كل كلمة ، وصورته لا تفارق مخيلتي . كان يقرأ لي ما كتبـه بصوت غير معـهود ، صوت لرجل ولد في سرير من الشوك ، وآل إلى السـرير ذاته . كم كـان قـريبًا ، وطيـبًا ، وحنونًا! كـان على تلك الشـاكلة التي حلمت أن أراه عليها ، أغلقت الدفتر وقد تلبسني نحيب

مر . انتفخت بطني وجاء الصوت منفرًا أكثر مما عرفته :

- لا تنس أنه أحد جلاديك .

كنت ألوح بيدي في الهواء أبحث عنه غاضبًا حينما صرخت رافضًا ما قاله :

- لا ، نجلد ذواتنا من دون أن نعي ، ونفعل ذلك مع من نحب .

نهضت من الفراش ، وصوته قرب أذني كنحلة تطارد شخصًا عبث ببيتها :

- أنت نادم على ما فعلت .

- نعم نادم .

- كان أمامك خطوة أخيرة ، لكن دعنا نتجاوزها ، وافعل ما سيجعلك تنسى ندمك هذا .

تفاجأت بناردا تمسك بي وتهزني :

- إبراهيم ، إبراهيم .

كأني كنت في لحظة غياب عن الوعي وجدتني أتفرس بوجهها المذعور ، وجسدها يرتعش واقفة أمامي لا تفهم شيئًا مما تراه ، شفتاها تتحركان تحاول الحديث لكنها بدت عاجزة عن ذلك . اقتادتني إلى الحمام ، ووضعت رأسي تحت صنبور الماء . لم ألاحظ بكاءها الصامت إلا وهي تأخذني إلى السرير ، سألتها عن سبب بكائها فقالت بصوت مختنق :

- أرجوك كل ما عليك هو أن تهدأ .

اقتادتني إلى السرير وجلست بقربي وبقيت تمسد رأسي إلى أن نمت . كانت نومة قصيرة امتدت لنصف ساعة بينما ناردا تغط بالنوم ، يبدو أنهم يفتشون كثيرًا من الأماكن عني ، وربما أن أمري أصبح معروفًا

لكثير من الناس ، تفحصت الفيس بوك وإذا بي أجد أن العديد من المستخدمين قد عرفوا الحقيقة ، بدا أني على وشك أن أتقيأ فألقيت الهاتف على السرير وأسرعت إلى الحمام ، كانت ناردا تنظر في هاتفي حينما عدت . في تلك الليلة غادرت بيت ناردا ، كان علي أن أذهب للبيت المهجور ، فوقفتْ بيني وبين الباب ؛ لئلا أغادر :

- سيلقون القبض عليك . لقد عرفت بالأمر .

قالت ذلك ثم ابتسمت رغم ما لاح في وجهها من حزن وخوف علي ، كانت تقف بالباب حينما أسرعت من خطوتي وسلكت شارعًا فرعيًا وابتعدت عن بيتها .

***

مشيت في طريق مظلمة تحاذي شارعًا مضاء . كل شيء يتداخل ببعضه ، الناس ، العربات ، البنايات ، والأضواء . أي مصير عبثي هذا الذي منيت به؟ لا عائلة لي تكسر هذا الغصن الكئيب من شجرتي ، لا بيت يقف بابه بيني وبين ريح باردة صفيرها يبعث على الوحشة الميتة ، وحينما أحببت ، أحببت طليقة أبي . أي قدر هذا وأي مآل عجائبي؟ كأني خرقة بالية أنهكتها الشمس وبمجرد ملامستها ستتفتت .كم تبقى من العمر لأفعل خطوة صحيحة تلغي خطواتي الخاطئة؟ ثمة أياد في عمان تلتف حول عنقي ، كم واحدًا على شاكلتك يا إبراهيم يتلاشى الأكسجين من صدره شيئًا فشيئًا؟

تركت الطريق المظلمة ومشيت في الشارع غير مبال باحتمال إلقاء القبض علي .

- أنت تكسر آخر المراحل .

جاء الصوت عنيفًا وبحدة عالية ينهاني عن الخروج بين الناس :

- أنت من كسر مرحلتي التي كنت متصالحًا معها بأفكارك الشريرة .

- كنت تشتكي بصمت ، كل ما فعلته أني فجرت صمتك هذا ، وعليك أن تدمر ما تبقى منه .

خلت الشوارع إلا من بعض سيارات الأجرة ، وبعض العابرين ، واستلقى الصمت على كل شيء ، نامت المدينة كأن ضجيجها اليومي محض مشاكسة لن تعود ، فاستراح الجميع من أفعالهم التي لا تشبه وجوههم . في النهار يمكن أن نكون وحوشًا على هيئة آدمية ، وعندما يتملكنا النعاس ننحاز إلى صورة الوجه الأولى تطل من الرحم على الحياة . أهيم على رأسي بلا إحساس سوى اللاجدوى من أي شيء ، لا بوصلة تدلني على جهة ، ولا حتى على ذاكرتي التي ما عادت تعينني على شيء .

طلبت من سائق السيارة أن يقلني إلى عبدون ، وحينما استفسر عن وجهتي إلى هناك أخبرته أن يوصلني إلى الجسر ، يبدو أن ما من محطة تبقت لي سوى تلك التي ستساعدني على أن أتخلص مني . ذهبت قبل عام إلى العقبة أستنجد بالموت من الحياة في صباح طلعت لي منه امرأة جاء الأمل معها وغادر إلى غير عودة ، وها أنا أقصد جسر عبدون ، لا شيء ورائي ولا أمامي ؛ لألحق بمن امتلكوا لذة اللحظة في التنصل من هذه الحياة ، محتجين على ما يحدث فيها ولها ، الانتحار لحظة عجز قصوى لكن فيها لذة القرار الأخير .

كانت الأضواء تحيط بطرفي الجسر وقد بدت أكثر ترحيبًا من ذي قبل ، كأنها تمتثل للأرواح التي سكنتْ جنباته وأمرتها بالاحتفاء بقادم جديد ، لكن كان الليل ما يزال يتدفق من كل الجهات ، وإن قررت

الرحيل فلن أعبر إلا الباب الذي دخلت منه ، قال لي أبي إن أمه ولدته عند شروق الشمس ، وشاء القدر أن أولد في التوقيت ذاته ، إذن الصباح موعدي مع تلك اللحظة الوشيكة . هبطت منحدرًا الذي يقع عند طرف الجسر ومشيت حتى وصلت المكان الذي التقيت فيه بليلى ، ثمة أثر لأناس بدا لي أنهم كانوا هنا ، لكن ما الذي يدفع بالفقراء للاحتماء بجسر في منطقة لا تشبههم؟ وهل هي مصادفة أن يهرب البعض من الموت اليومي إلى جسر اختار البعض موتهم من علوه؟

استلقيت أفكر بأخي عاهد وناردا وليلى وقاطني البيت المهجور ، داهمني النعاس لكن الصوت بدده وهو يأتي محملاً بالصدى كأنه يتقافز على جدران الجسر :

- تُجَمِّلُ لحظة الانتحار ؛ حتى تداري شعورك القديم بالعجز يا إبراهيم .

أسندت جسدي غاضبًا :

- لست عاجزًا بل مقيدًا .

- القيد عجز ، أنت تريد الذهاب إلى العدم ؛ لأنك عاجز عن الخروج على ما يقيدك .

- إذا افترضت صحة ما تقول ، عليَّ أن أخبرك بأنه ما عاد هناك شيء يستحق التمرد لأجله .

- لكن انتبه إلى أنك سرقت لتحيي أولئك المشردين ، علَّقتَ الجرس ثم ها أنت تُخرسه .

- فعلت ما بوسعي .

- تتلبسك اليوم شخصية الشاعر المجريّ أتيلا يوجيف . مكثت

شهورًا تنكب على قراءة قصائده ، ثم أمضيت أيامًا تحدق بصورته إلى أن رحت تجلس إلى طاولتك وتكتب ، لكنك حينما تمعنت بحادثة انتحاره تحت عجلات القطار بكيت كثيرًا إلى الحد الذي جعل والدك يشتمك على ما تفعل ، لكنك لم تحاول أن تنتصر على خوفك كما فعل أتيلا . كنت تهرب من نفسك إلى تقمص شخصيات عثرت عليها في الكتب . وكلما فرغت من واحدة ذهبت إلى أخرى .

تركت مكاني ومشيت بضع خطوات خارج الجسر ثم عدت وفي صدري صرخة على وشك الانفجار . كان الصوت قد انقطع حينما رحت أقرأ بصوت عالٍ شيئًا من قصيدة أتيلا يوجيف :

- أعرف كما يعرف الصغار ،
أن السعيد من يعرف اللعب .
كثيرةٌ الألعاب التي أعرف ،
فالحقيقة قد تذوي
ويبقى المظهر .

***

استفقت صباحًا على ضجيج السيارات وصدى أبواقها ، ورحت أتلفت حولي أتفحص المكان كيف أتيت إلى هنا؟ وما الذي حدث؟ بقيت دقائق عاجزًا عن فهم شيء . كان ريقي ناشفًا وأطرافي تؤلمني ، بمجرد معرفتي أني أسفل جسر عبدون تذكرت ما حدث لي ليلة البارحة ، تفحصت الفيس البوك ، الأخبار تتكاثر حولي والحكايات تتناسل من بعضها ، تفاجأت بدور البطولة يتصدر ما كتبه المستخدمون .

- صنعت منك بطلاً .

جاء الصوت غاضبًا ، ثم أخذ يصرخ بي :

- لكن البطولة عمل مكتمل ، عليك أن تتممه ؛ لتنال الوسام .

قلت وصدى صوتي يعود إلي من جدران الجسر والسيارات تمر من تحته مسرعة :

- صنعتَ مني لصًا .

- العالم يمضي في طريق لا طاقة لي في أن أفعل شيئًا حيالها .

- لأنك عديم الحيلة ، وسترى ما يمكن أن أفعل .

تلاشى الصوت وأصابني الذعر فلا بد أن أمرًا جللاً سيقوم به ، حينها لن أسامح نفسي . تذكرت لحظة إقدام أتيلا بوجيف على الانتحار ، أغمضت عيني وصورته تتضح في ذاكرتي شيئًا فشيئًا ، وكلمات قصائده تأتي من بعيد بصوت خفيض ظل يعلو ، ويعلو إلى أن تلبسني ، تركت الجسر أمشي بتمهل وصعدت المنحدر إلى أن صرت على طرف الجسر المزدحم بالسيارات . إذن خطوة واحدة تفصلني عن الخلاص ، ألقيت نظرة متهملة حولي وروح أتيلا تحلق في سماء روح إبراهيم ، فضاء صاف تجيء منه أصوات بكاء وضحكات وأغنيات وقصائد . أخرجت هاتفي من جيبي ، وكتبت في الفيس بوك :

(يمكن للجاني أن يكون ضحية ، ويمكن لخيالاتكم أن تجعل من الضحية بطلاً) . التقطتُ لي صورة ونشرتها مرفقة بما كتبت . لكنني فوجئت بخبر متداول يحكي عن نية لهدم بيت مهجور قرب الدوار الثالث .

***

كانت الساعة التاسعة صباحًا حين نزلتُ من السيارة قرب الدوار الثالث ، وركضت إلى أن وصلت السور الذي أزيل فكشف البيت

المهجور ، حيث تجمع عدد كبير من الناس ينظرون إلى (بلدوزر) رفع مطرقته الضخمة فوق سقف البيت ، وضجيج الآلة يختلط بضجيج الناس ، والعربات ، وما يأتي من الشوارع الأخرى .

كيف سأخبرهم أني خبأت في هذا البيت ما يجعل لقاطنيه شيئًا في هذا العالم؟ كيف سأخبرهم أني كنت سأبتكر لهم عائلة ، وأفراحًا ، وحياة جديدة؟ هل سيقتنعون إن صرخت بهم : (إن كل ما نريده هو ما وراء دفء البيت ، وأن الصقيع في طريقه إلينا ، إن بقينا خائفين سنتجمد ، وتتفصد أجسادنا) .

رأيت سلام تركض شاقة طريقها عبر الناس وتصرخ : (هنالك أناس في داخل البيت لا تهدموه) . انتفخت بطني أكثر من أي وقت مضى ، وراحت تكبر ، وأخذ جلد بطني يتمزق شيئًا فشيئًا ، إلى أن رأيت طفلاً يخرج منها ، له ملامحي نفسها ، يركض عبر الناس الذين تجمعوا ، وحبله السري موصولٌ ببطني . أخذ يقفز على أكتاف الناس ورؤوسهم إلى أن وصل رأس البلدوز وصرخ بصوت مدو تجاوز المدينة : (لا تهدموا البيت) . لكن المطرقة كانت قد هوت على السقف ، فتهاوى ، وتصاعد منه غبار كثيف . توقف البلدوزر ، وأطفأ السائق محركه ، تلاشى الضجيج ، وعم المدينة صمت غريب وأنا أنظر إلى بطني ، وإلى سلام ، وليلى ، ونااردا ، وأناس كثر بوجوه صامتة .

بقيت فاغرًا فمي أنظر بكل الاتجاهات ، إلى أن أمسك بي أحدهم ، وقيد يديَّ بسرعة . حينما التفت وجدت عددًا من رجال الشرطة قد ألقوا القبض علي ، وجّه مصورٌ كاميرا تلفزيونية نحوي ، وجدت رجلاً يمسك بميكروفون يصف للكاميرا كيف ألقي القبض على اللص المقنع .

٥

إبراهيم
(خيط بين الحقيقة والوهم)

اقتادوني إلى مكتب ضابط جلس بقربه شرطي يتمعن بملامحي ، وكأنه يتأكد من أن الماثل أمامه هو اللص المقنع الذي شغل الناس ، أم واحد آخر؟ قال الضابط ويداه تتقاطعان ببعضهما :

- سيد إبراهيم ، أنت متهم بسرقة بنكين ، وعدة بيوت . والشريط المصور لحادثة البارحة يثبت ذلك ، إضافة إلى تسجيلات سابقة لم يظهر فيها وجهك .

- نعم أعترف بتلك السرقات .

أمر الضابطُ الشرطيَ بتدوين اعترافي . ثم نظر إلي بعينين تحثاني على اعتراف جديد :

- سيد إبراهيم ، أنت متهم أيضًا بقتل والدك جاد الله الشموسي ، وعماد الأحمر ، وإياد نبيل ، ورناد محمود .

أخرج من درج الطاولة دفترًا ، ورفعه أمام عيني :

- فتشنا شقتك البارحة ، وعثرنا على هذا الدفتر الذي تسجل فيه تفاصيل ما قمت به من جرائم تسميها كوابيس ، ثم إن جارتك أخبرتنا برؤيتها لك ليلة محاولة انتحار والدك ، وكيف دفعتَ بالكرسي فتسببت بقتله .

في تلك الأثناء رأيت الطفل الذي خـــرج من بطني يقف إلى

النافذة من الخارج ، كان بوجه حزين ، غاضب ، محبط ، ومشوب بأمارات لم أفهمها . حدق بي بعينين محمرتين ثم قفز في الهواء ، واخترق زجاج النافذة فانتشرت الشظايا في المكان ، صرخ وهو يقف على مكتب الضابط :

- أنت لم تقتلهم .

صمت لبرهة وأنفاسه تتسارع ، ثم أخذ يتقافز في الغرفة من جهة إلى جهة مصابًا بغضب وتوتر شديدين ، كان عنيفًا كشخص لا شيء لديه ليخسره . أخذت أطرافي ترتعش ، وجف ريقي ، وجاءني بالدوار ذاته . لم أكن أدري ما الذي كان سيفعله ؛ لهذا بات خوفي أكثر مما خبرت ، فراحَ صراخي وبكائي يختلطان بصراخه وبكائه ، كانت لحظة غامضة وشائكة داهمني إثرها شعور بالشفقة عليه ، أو ربما إحساس آخر يشبه التعاطف مع كائن مثله رافقني سنين طويلة . نهضت من مكاني ومشيت نحوه ، كنت أريد أن أعانقه ليهدأ ، لكن صوته انفجر وبات بوتيرة عالية اختلطت بكل الأصوات ، فاستحالت إلى دوي فظيع أصابني بما يشبه إغماءً رأيت عبره ظلال أياد تكبلني وتمنعني من أية حركة ، وسمعت لمام أصوات تحثني على الهدوء ، يتخللها صوت يستعجل طبيبًا للمجيء .

***

أعلنت ساعة جدار صامتة الخامسة صباحًا ، لم تكن الممرضة قد أتت بعد لتغرس بمؤخرتي تلك الحقنة اليومية التي تصيبني بالخمول وبالخبل . فقدتْ ذاكرتي كثيرًا من الأشياء جراء صدمات كهربائية بقوا في مستشفى الأمراض العصبية وعلى مدار شهر يداووني بها ، لكن ساعات الصباح الباكر تمنحني صفاء فريدًا واستعادة قوية لكل ما

حذفته الكهرباء من رأسي ، وما سمعته من ليلى ونازدا . ها أنا أفتح صفحة أخيرة من صفحات الدفتر :

أكتب رغم قناعتي من أن الكتابة لن تجعلني أنجو مما وصلت إليه ، لكنني متأكد من أنها ستردم هوتي المعتمة فأحظى بالسكينة . ها أنا أفرغت كل ما بي على بياض ورق دفتر وجدته أعظم هدية قدمتها لي ناردا التي تأتي مرتين في الأسبوع لزيارتي ، تجلس معي ساعتين تحدثني في كل شيء ، حتى إنها أخبرتني أن المتجر الذي أقيم مكان كشك الوراق كان يبيع المخدرات ، مثله مثل سائر المتاجر التي تعود لإياد نبيل ، ناردا التي تراجعت عن الانتحار في تلك السنة عندما رأت في عرض البحر قاربًا يعود وحيدًا نحو اليابسة ، أدركت لحظتها أن الفقد لا يجابه بالموت بل بالحياة . هذا اليوم هو موعد زيارتها لي ، سأسلمها هذا الدفتر ، مثلما سلمتها باقي الدفاتر . لكنني لست متأكدًا من قناعتي بتسليمها دفترًا دونت فيه كوابيس رأيت خلالها والدي يدفع بنفسه عن الكرسي ، وابن أنيسة يقتل عماد الأحمر ، ويوسف السماك يقتل إياد نبيل ، ورأيت ليلى تقتل رناد محمود . لن أفعل ذلك لأن علينا الصمت إذا ما اختلط الوهم بالحقيقة .

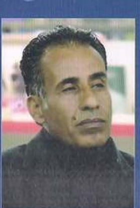
تمت

THE STATIONER'S NOTEBOOKS

روايـة
NOVEL

دفاتر الورّاق

جلال برجس



ها أنتم الآن تقرأون ورقتي هذه، بينما جسدي قد ابتلعه البحر حيث السكينة الأبديّة. أنا منحازةٌ لأسماك الأعماق عند انكسار الضوء وارتطامه بالرمال الطريّة. لا أحبّ ديدان الأرض حيث الظلمة والرطوبة تهب وجعًا إضافيًا للموت، لهذا منحت جسدي للماء سرّ الإنصات الأبديّ، والحضن الذي لا تغلق ذراعاه. لم أكتب وصيّتي، فليس هناك من وصايا للذين خذلوا في حياتهم سوى أن يتمنّوا أن يبادر أحدٌ ليدوزن الوتر النشاز، وليس لي وصايا لأقولها، فأنا محض ريشة دوريّ علقت في هواء لم يسكن ولو لحظةً واحدة. حينها كان يمكنني أن أحط على شجرة وأشاهد كيف تنضج حبة كمثرى على صدر أمّها، أو أحط على كتف رجل ذاهب للقاء امرأةٍ قطع عهدًا على قلبه أن يحبّها كما يحبّ الطائر جناحيه بينما يخفق مارًا فوق شارع يكابد عابروه الزحام. أنا محض امرأةٍ خُذلت في حياتها وجاءت إلى تفكر بالاعتزال كما يعتزل عازف شهير في أوج نبوغه لخلل يستشعره قادمًا لا محالة. لا وصايا لي سوى هذه الكلمات فأحرقوا هذه الورقة وانثروها هنا لعلها تصير شاهدةً جوّالةً تشير إليّ.

جلال برجس:

روائيّ أردنيّ، حصلت روايته (**أفاعي النار / حكاية العاشق عليّ بن محمود القصّاد**) على جائزة كتارا للرواية العربيّة، 2015؛ وحصلت روايته (**مقصلة الحالم**) على جائزة رفقة دودين للإبداع السرديّ، 2014؛ وحصلت مجموعته القصصيّة (**الزلزال**) على جائزة روكس بن زائد العزيزي، 2012؛ ووصلت روايته (**سيدات الحواسّ الخمس**) إلى القائمة الطويلة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة (بوكر)، 2019.

صدر له:

(**حكايات المقهى العتيق**)، رواية مشتركة، 2019؛ (**كأيّ غصنٍ على شجر**)، شعر، 2008؛ (**قمر بلا منازل**)، شعر، 2011.